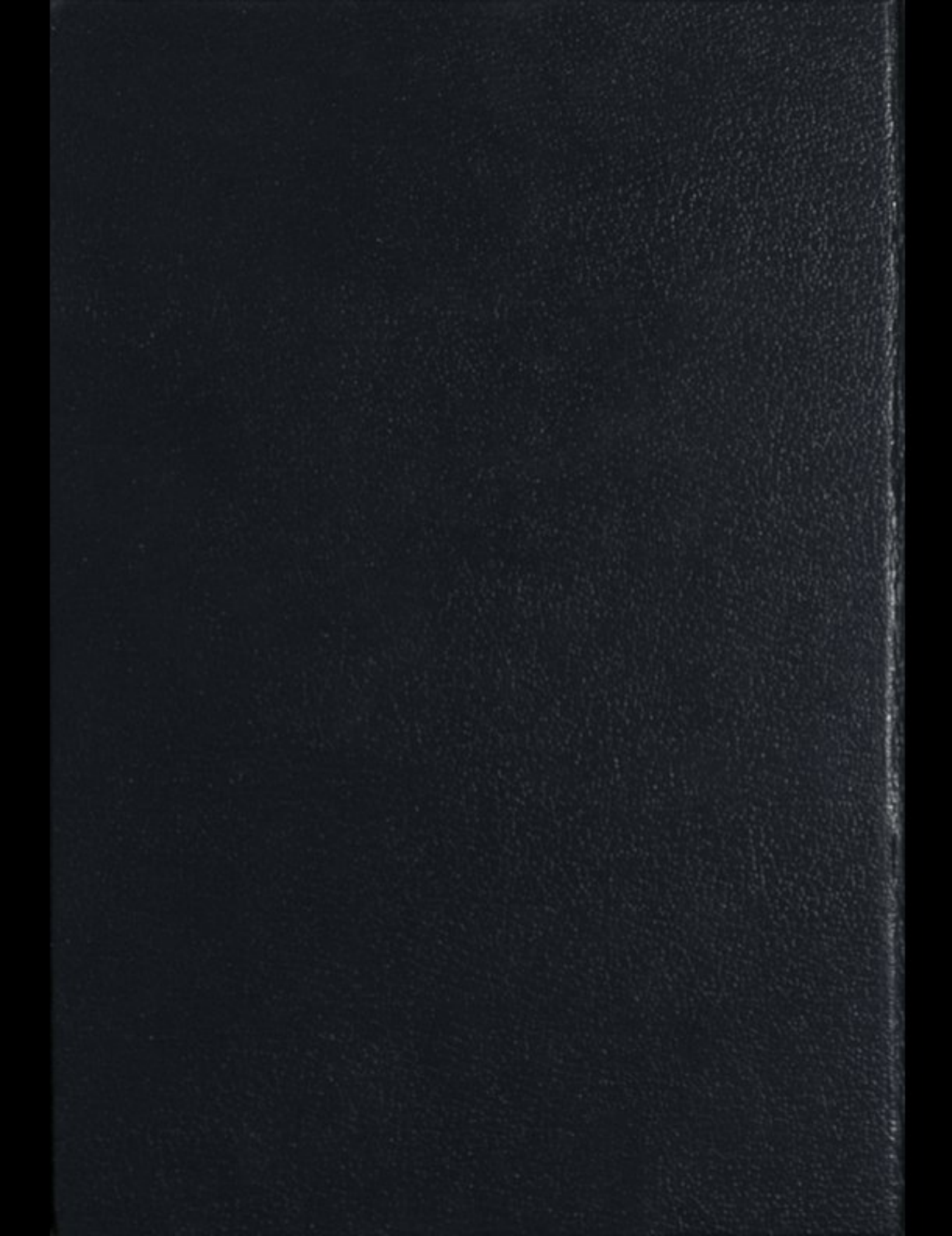


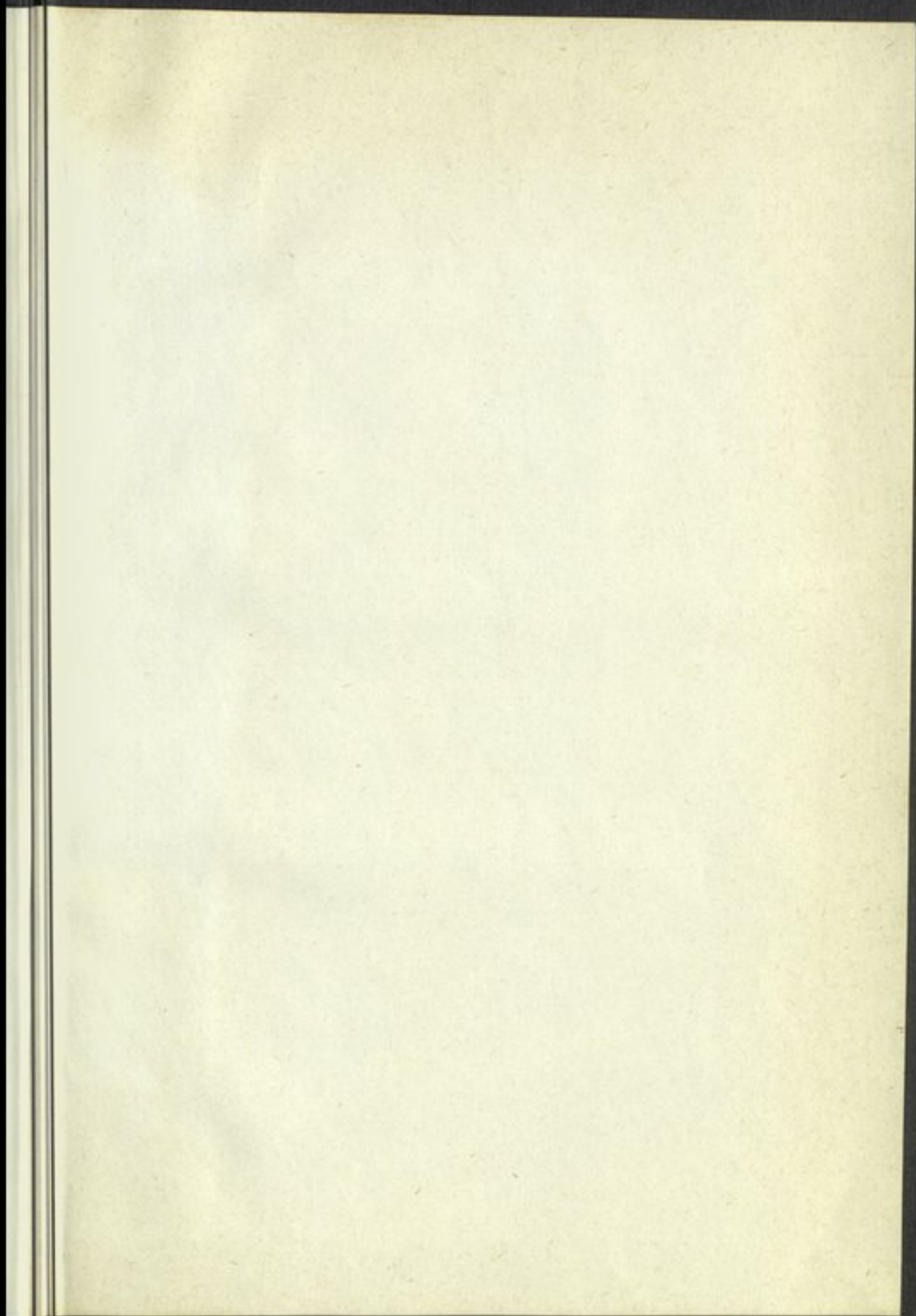


A. U. B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



2000



892.709
A134FA

مارون عبود

في المختبر

تحليل ونقد لآثار اللطائف القاصرين



Cat. 21 Sept: 53

۱۱۱۱

تسخار

مکتبہ اسلامیہ



المعركة الأدبية في مصر

الزراع الذي قام بين ادباء مصر، - والتزاع عنوان الحياة - قام ويقوم مثله في كل عصر وزمان، فمن يستعرض تاريخ الادب يعلم انه لم تكن غارة ادبية كالتى شنت على المتنبي، فقد تألب على ابي الطيب فحول شعراء زمانه، وناصبه العداوة حذاق النقاد من ابناء جيله، فكانت حملات تلتها حملات على الشاعر العظيم، فارس حلبة الادب في ذلك الدهر، والدليل قوله:

افى كل يوم تحت ضنبي شويعر ضعيف يقاويني، قصير يطاول

ومنذ اعوام حرّضت فئة لا يستهان بها على (مناوشات) أشبهت، على ضؤولتها، تلك الاغارة، فحملت على الشاعر احمد شوقي عصابة عقد لواؤها للمازني والعقاد، وكان الشاعر حافظ ابرهيم، ندّ شوقي، من ابطال خنادق الوقعة، فتترّس (بليالي سطّيح).

وانضم الى (الاحلاف) فارس مغوار تعدد شاعر تلك الساعة، وأرانا بدهائه انه غير مغترض، فما سلم من طعناته احد، بيد انّ منها ما آلم واثنى، ومنها ما اشبه الملائكة بقفازات هشة، لا خوف منها حتى على حدقة العين. عقدوا مقالات وفصولاً جمعوها كتباً مليئة بالنعي على الشاعر. نعوا على شوقي تقليده، وسرقاته وسيره على سكة القدماء المعبدة، فما اشبه الليلة بالبارحة.

ثم علا صوت من وراء البحار فاشتدّ به ازر (الاحلاف) - واميركا اعتزلت الحرب الكبرى ثم غاصت فيها حتى الآذان - . فنصبت الموازين والغرايل على (بيدر) شاعر زمانه، واستحال النقد هدماً وتدميراً، والتشذيب تشويهاً وتمثيلاً، حين رأوا شوقياً يراع من النقد، فطارت للنقاد شهرة ما عثمت ان اشبهت السيطرة

على اسواق الادب العربية، فاخذوا يقومون بضاعتها بالاثمان التي تتراعى لهم وتواتيهم، فمن كان على هواهم نادوا على محصوله فراج ونفق، ومن كان لهم فيه مآرب اخرى شال في ميزانهم، كما قال شاعر بني امية . ولم يكن وكدهم غير شوقي .

واعتمد الناس بكل كلمة تذييل بتواقيعهم، وعولوا على آرائهم، حتى اوشكوا ان يطبعوا الادب الحديث بطابع خاص، ففرضوا على الادباء والمتأديين اراءهم ومذاهبهم فرضاً، فكادوا يسنون النواميس والشرائع للكتاب والشعراء، فمن خرج عليهم، او تجاوز تحوم جمهوريتهم السعيدة، كان العتيق المنبوذ، ولو صام تحريره الف غاندي .

فشل شيخ الارهاب واتى حملة الاقلام شر هذه الحملة المنظمة، التي جلبت اعتدتها من مصانع الغرب، وما تلك غير اتجاه جديد في مناحي التفكير، وتغيير لمقاييس المثل العليا، فجعلوا الذراع متراً، والفرسخ كياومتراً، حتى عابوا على امرئ القيس والمتنبي (مثلاً) تزييهما - في ذلك الزمان - بالكوفية والعقال، واستغربوا كيف انهما لم يلبسا القبعة، والطوق القانم، وربطة العنق، والسراويل المزمكة، كبودلير، وما لرمي، ورمبو، وبريدون، وفرلين، وفالري . كأن الظواهر الجوية لا تختلف في صحراء العرب عن جبال الالب، وكأن الجاهلية لا حساب لها، وكأن التفكير يجب ان يكون واحداً في كل امة وقطر .

وتقنصوا لباس (انصار الجديد) فلبق بهم لانهم مجددون حقاً، وخلعوا على من ناراهم جبة القديم، فكانوا متطرفين، ولم يكونوا لو لم يعروه بها . واشتد النضال وحمي الوطيس وكان يوم له ما بعده، صراع بين القديم والجديد تطوع فيه (سنت بيف) لتحرير الادب العربي، تطوع لافاييت لتحرير اميركا ...

وما ابصر الناس سنت بيف بين الصفوف حتى استصرخوا سواه، فصارت الجبهة الادبية المصرية عربية اعجمية، وقف فيها القديم من الجديد - في هذا

الحين - موقف السنّة من المعتزلة - في ذلك الزمان . تدرعت المعتزلة بالفلسفة، ووجدت سيف المنطق ذا الحدين، فدارت الدائرة على السنّة، في جبهة الجدل، حتى كان الغزالي ورهطه وسبطه .

وسكنت الارض بين يدي دعاة الجديد، وآمن الناس بكل ما اتزل على اقلامهم، وشد ازرهم الشباب، والشباب نزاع لكل جديد، فقوي ظهورهم .

ثم مات شوقي وصار في ذمة تاريخ الادب، فلم نسمع بعد موته نقداً، وهذا اوان النقد التزيه . واشتد ساعد الشباب فحاولوا ان يشاركوا (الآباء) في ارائهم ويروهم كفائتهم لصيانة التراث وانائه، لعلهم يستعمرونهم في بقاع مملكتهم الواسعة، فلم يعترف (الآباء) لهم بشي . من ذلك، سجية الاب المستأثر، فظن الابناء بالآباء شراً، وقالوا ان هنالك كيداً، بعد ما رأوا كل ثناء الآباء عليهم (بارك الله عليك) . . . وان استحسنوا شيئاً من طرفهم عبروا عن استحسانهم بتلك الابتسامة الابوية الغامضة الفاترة التي رأيناها صغاراً على ثغور آبائنا .

فعلت الصيحة حول (الملاح الثالث) و(ورا . النعام)، فانفجرت التجربة بين الشيوخ والشباب، وكان الذي خفت ان يكون .

ما نفخ في الصور ولم تقم القيامة فجأة، بل هنالك مقدمات حسر عنها اللثام (سيد قطب) في مجلة الاسبوع، اما انا فكننت اترقب قيام الساعة في مصر الادبية، وقد بدت لي اشراطها حين غادر الدكتور طه حسين (الرسالة) وحل بطن (الوادي) وتربع الرافعي على عرشه في الرسالة .

علمت ذاك الحين ان في صدور الشباب براكين تتقد حنقاً على الشيوخ المستأثرين، فاخذت اتوقع الساعة فاذا بها قد ازفت، وكال الشباب لشييوخهم بالكيل الذي كالوا به هم للرافعي وانصاره .

ألم يطلق دعاة الجديد أمس، وشيوخ الادب اليوم، على الرافعي ولفه لقب

انصار القديم ؟ وهذا ما فعله اديبا الشباب . لقد شيوخوا طه، والعقاد، والمازني،
قبل الاوان .

الله الله ما هذا المصير، كيف استعجلوا الشيء قبل اوانه، مسألة فيها نظر،
فالاب شيخ في نظر بنيه ولو فتياً .

ما قلت ابتهاراً انني ترقبت قيام الساعة بل ممعت باذني ورأيت بعيني ان حملة
تجهز، فهناك فؤوس تشحذ، ومعاول تحدد، ومناجل تسن، وشيوخ الادب على
عروشهم يصدرون المراسيم . الامويون في غفلة والخراساني ييث الدعوة العباسية .

تربعوا على عرش النقد، والنقد (اعسر امره ميسور) ما دام تهكماً واستهجاناً
وتطلب كمال لم يخلق بعد، ودعوة الى (موز) بطلت من اسواق بلادها .

ينقبون عن السيئات بالمجهر، ويرون الحسنات خفية، ويطلبون من البلبل تعريد
الحسون، ومن العربي شعور الفرنجي، ولكل منهما ظروف واحوال .

وبعد، فما لنا ولهذا الآن، فان ساعته لم تأت بعد، وستأتي ان شئت الهة
الادب . يقول الناس (الكنة وحماتها) خصمان اذليان، ولا يبحثون السبب حتى عدوا
مخاصمتها غريزة، واذا اعترضهم شذوذ عن القاعدة وقفوا حائرين، ولو تبصروا
لادركوا ان ذلك الخلاف الازلي في كل مكان وزمان لم يكن لولا التنازع على
السيادة والاختلاف في الرأي .

انه لصورة جليلة من صور تنازع القديم والجديد، فالكنة التي تنقاد لحماتها ملك
كريم، اما التي تعارضها او تحشى الحماة منها كيداً لسلطتها فهي شيطان رجيم .

الكنة وحماتها، والشباب والشيوخ شيان متشابهان كأنهما جتنا عدس، فن
ساير الكهول واعترف لهم بالسيادة المطلقة، واثني عليهم ثناء ابي نواس على خمرته
وقدسهم تقديسه لها كان من نوابغ الادب وكانت تأليفه (خطرة) - تعبير جديد
اقرأه للناقد ادمون جالو، دار على السنة اقلام نقادنا حديثاً - اما من انتبذ منهم
مكناً شرقياً وركب رأسه هاجموا بالنبال واعدوا له القيود الدهم في الليالي القمر،

وفيا حدث بين طه حسين وتوفيق الحكيم منذ عهد غير بعيد دليل صدق، وعند
الاسبوع والوادي والرسالة الحبر اليقين .

ودرج فرسان النقد المغاوير، او شيوخ الادب في لغة الشباب، على (تقارض)
التقريظ والثناء والاشادة بالذكر حتى اصبح شعارهم : اثن علي اثن عليك، حك لي
احك لك، فمجت بفصولهم صدور كتبهم، وفاضت بها انهار الصحف، وجاشت
غوارب المجالات .

رأى ذلك منهم زكي مبارك فغاضه . مروا بتأليفه القيسة مرور الكرام، فتولى
بنفسه تقديم كتابه (النثر الفني) وقال عن نفسه في مقدمته ما قاله بولس الرسول
عن بولس الرسول في رسالته الثانية الى اهل كورنثس : (ان كانوا عبرانيين فانا ايضا
عبراني، وان كانوا من نسل ابراهيم فانا ايضا كذلك، بالضرب افضل منهم، بالجلد
افضل منهم، بالحسب افضل منهم، وبالوثاقات افضل منهم . جلدي اليهود كذا،
وضربت كذا الخ . . .) وكان لسان حال الدكتور زكي يقول : ما حك جلديك مثل
ظفرك .

شط القلم ولم اقل لك كيف عرفت بهذه الثورة قبل نشوبها، واجهت في حلب
اتفاقاً سفيراً من سفراء الشباب او رائداً من روادهم، يشر كراهب الحرب الصليبية،
ويعلن ان الشباب من ادياء مصر سيصدرون مجلة يذيعون بها ادبهم على الناس،
وان الشباب يريدون ادباً غير منقول ولا منحول . ينشدون ادباً مبتدعاً، شرقي
الاصبغة والالوان، يريدون ان يطهروا للجيل ادباً غير ملتقط عن موائد الغرب،
يريدونه ادباً ملتوتاً بالادام العربي ليزدرده العرب، ثم صرح بعد هذا التعريض بذكر
نفر لم يكونوا شيوخهم بعد، فاتهمهم بانتحال شي . كثير .

وشاء القدر حين بارحنا حلب ان يجمعنا القطار، فسرنا على بركة الله، وبعد
ان انتهينا من التاويح بالمناويل، قعدنا للحديث، فتذاكرنا ادياء مصر المالكين سعيداً
في القاهرة، وطال حديثنا حتى مللناه وغنا .

د. زكي مبارك
الحرب
اسمه بولس
الاصبغة
الادب
القدر

واستيقظت قبل صاحبي فانكبت على مطالعة كتاب (خطر)، غريزة المرأة
للمازني، تفضل به علي تلميذي الصديق اورخان ميسر من ادباء حلب الشباب، ليخفف
به عني سأم الانفراد وضجر السفر في القطار النعسان، فما جئت على نصف الكتاب
حتى افاق صاحبي من نومه، واللوث بادر عليه، ففرك عينيه قليلاً ثم التفت فوقع
نظره على عنوان الكتاب فنشط وقال : تطالع غريزة المرأة للمازني ؟

قلت : نعم .

فهز رأسه ثم قال : أقرأت ابراهيم الكاتب ؟

قلت : لا، ولكنتي صممت به .

فهز رأسه وكاد يتبسم، ثم رسم على شفتيه القافلاً لم يحسدها المنطق فافهمها .

ودار حديث المسخ والسلخ والنسخ، فتذكرت ابن الاثير، ولئن صح ما اتهم
به صاحبي ادباء الساعة، لكان أولى بالأجانب ان يكتبوا (السرقة ممنوعة)
بدلاً من (جميع الحقوق محفوظة) .

وكان موعدنا بعلبك فتزلنا، وفي الغد تلاقينا على رأس العين، وكان آخر العهد
به . وانطوت الايام واذا بي اذكره في الشتاء، حين قرأت في مجلة (الاسبوع)
وصف حفلة اقامها شباب الادباء في القاهرة للمسترجب المستشرق الكبير، اكراماً
له واعترافاً بجميله لعنايته بالقصة المصرية، ودرسه لها في كبرى جامعات انكلترة .

وكان حديث بين المسترجب والمحترفين به من الشباب، لم يخل من عتاب
سوف يأتيك خبره . فصبراً يا قارني العزيز، فالليل طويل وانت مقمر .

أدب القصة بين العقاد والرامي

كاد يبطل التسويه بالقصدير، وقل عدد (المبيضين)، وصار الادب (الشكولاهي)، غير مرغوب فيه، فهو يناع اذا أحرّ النقد، ولا تستر عورته تلك الاكسية اللماعة البراقة التي لا تفتن الا الصغار . وسوف تطرح الصحف الخطيرة الفث والمراء ليذهب به الكنأسون، فلا نقرأ في قابل الا رصيناً، ولا نجس الا مميناً . ومن يهد الينا مثل شاة (فتى منقر) نعلق في جيدها جلجلاً ولا نستحي (كبشار) الذي ما استجيا قط الا تلك المرة . . . اما الذين يكبسون بيوت « ادباء الغرب » ليسبوا بناتها وينهبوا خريتها فنشهرهم شهيراً، وهذا هو الخلد الذي يقام على لصوص الادب .

ان لطفه حسين يداً في هذا التطور الادبي، وان اقتبس كثيراً واحتذى اكثر . فلا ضير عليه ما دام قد ابدع شيئاً مذكوراً . لا يضره شيئاً مشيه على ضوء (تين) ولا يشينه تعكزه على (سنت بيف)، ففي كل آداب الشعوب عناصر شتى تفاعلت فكونتها . لقد وجه طه طريق الادب العربي الحديث، وعلم من لم يعلموا ادب الغرب كيف يفكرون . إلا ان طه واخوانه من ادباء الساعة في مصر اصبحوا كالذجاجة العجوز تبيض قليلاً، وتقوق كثيراً، فتشين عطاها بالمن والسأم . . . ويهرم الناس قوقها .

فن يتفئش ويفتنخ كالمتني اصبح ممقوتاً، ومن يقل للناس كالبحتري، لماذا لا تقولون احسنت، صار مبغوضاً ومنبوذاً، وان كان لا يزال بعض ادبائنا يفعلون كالمهرجين والمغنين اصحاب التخوت من ناصري الدف المخشخش، والبربط، فيسترققون جوقات للتصفيق و(التطليب) والهيشة، كأن منتديات الادب عرس رعاع .

ثم لا ادري ما اقول (بنفر) توخوا حتى خطوا بايديهم (التوطئات والتعهدات والتقايرىظ) لما ينشرون ويذيعون، وكلفوا الصحف والمجلات نشرها . وان استنكرت واستسجبت فعلتهم هذه خبروك وما استحو ان (شوقي) كان يفعل هذا . فن أنبأ هؤلاء العقلاء ان كل ما كان يفعله المرحوم شوقي حسن ؟ ؟

فما ارى هذه التقايرىظ الا صياح باعة في السوق، فلا يبطل زعمهم الا نار المطبخ، فالطهي بيدي الدسم، والكثير بيدي عن خبث الحديد .

وهناك معشر يحردون على النقاد، كما فعل العقاد . حرد وسخط لان سيد قطب قال ان قابله الشعري قاس، وجمع بينه وبين ابي شادي في مقال حين نقد او قرظ ديوانيهما : الينبوع، وهدية الكروان .

فالعقاد، كما صرح سيد قطب، (يكره ان تنعقد في أذهان الناس صلة بين فنه وفن ابي شادي ولو في الاسماء . بل هو يستنكف ويأنف من مثل هذه الصلة) (الاسبوع عدد ٣٥ ص ٢٢) .

أرأيت الآن ايها القارى، ارستقراطية زعما. الادب في مصر، أصدقت ان فيهم المنبوذين والانجاس، كما في الهند ؟ فالى الصوم ايها الغانديون .

غفر الله لطله حسين، فن جهتين لا جهة اساء، فقد جثم ويجمم مكاييل الثناء للعقاد، ونصره على شوقي، كأن شعار طه انصر اخاك ظالماً كان او مظلوماً . وهو لو عدل لاتاد في نقد شوقي، ووقف منه موقف النصيح لا المندد، ولكن كما قال طه : حب الشهرة عدو الفن، والمرء مؤاخذ باقراره .

وما عثم طه والعقاد ولفهما ان صاروا كشوقي، يعدون النقد، ان مسهما، تهيجاً وحقاً، كأنهم بابا رومة، فن يناقشه يكفر كلاميه . فهل لطله ان يتبصر، فلا يكون (المروان) سيقه يقوده حيث يشاء بعد جلال السن . ان في الذين حاول طه وجماعته ان يقتلعوهم، ساعة طرؤا، من هو اصلح للغد ... اليس الادب دولة كما

يقولون ؟ فإذا يحل بدولتنا اذا لم يكن فيها (جنود، جيش احتياطي) متى
اقعدت السن هؤلاء. المارشالين العظام .

لست اخال طه، وهو قد نصح الشباب ان يطالعوا، الا قد طالع في النوفل ليتر
مقال هنري دي رنيه الشاعر الافرنسي، واحد الاربعين الخالدين. خبرنا هذا الشاعر
كيف عرف برونتيير الناقد الافرنسي الشهير، واحد الاربعين ايضاً، ومدير مجلة
العالمين، وقدم له قصيدة من نظمه فأذاعها له في المجلة وعُقب عليها بما أغمّ دي رنيه،
في البداية .

وذكر دي رنيه كيف قابلت المجلة عينها الشاعر بودايير يوم اتى ببدع في الشعر،
فهان عليه الامر وأسلس قياده بعد شماس، فاطردت رسالته الادبية . وخطر
لدي رنيه ان يقفز من النظم الى النقد - وفي راسين ايضاً - فقابله برونتيير بكل
خجاجة وقال له : اما النقد ياسيد، حقاً لا . اني اؤجلك في هذا عشر سنوات .

هكذا يا شيخنا الجليل، يفعل الناقد التزيه بالشباب . ولكن الولد معجب
مزهو، وفي الاب صلف وعرام، وماذا يفعل طه، فالمعقاد جن بالامارة، وطه يمهّد
لها ولا تأتيه منقادة تجور اذيالها، ولهذا تراه يحاول تهشيم كل اديب، ولا فرق بين
الاقطار، ليسلم راس (الامير)، والمعقاد يخيم في الشاطئ كاني منذر ...

ان النظم، تقليداً ومحاكاة، لا يخلق شاعراً، فالتبرج غير الحسن والجمال،
والانشاء سجية . وهل من جناح علي اذا سألت شعراءنا المتنطسين وادباءنا المترمتين
ونقادنا المتحذلقين : *لحيه*

احاكي حزقيال واشعيا وارميا وايوب وسليمان وداود وهوميرو، غيرهم من
الشعراء، ام قالوا هم الشعر فصار شعرهم فناً .

وهذه الاجرام اتحلّم بالانظمة ام تسير، فجعلنا سيرها نظاماً، فليفترض انشتين
ما شاء، اما انا فلا يعنيني من الكون الا ما فيه من فتنة تحيرني .

واكد اقسام بالله ان شكسبير الجماعة لم يفكر قط بما يقوله النقاد كل يوم،
وان فرجيلهم لم يحلم ابداً بما يقولون لنا عنه بعد عصر اليوافيخ، وان المعري لم
يفت علمه علم قروم جيله، وان قال : واني وان كنت الاخير ... ولكنه تورد
وصاح، فاخلد وقدم .

وهذا الادب القصصي الروسي الذي فتن العالم أطبع على غرار ؟ اكانت له
مقاييس خاصة ؟ ام كان فصار فتنًا يقاس عليه ؟

الا فاتركوا النوايغ يخلقون فنهم، فلا نبوغ حيث لا خلق . ارفعوا من سبلهم
عليقكم وقندولكم فهو يدمي ارجلهم، وينزق اذيالهم، فالنوايغ فقراء (بالمعنيين) .

واعجباً، اتنددون بالتقليد والمقلدين، والتقليد تفعلون !! لقد قلتم شعراءنا
القدامى في اعيننا ولم تبدعوا كما ابدعوا بل رحتم تقلدون الافرنجي والانكليزي
والالمانى، ماسخين ساحلين ناسخين .

قد تكون السيطرة في كل شي، اما الادب فهو شخصي، ومن لا شخصية
له في ادبه فهو البو .

ان الحسنون لا يحفل بسلام فاجتر، والبلبل لا يبالي بمغازف الموصلي، اتشوشت
اوتارها او اصاحها . والكروان الذي فتن العقاد لا يصغي الى الفارابي، فهو لا
يضحك ولا يبكي ولا ينام، مها لعب ابو نصر بعيدانه وافتن في تركيبها . الطيور
تستقبل النور وتغني الفصون ولا تصغي الى من في الظلال، ولو كانوا يستمعون الى
(اسطوانات بتهوفن) التي ردها طه حسين الى توفيق الحكيم حين كانت بينهما
مغايطة . الطيور الموهوبة تغني ولا تكون حدياً احد، ومتى امتلأت نفسها غبطة
ولم يعد عندها ما تقوله طارت . انها ليست ككثير من الشعراء ... انها لا تهب
الا عن فيض .

والادباء المطبوعون كالطيور، فدعوهم وشأنهم، واحملوا براجرم وفوادنكم

فأنتبه الطبيعة لابنها (البار) لا يقاس ، ولا يكال ، ولا يزان ، فكل شيء يزان
الا العبقريّة .

وقصارى الكلام ان الادب البارع شهى ، أدب قصة كان أم ادب مقالة أم
ادب قصيدة أم ما يخلق النوابع . الادب كالثمار التي تخلقها جنيتي . لكل ثمرة
طعم ولذة .

•

سئل العقاد عن رأيه في القصة فقال :

« ليس خلو ادب امة من القصة دليلاً على نقص في ادب الامة ، او في ادب
الفرد ايضاً » .

لا بد لي من كلمة قبل المناقشة ، ان في العقاد لباقة الحائط ، ذاك يرفو الثياب
وهذا يرفو المقاييس الادبية ، لتطابق هيكله طولاً وعرضاً . . . فما اشبهه بصاحب المثل
السائر ، الذي كأنه لم يؤلف هذا الكتاب الا ليدلنا على نفسه ، تارة بقلت ، وطوراً
بأنا انا فقلت . . .

ادرك العقاد ان شعره كالدينار الاخرس ، لا نعمة ولا ايقاع ، فاخذ يتمدح
(بساطة) الشعر الانكليزي والالماني ، وعدّ فكتور هينغ مجلجلاً بلا رحمة ولا
هودة ، ونسي نكتة الجاحظ في سينية ابي نواس : هذا شعر لو نقر لطن .

ولما سئل عن رأيه في القصة ، ورأى ان ادبه خلو منها اخذ يتعطط في الحديث
وينافح بالسيف والترس عن ادب الامم والشعوب والجماعات والافراد .

اما الامم يا استاذ ، فاول ادبها القصص ، والمشتزع ، ولو وثنيًا ، يفكر بقصة
الحلق قبل عرض دينه على البشر . فكم عندنا وعندكم من قصص !! الحياة كلها
قصة ، ووجودي ووجودك اليوم قصة - احسن الله الخاتمة - فلا تخف ان يخلو
الادب العربي منها اذا خلا ادبك ، (لا مبيع الله ، اما عندك مذكرات ابليس) ؟

سم قال : ان كثيراً من اكبر الشعراء والكتاب نظموا ونثروا دون ان يخطر لهم في بال ان يساهموا في كتابة القصص .

اذا اردت القصص كما نعرفها اليوم، فالجواب نعم . اما خاوا اديهم من القصص فهذا شيء ندر، فلم يخلد عمر ابن ابي ربيعة لانه كان (يحفل بتجويد اللغة) كما ستقول، في المتأخرين والمتقدمين من جودها اكثر منه .

ان قصيدته (أمن آل نعم...) هي اقصوصة اليوم الفنية لو احسن خاتمتها ووقف عند :

وأخر عهد لي بها حين اعرضت ولاح لها خد نقيّ ومحجر

ولكن مرض العصر الجاهلي راوده عن فنه فأغواه، كما اغوت الحية حواء بمكرها، وما اراه وصف ناقته الا ليفتننا بهذا البيت :

فقمتم الى مفلاة أرض كأنها اذا نظرت مجنونة حين تنظر

يا ليتك لم تقم اليها يا عمر! ابعد ذاك الفن الممتع تسمعنا هذا اللغو - لغو الصيف - بل ليتك سمرت في ارضك كامرأة لوط، تراقب الحُد النقي والمحجر ولم تحوش قصيدة كأنها العافية في البدن .

فمن علم عمر القصص يا استاذ؟ ان النابغة يخلق الفن، ولن تخلق الجرومية فناً . انقلد شعراء العرب ونقول بالتجديد؟ لا وآلهة الفن، ان التجديد الهام، ولا يتأمم الناس الا من يأتي بدعاً .

وقال (ولولا سهولة القصص، ولاسيا عند الذين لا يحفلون بتجويد اللغة، لما كثرت الدعوة اليها بين الكسالى الناشئين) .

قلت : «جاء يوحنا لا يأكل خبزاً ولا يشرب خمراً فقلتم ان به شيطاناً، وجاء ابن البشر يأكل ويشرب فقلتم هوذا انسان أكل شريب للخمر محب للعشارين والخطاة» . جود البعض اللغة وامامهم الرافعي والزيات والمازني، فقلتم الرافعي

دبرانه السيد محمد
رحمه الله

عتيق يعيش في الجاهلية، وعثر طه صديقه الزيات بسجعه، وعد سلامه موسى المازني قديماً . وكتب الناشئون فقلتم كسالى لا يحفون بتجويد اللغة .

أأمت النصيحة تعبيراً، وصرتم، يارجال الادب كأمرأ الاساطيل تحيون بعضكم بقنابر المدافع .

قال المحدث : وهنا سألت العقاد لماذا لا يعالج القصة ليرينا شيئاً (مثالياً) في هذا الفن ينسج على منواله الناشئون الذين يصفهم بالكسالى، ولماذا يخلو ادبه من القصة ؟

فأجاب : (ان كتابتي لم تحل من القصة لانني كتبت فصولاً مختلفة بعنوان مذكرات ابليس قبل نيف وعشرين سنة، ولم ينشر من هذه المذكرات غير مذكرة واحدة عن اغواء فتاة ... الخ) .

قلت : لقد قرأت كثيراً عن شيطان العقاد الذي فتن أخيراً صاحبه طه حسين حتى عد قصيدة العقاد ملحة . ليرحم الله صاحب فاوست، وشتان ما بين اليزيديين ...

وقال (على اني لا اهتم كثيراً بكتابة القصة - قلت : ولا قليلاً، ولا هذا عيب، ولماذا كل هذا التنصل - لانني اعتبرها نوعاً من انواع الادب التي يكثر فيها الاسفاف ويقل السمو، وهي غير مطلوبة لذاتها، بل مطلوبة في الاكثر لانها ايسر منالاً عند الجماهير التي لم تألف دراسة الادب الرفيعة، ولن ترى في كل ألف قصة وقصة تظهر، واحدة جديرة بالقراءة والبقاء) .

اما كثرة الاسفاف وقلة السمو فهذا صحيح بالقياس الى طغيان ادب القصة، ولكن أليس الامر كذلك في كل فن، اما في الشعر اسفاف ... هلا ذكر الاستاذ كثرة المواليد وقلة النوابع ... فهل ينصح النساء الا تحبل وتلد !! فليكتب هو شيئاً سامياً، فمثل العقاد لا يسعى لنا في اطفال الشؤون .

ان المتمشقين ينظرون الى القصة كأنها الادب كله، وما ظفروا حتى الساعة بقصة مصرية بل عربية تستأهل الجلوس على الرف بين طرائف البيت . فما يصد

العقاد عن هذا وهو ذو فن يطمح الى اخلاده بكل قواه . واما ان الرواية ايسر
منالاً عند الجماهير التي لم تألف الآداب الرفيعة فلمن كتب تولستوي، ودوستوفسكي،
وتورغنيف، وغوت، وملتون، وفلوبير، ودانت، ويو، وفرانس، وماريه، وكبلنغ،
وشو . واخيراً جول رومان الذي احتفيم به في هذا الشتاء (وشغل المثقفين من
سكان مصر اسبوعاً كاملاً كانه عيد من اعياد الثقافة العليا، وكأنكم بتحدثكم
اليه قد تحدثتم الى العقل الافرنسي كله) الى ما هنالك من كلام صاحبك طه .

مسكين طاغور يكلف نفسه كتابة القصة وهي ليست من الآداب الرفيعة
يكثُر فيها الاسفاف ويقل السمو، بل ما اغني جماعة جائزة نوبل، كيف يمنحون
القصصين ذلك المبلغ الضخم ! !

والآن كما بدأنا هذا الامر نعيده : وان مقاييس العقاد في الكم والكيف
مفصلة عليه، فما خلا منه ادبه فذاك شيء لا يعتد به، وليس من الآداب الرفيعة .
فهب يا استاذ ان ما تكتبه منزل، فما شرط هذا على الرسل ليؤدوا رسالتهم، ولا
يتدلوا على الله مثل هذا التدلل . نورنا يا استاذ، نور الله وجهك، حقاً انك متعنت .

وبعد ان وعد الاستاذ، لو توافر له الوقت، بتدوين كثير من تجاربه وملاحظاته
بقالب قصة - تمنى الا يكون قاسياً - قال (اما الآن فحسبي ان اؤدي في
امانة الادب ما انظم من شعر وما اكتب من فصول او مؤلفات) .

قلت : يا ليته قدم النثر على الشعر فنثر العقاد اشعر من نظمه .

اقول هذا، ولا ابالي، اغضب العقاد ام رضي، فقد واثقت نفسي يوم اقدمت
على تدوين هذه الفصول ان اكتب للدهر العتيد، وبدأت بمن لا اعرف حتى اذا
جاءت نوبة من اعرفهم عذروني وتأنسوا .

•

وسأل المخبر عينه مصطفى صادق الرافعي لماذا لا يكتب في القصة، فأدلى اليه
بقال عنوانه (فلسفة القصة ولماذا لا اكتب فيها) (الرسالة عدد ٤٠) .

افتتح الاستاذ مقاله بانه وضع كل كتبه ومقالاته في قصة بعينها هي قصة العقل الذي في رأسه، والقلب الذي بين جنبيه، ثم شارك زميله العقاد في تقرير كتاب القصة بمصر فقال :

(فقام عندنا المتابعون في الرأي والمقلدون في الهوى والضعفاء بطبيعة التقليد والمتابعة) . ثم قال : (انا لا اعبأ بالمظاهر والاعراض التي يأتي بها يوم وينسخها يوم آخر) . الى ان قال : (ولذا لا امس من الآداب الا نواحيها العليا) .

وادب الرواية ماذا يا استاذ ؟ حقاً ان عنب هذه الدالية مز...
وقال ايضاً (ثم يخيل الي انني رسول لغوي بعث للدفاع عن القرآن وفنه وبيانه) .

الحمد لله لم يؤمر العقاد، فلو أمرناه لكنت رأيت يا رافعي ... لكان والله فعل في وادي النيل ما فعله لؤلؤ نائب الاخشيذ في بادية السجوة ... حسب الرواية
فلا تتعن الدفاع عن القرآن، فالذي حفظ الامة واللغة، حتى صمناك ناطقاً بها، يغلب وحده كل جيش من لحم ودم . لم يأتك نبأ فتحه اليابان، فقد آمنوا به ، وما اطلعوا على كتابك (اعجاز القرآن) !!

ثم قال : (انا من اجل ذلك اراني الى الآن مع الادب العربي في فنه وبيانه اكثر مما انا مع الحكاية ولغتها وعواطفها . فاكبر عملي اضافة الصور الفكرية الجميلة الى أدبنا وبياننا ، متحاشياً جهد الطاقة ان انقل الى كتابتي دواب الارض ودواب الناس الخ) .

حاشاك يا استاذ، ولكن كيف غابت عنك وانت الرسول اللغوي . ان الله لا يستحي ان يضرب مثلاً ما بعوضة ! الا فاسلم لادبنا وبياننا والصور الفكرية الجميلة . بحسبنا منك دواب الارض ودواب الناس . حقاً انها لصورة فكرية جميلة .
اما ما سقته في مقالك عن القصص الرديئة فرائيك كرائي كل ذي لب، وكل

انسان يعرفه بالبديهة، فالادب كالطبيعة فيها الترياق وفيها السم . وفي الاديان - وكلها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر - ما هو الهى وما هو غير الهى، فكيف بالادب !!

ثم قال ويا ليتة قال هذا واراينا : (ان في القصة ادباً عالياً ... ولا ينبغي ان يتناولها الا الافذاذ من فلاسفة الفكر، والاعلام من فلاسفة البيان) .

الست انت منهم ؟ فقد كتبت والعقاد مقالات فلسفية حملت المازني ان يقول في صدها : والآن فلنتفلسف وفلسفتنا هذه جديدة الا انها مستمدة من سوانا... (قبض الريح ص ٦٢) .

ثم تلاوى الرافعي ولدغ كتاب القصة بقوله : (اما من عداهم ممن يحترفون كتابة القصص فهم في الادب رعاى وهمج، كان من اثر قصصهم ما يتخبط به العالم من فوضى الغرائز) .

الغرائز غرائز يا استاذ، بقصة وبلا قصة، والغرائز هي التي خلقت القصة، الا فاكتب لنا انت ما يكبت هذه الغرائز ويتسامى بها ويخمد فوضاها، فانت من سراة الادباء، ولا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ...

وبعد، فما تقول بقصة يوسف، وقصة يوزر، وقصة داود (ابو التسع والتسعين)
وقصة سوسنة، وقصة راحاب، وقصة يهوديت، وقصة دليلة، وقصة قوم لوط،
وقصة تamar ... اما كل هذه في التوراة، والتوراة كتاب مقدس ؟
لكن الرافعي كزميله العقاد يريد ان يطعن في كتاب القصة المصريين،
فكلهم شباب ما خلا بضعة نفر، ولهذا ختم فلسفته الطريفة بقوله الرائع :

(اذا قرأت الرواية الزائفة احسست في نفسك باشياء بدأت تسفل، واذا قرأت الرواية الصحيحة ادركت من نفسك اشياء بدأت تعلو) .

اللهم غفرانك !! اني خطر في بال غير المهلوس العقل ان يلتبس منك ومن

العقاد بآبة تسفل !! خفانيكما بعض شي. من بآبة تعلو، وانسفا هذه الآداب،
آداب تسفل، حتى لا نرى فيها عوجاً ولا أمتاً .

الآن ادبك خلا من القصة، اللهم الا قصة عقلك وقلبك ، يصيح كتاب
القصة - الا من استثنيت - رعاها وهمجاً، ويتنزه قلمك عن وصف دواب الناس
فما هكذا ينظر كبار الكتاب مثلك الى الناس . لقد كان اجمل بالصحف ان
تنزه عن عرض هذه الحضارة المريثة لتبيعهما من الناس كأنها طازج . ولكن ما
الحيلة في اسواق لا تراقبها بلدية ولا (صحبة)، بل ما العمل بكم ، فني عنقكم
رقية الشهرة فاستعصيم على النقد . دامت لكم خزة العين .

هذان رأيان لكاتبين كبيرين من ادبائنا، وشاعرين ايضاً، بل غوذجان من
ادبنا المصري، واحد عتيق وآخر جديد، ثكلتني أمي - رحمة الله - ان كنت
اعرف الجديد منها .

حاشية : هونها الله علينا خاول الرافعي - ولعل العقاد حاول ايضاً ولم ادر -
كتابة قصة (الرسالة عدد ٥٦) الا انها لم تخرج بعد عن قصة عقله وقلبه ... فهي
ليست من الفن القصصي .

ان هذا الفن يحتاج الى اداتين : الطبع اولاً والمزاولة ثانياً . اما المزاولة فلا
اضمنها فقد فات الوقت، الا اذا كتب قصة حياته فقد يجيدها كما اجاد طه حسين
(الايام) . واما الطبع فما تحسسته، وقد تكون الاولى منه شغدتني عن نفسه ،
اقول هذا ولا اقطع، واترحم على القائل : ما اهون الحرب على النظارة .

القصة المصرية بين الشبان وايشوخ

ان القصة المصرية تنشب جنورها في تربة الادب
المصري في ثبات، مهما صادفت من صلاب ونكران
جيل

كيف تستأصل شجرة غارسها ضعيف ومقتلها عنيف ! أتى يكون لنا هذا
وعلى بصائر مترعمي الادب غشاوة صفيقة، وفي ابصارهم قصر لا تصلحه الف زجاجة
مقكرة من مصنع (زيس) . . . ان في نفوسهم لصبوة مجنونة الى (الكلية)، فهم،
كما يتوهمون، شعراء. وكتاب ونقاد، ومؤرخون وفلاسفة وعلماء. في كل فن حتى
اللاهوت. وصحافيون وسياسيون ودكاترة وشيوخ في آن واحد، بله التبريز والاستاذية.
فكيف نحتال لهم لنقنعهم ان العصر عصر اختصاصيين او اخصائيين على لغتي
الشيخين : البستاني والمغربي .

فاذا قلت امامهم ان ادب القصة نافقة سوقه حاولوا ان يقطعوك بالحجة،
وجبهك الرافعي (بشي . يعالو وآخر يسفل) . ويا ليت هذه الكلمة التي راح
يضمضها كانت من عنده، ولكنها للعم (لبرويير) . نقلها الرافعي الى لغته
فتبنّاها كما يتبنى هو وغيره من اعلام ادبنا (بنات الموالي) . . . ولولا يعترفون
بالسرّي ويقفون عند حد لهان علينا الامر، ولكنهم يحركون من يناضل عنهم
كلما هبت زوبعة، ويحاولون افهام الناس ان الريح راكدة، بينما العاصفة تكاد
تقتلعهم لولا تماسكهم .

فا يضر العقاد لو انصرف الى النثر، وفي ابجاث لا يتعدها، واذا كان يجهلها
او يتجاهلها دلناه بالاصبع عليها . ايغصب نفسه على الشعر ؟ (فالارب) قضى
العمر ناحتاً وما اخرج تمثالا تتردد فيه روح الفن والعبقرية . . . والعقاد رغم

اخلاصه لفنّه وتضرعه لربة الشعر لم يوح اليه بعد بيت يدور على ألسنة الناس .
قد لا تكون الرواية دليلاً قاطعاً على الادب الرفيع في نظر العقاد، وهو ينتظر
الخلود المحبباً - بعد اطول العمر - بين ثنايا الاجيال العتيدة، اما نحن فرأينا : ان
العيون تنم عن الحيوية المتقدمة، وعيون شعر العقاد ينقصها البريق والفتون فلا بريقها
يفري ولا فتونها يغوي، ، فحرام ان ينصرف عمره في هذه الرياضة فهو ان يصير
من الجبابرة .

وما ضربه حسين لو انصرف الى الترجمة (جهرة)، والنقد العام لا التطبيقي،
والدراسات الفردية - كما اشار عليه المازني منذ اعوام - واختص بتاريخ الادب
العربي وتمحيص الرواية، ولو غوى مع الكثيرين من المتشركين وهام في أودية
مرغليوث ...

وما ضر المازني لو لزم اسلوبه الفكاهي وقفى على آثار مارك توين واضرابه،
فلا خوف على شهرته ولا هو يحزن اذا أدى رسالته بامانة .

وما ضر حسين هيكمل لو جاور انقاض هياكل ايزيس وابيس وميمراميس
واختص بادبه الفرعوني وقصصه، ولو طلست الوانه المصرية وشاغت لهذا التعمد
وتتالي الاصباغ .

وما ضر سلامه موسى لو اختص بابحاثه الحديثة فأتم رسالة الشميل وصروف
وغير .

وما على الرافعي لو ظل (تحت السلاح) للدفاع عن التقاليد والعادات يردي
من يتخطى التخوم رشاش مدافعه وبندقياته ... ثم لا يتحزح من مكانه . ففقاله
(لحوم البحر) ممتع حقاً .

فلو حصر كل واحد من هؤلاء الادباء نفسه في نطاق لا يتعداه ترك في الادب
العربي أثراً . هذا اذا اقلعوا عن خطتهم الموهودة وفكروا كثيراً . فأديهم (الانشائي)
بل انتاجهم الشخصي ضئيل جداً، وكلما تقدمت بهم السن شاخت فكوتهم وقلت

بضاعتهن وتبخرت بحيراتهن ونصل صباغهن وانسلوا ذرية ضاعفاً - بيننا هتلر وعلماء
الاجناس يقولون بالتعقيم - فماذا يكون لو بلغوا ارض العر .

لقد مللنا حديثهم فما كتبوه - الا اقله - لا يخرج عما يقوله لنا الدليل حول
الاهرام، وبين انقراض قلعة بعلبك، وانس الوجود، وليس هذا بالادب الخالد. ان
ما ينقلونه الى لغة العرب يعثر عليه كل طالب ألم بلغة اجنبية . فكوت طويلاً فلم
اجد لهذا الجود سبباً الا عصيتهم البايوية، وتوهمهم ان قراءهم مغفلون يلهونهم
بزجاجة حمراء او قطعة ارجوانية، كما كان يفعل الفينيقيون بالاوريين، رحم الله
ذاك العهد . لقد توكأوا على الشهرة، والشهرة كالسياسة تفسد الفن، فقل اخلاصهم
لفنهم وتقه محصول كهولتهم، رزقهم الله شيخوخة خصبة .

فبينما يقول المتشرق (جب) مستنبطاً ومتابعاً: ان الشعر الافرنسي والايطالي
متأثر بالشعر العربي الاندلسي، وان غوت متأثر بالادب الشرقي، يقوم فينا مقلدو غوت
وغيره، فيقولون: ماذا قال شعراء العرب ؟ ان أدبنا سطحي .

أليس عندنا يا اخوان مؤونة شياطينية ؟ فن عندنا هاجر شياطين غوت وغيره
من الذين تتسطقون بذكرهم . التوراة والانجيل بين ايديكم وفي متناول كل
منكم . أليس شيطان ايوب وشيطان المسيح افضل من شيطان فوست ؟ أليست
رؤيا يوحنا امرع من ملهاة دانتي . ان في كتبكم التي تؤمنون بها موحى دونه
جبال برناس، ومرعى خصيب للنفوس الجائعة فاين روادكم ؟

ليس ما ترك الاولون سطحيًا، انما نحن كمن يسكن قصرًا دهرياً كان حديث
عصره وآية زمانه، فتركناه على قدامته، ولم نفتح به باباً او شباكاً او نافذة،
نطل منها على الدنيا، ثم اخذنا نشكو ثقل الهواء، وعفونة المسكن، وتداعي
الجدران واحداً بعد واحد . هجرناه وتركناه للناس يقلدون طرازه وينتجون فيه
منقبين في صحونه وجدرانهم عن نقوشه وفسيفسائه، وقد حيرتهم هندسته وبراعة
بناته، فادهشهم الفن الحي .

هجرناه لنسكن بيتاً جديداً مبنياً بالآجر، هجرناه وقد اغلق علينا سر فنه .
هجرناه لاننا لا صبر لنا ولا جلد على الترميم . يعوزنا العزم لنصلح ما افسده الدهر .
فما اشبهنا براع وجد في خرائب جبيل ديناراً اثرياً قال له الاخصائيون هذا فلس،
فصدقهم وباعه بما باع به عيسو بكوريته . ويضرب الله الامثال للناس لعلهم
يتذكرون .

يقدر جيمس بريستد المتشرك العظيم، « ان انخذال المسلمين في اسبانيا كان
بمثابة انهزام المدنية امام المسيحية » . ويقول السر تشارلس باتريس في آخر تاريخ اسبانيا :
ان عصر الآداب الاسلامية فيها كان من ازهى عصور امتزاج العناصر في تاريخ
الحضارة، ويقوم اصحابنا ينددون يهدمون القصور الشاحنة لينوا بجاراتها (مواقدهم) .
يرحم الله ابن خلدون .

ويقدر المستر جب (ان النثر العربي اخرج نثر اوربا في القرون الوسطى من
جموده وصرامته التقليديين، بما منحه من خياله الذي يشبع الحواس) ونقرر نحن
ان الخيال العربي ضعيف متابعين اوليوي ناقلين عنه متمسكين باهدابه كالأعمى
بقائده، ناسين ان جاحظنا كان يخطئ ارسطو كما كان يكذب الاعرابي متى
لاحت له في شبهات البحث بارقة يقين .

ويقول الاستاذ جب : (اسمع العرب اوربا حكايات السندباد البحري وما
اليها، فكانت خمرة للادب الخيالي الاوربي الجديد الذي زحزح الادب التقليدي
وحل محله فنشأت في اوربا الروايات الرومنسية)، ويقول العقاد : (لا ضير على ادب
الامة او الفرد اذا خلا من القصص) . والقصة بكل انواعها عندنا، حتى الشعر
المطلق الذي يحاول ادباء اوربا اليوم ان يوجدوه، عمله ابن العميد ومتابعوه، وان
اخرجه المقلدون عما وضع له، فكتبوا كل شيء بالسجع حتى التاريخ، فسات
صنعه . الا ان آفة الفن التقليد .

ويقول جب : ان قصة الف ليلة وليلة التي ترجمت سنة ١٧٠٤ كانت اقوى

عضد للادب الحيالي، ففتنت اوربا وقلدها كتابهم في قصصهم فاشبعوا نفوس الامة وميول العالم، واتلدت منها قصة روبنصن وجيلفر الخ... اما نحن نجبصنا صحيح الآراء بفاسدها، والحبيصة اكلة عربية تشتهي.

ايشبع الناس من الفتات المتساقط عن موائدنا ونحن اجوع من اليعازار! ايقوم كبار كتابنا ويقولون لا ضير على ادبنا اذا خلا من القصص وادبنا كله قصص! اذا قلنا لا قصة عندنا اليوم صدقنا، اما قديماً فلا والف كلا. اكلكم توما يا ادباء العرب، هاتوا اصابعكم وكونوا مؤمنين.

لقد اخزانا هؤلاء المتشرقون، فبينما هم ينقبون عن آثار آبائنا وتراث اجدادنا ويدرسون مخلفاتهم، ترانا في غفلتنا ورحى التنابد تطحن، يشوقنا ان ننصر امراً القيس او نوثنه، والاخلط النصراني قال منذ ثلاثة عشر جيلاً: الادب لا دين له. ونحن اليوم لا يعنيننا من الادب الا الاشادة بذكر فلان وطمس ذكر فلان، وكلنا يبهر ابصارنا بهرج الشهرة القائمة على مثل قول النابغة: انت اشعر العرب يا ابن اخي. ولم قالها وهو ماشر، فأرضى الناس امس، واضحك ابناؤنا اليوم على مقاعد المدرسة. ما اشبهنا بتلك القارورة التائهة في عرض البحر المتوسط بين فينيقيا ومصر يوم كانت جبيل اورشليم العالم الوثني.

الم ينبعث توفيق الحكيم بغثة كرجال كهفه، فرأى عالماً جديداً لا عهد له ولم يتصوره في احلام يقظته. ثم شب واجتمع اشده بطرفة عين كابطال صاحبه شهرزاد، بينا غيره يصرف العمر ولا يتمتع بما يتمتع به هذا، ولماذا؟ لا يجيب على هذا الا طه حسين، ونحن بالاستقراء.

وحدثت توفيق نفسه ان يشق عصا الطاعة ويخلع من عنقه غل طه، فانتصب (ارميا) وحاول ان يكسر الحجرة على عيون الرجال، ويجعل المدينة خراباً وصغيراً، (ارميا ١٩/ ١٠) فكتب طه روايته توفيق الحكيم (الرسالة عدد ٥١ ص ١٠٦٣) (الاديب الحائر). ولكن لباقة توفيق الحكيم في رده على ولي نعمته طه،

وختم رده البارع اذها حفيظة الدكتور لتوفيق، فصب جام سخطه على رأس صديقه الزيات، (الرسالة عدد ٥٣ ص ١٢) (بين اساوين)، فدار على لسان الامامين ذكر سجع الزيات وثرثرة حسين، والسجع المطبوع خير من الثثرة المملة، ورب كلمة جاءت عفواً خلقت حولها اثيراً بديعاً غرقت فيه المعاني القائمة .

يقول المسيحيون في صلاتهم (الابانا) : كما في السماء كذلك على الارض، ونحن نقول عن انفسنا : نحن نحن في كل دهر، كما في السياسة كذلك في الادب، أما تعصبنا امس للأسرة، فالقبيلة ثم للبلد ثم للاقطار ؟ ان هذا دأبنا اليوم، فقبالة البصري والكوفي المصري والسوري، فكأننا كتب لهذه الامة ان تتفرق ابداً شيعاً حتى في الادب الذي لم تختلف فيه امة الا بما يختلف به الجنود من سمات وشيات للطغيات والفيالق، وكلها للوطن .

الامة في آدابها كالجسم، يتألف من اعضاء شتى تختلف اسماء وتلتئم لتؤلف شخصية مستقلة هي (هو)، اما نحن فلا نعرف حتى (نحن) بل كلنا يقول (انا) . وانا لا تؤلف مجموعاً، ولن يصير الفرد امة مهما ضخّم نبوغه وتسامت عبقريته .

والا فكيف نؤول هذا النزاع القائم في مصر حول القصة ؟ ! فاذا يضر الاستاذ غزمي الدويري ومشايخه اذا روج ادباء الشباب للقصة والفن القصصي، وقالوا ان القصة اسمى ضروب الادب، واشيعها، واخلفها، حتى يقول عنهم : اولئك الجهال الذين يسمون انفسهم (كتّاب الشباب) .

أأميون هم يا ترى، أم هم شيوخ ؟ عرفت احدهم بحلب فا هو شيخ ولا هو امي، انه لشاب ظريف لطيف . ان الشباب سيصيرون شيوخاً فا ضرّم لو تمتعوا بكلمة (شباب) في حينها كما تمتعتم بها من قبل ايها الاجلاء !! فالمازني تباهي بها يوم قال كلمته في شاعرية زكي مبارك .

اما قول الدويري، ولا ادري من قال له هذا : (ومن هنا كانت القصة بين الصيغ الادبية الصيغة الوحيدة التي لا يتطلب التبريز فيها مزنة خاصة) .

نعم نعم، اذا كانت كحكاية ستك يرحمها الله...

اما القصة التي نحن في صددنا وننشدها فلا يحسنها الا العبقري الذي خلق لها .
والا لكانت كل القصص خالدة، وضاعت جنة الهة الفن على عبادها الصالحين
والاولياء الصديقين .

اتريد ان اقول لك ولادبائنا (الغزاة) من هو الروائي . اسمعوا غير مأمورين :

الروائي خالق مبدع، ومصور مثال، وشاعر كلي الخيال .

الروائي الفنان النابه يخلق عالماً يتحرك وينطق ويحيى ويخلد، ويخلده ويخلد
الفنان، فالحياء والخلود متبادلان بين الروائي وشخصه، تبادل الثناء والتقريظ بين
متزعمي الادب عندهم .

ان ما يخلقه الفنان ويبب له جزءاً من حياته يحيا الى الابد، ولا يعطش الى
الابد من يشرب من ماء بئر الفن، كما قال يسوع للسامرية .

ان ما يخلقه الفنان يتحرك كلما حركته يد مفكرة او تداوله لسان، ان بين
دفتي كتب القصص الخالدة عالم يتحرك كالبحيرة النائمة اذا داعبها النسيم .

الروائي الفنان يجعل روايته ساحة لعالمه، فتشمل لك شخصه بشراً سوياً،
وتنتصب حولك كالجيايرة حول سرير الشاعر العبراني، الملك الحكيم، فلا تعود
تعلم اين انت . فقد يملك الرخ، وقد تتركب بساط الريح، وتلبس (القبع الاخفي)
قد تدخل حتى اعماق النفس البشرية فتغفل في احسانها، فتري كوائنها ادق مما
يريكه المجهر، وابعد جداً مما تراه في التلسكوب .

الروائي الفنان الشاعر ينقلك الى الساحة التي خلقها فتري البيوت والاسواق
والجبال والأودية والانهار، والسماء والنار، والارض والفضاء، والكواكب والنجوم
في رابعة النهار .

الروائي الموهوب يخلق اشخاصاً تنقصها الروح ولا تنقصها، فهي تتنقص روح

قارئها فتحيا حيناً، كما عاشت زمناً مع من انشأها وابدعها، هذا اذا كان مثله، ولا يتوهم مثلك ان الرواية لا تتطلب التبريز فيها مزية خاصة .

هكذا تتجدد حياة العالم الذي يخلقه الروائي المبدع المصور الشاعر، واذا ترك نام حتى يوقظه مفكر فيحيا بروحه آونة ثم ينام، ثم تظل شخوصه تنتقل من روح الى روح الى يوم يبعثون .

تقول : ان القصة في انكلترة على الاقل اخذت تحتضر، فهذا ولز القصصي العظيم قد رأى اخيراً الخ... والخلاصة عدل عن الرواية الى تأليف الكتب .

ان احترامي الفائق لولزكم وشبنهوركم وغوتكم ومن اليهم من اساطين ادباء العالم لا يمنعني ان اقرر واقول : ما هؤلاء الا متقدمون في الاخوة من خدمة الهيكل وسدنته، فما ولزكم الهأ ان هو الا بشر، بل فرد من افراد نوابغ الادب، والفرد لا يؤلف امة، والامة، ولو كانت الشمس لا تغيب عن ملكها كانكلترة، او كان ملكها كالرشيد يوم خاطب السحابة، لا تؤلف العالم . فلا تحف ان تقوم القيامة اذا صممت برززال في اليابان . قل لمشايحك اكتبوا فما اخرجت الارض اثقالها ...

ان مشفر البعير لا يقع مهما تدلى، فلا تكن كاعرابي تلك الحكاية... خبر جماعتك - الكلام في شرك كما روى لنا العقاد عن زغلول، رحمه الله - ان خلو ادبيهم من القصة ليس بعيب . انما العيب الا يكون عندنا قصصيون، ونحن من علم اوربا هذا الفن . لقد طعمنا الادب الاوربي يوم كان برتياً فصيرناه بستانياً، فلان ملمسه، ولذ وطاب طعمه، فاشبعنا النفوس الجائعة .

العيب يا صاحبي ان يقال عن سوريا « اهرام رومية » وهي عاجزة عن تمسين اهلها . . .

انما العيب ان يتناول المستر جب تاريخ نشر القصة المصرية ويتبع تطورها فتخرج من يديه كصبرة طومسن... ولا يرى غير قصة (زينب) قصة مصرية

بالمعنى الحقيقي . ثم يعيب خطتها التي لا تكفي ٤٠٠ صفحة، ويعيب اشخاصها التي لم تتركب بدقة كافية، ويعيب تصويرهم بطريقة درامية، لانه جاء ضعيفاً في الجملة . ويعيب طول الوصف، والقصص الاستطردية التافهة التي لا تمت الى الرواية بصلة، ويسوؤه ضعف الخيال، والحوار باللغة العامية .

لنا احتجاج على الاستاذ جب مع متابعتنا له وشجبنا معه لغة الحوار بالعامية . ان لغة الحوار ايها الاستاذ الجليل مشكلة لم تحل حتى في اوربا عندكم حيث تكلمون - تقريباً كما تكتبون - . فكمن رحيماً . اما جماعتنا فنقول لهم : ان جي موبسأن استعمل لغة الاقليم احياناً، بيد ان هذا لا يبرر استعمالنا لغتنا العامية، فبين الاثنين فرق عظيم، وانتم كما نعهد لا تكتبون للمصريين (فحسب) بل للعالم العربي اجمع، وهذا العالم لا تربطه الا اللغة الفصحى . اما اذا كنتم لا تزالون تدعون لاستقلال الادب الفرعوني الناجز، فاقطعوا هذا الحيط ...

والى الدويري اعرد فاقول : القصة عمل فني جبار، لا كما توهمت فقلت سابقاً . الم ير البروفسور جب في روايات نقولا حداد حركة سريعة ومواقف رائعة، ثم غاب خطة قصته لانها مفككة، وتعمز اشخاصها قوة التصوير . اما رأى ان زيدان والمنفلوطي لم يمثلوا الهيئة الاجتماعية تمثيلاً صحيحاً في الالفاظ، وطريقة التعبير عما في النفس وخصوصاً في الحوار ؟

اما قال عن قصة (ابراهيم الكاتب) للمازني، والمازني وهيكل في نظري ادنى الكتاب المكتهلين الى ادب القصة : انها لم تحقق ما كان ينتظره المرء منها بعد تلك المقدمة، وانها ليست قصة مصرية كما افترض المازني، فبطلها شخصية غربية تنطبق على التذر من المصريين، والقصة بكاملها غربية في المشاعر والمثل العليا، والمسحة الادبية والموضوع . ودراسة عاطفة الحب فيها غربية لا شرقية، ومظاهرها الخارجية ايضاً من حيث الشكل والاسلوب . ومن امثلة ذلك : كثرة استعمال المجاز والجميل الغريبة . واغرب من ذلك كله جري المؤلف على طريقة اقتباس فقرات من الانجيل في راس كل فصل .

حاشية : ليست الفقرات من الانجيل كما قال جب او المعرب، بل هي من التوراة . ويظهر لي ان المازني اخذها من الترجمتين العربيتين، بل المرجح عندي انه نقلها من لغة اجنبية واطنّها الانكليزية .

واخيراً قال جب (تأدياً) ان رواية ابراهيم الكاتب متأثرة بالادب الروسي . اما الحقيقة فهي ان في رواية المازني فصلاً يعدّ ترجمة حرفية لحقيقة القصة الروسية - رواية سائين - .

أليس من الخجل ان يروي جب ان احد المجددين عندهم قال، منذ سنوات : ما هذه المناقشة الطويلة حول القصة، لقد سار الادب العربي بدونها في الماضي ولم ينقص ذلك من قدره . فما هي الا مثل جديد من امثلة تقليد الاوربيين الخ ...
يا للفضيحة !! لم تكن القصة عندنا بكل انواعها، فمثلاً من ينكر علينا القصة اليوم كمثل من ينكر على الملكة فكتوريا الرقي والتمدن لانها كانت تلبس من القماش ما يكسو عشرين ملكات اليوم . او كمن يقول ان لويس الرابع عشر وفولتير امرأتان لانها استعارا الشعر الطويل !!

الحلاصة على الشباب ان يحاولوا فالغد لهم لا لنا . ذروهم في غيهم يعمهون، فلعل مغامرتهم في هذا الفن تنجلي عن روائي عبقرى . انهم يحاولون ملكاً او يموتوا فيعذروا ... الا فاحسبهم عمالاً في مصنع فاذا انقرض المتسرون انقرض الاساتذة الكبار . فهل من يزعم ان الطفل يمشي فور انتصابه على قدميه ؟ الا يقع مئة مرة قبل ان يدرج !!

اتركوهم يكتبون فلعلهم يوفقون، فلا يقول الاستاذ جب فيما بعد : (القصة المصرية، وخصوصاً الاقصوصة، تقف اليوم في منتصف الطريق ... فلا هي حافظت على الصبغة العربية، والخيال الشرقي الذي يمتاز بكثرة الحركة وتنوع الخيال، ولا هي وقفت في صفوف القصص الاوربية . فاكثر القصص المصرية يشع من جوانبها اسباب في الوصف بما يضجر القارئ ويدفعه الى الملل والتبرم . وقد حاول بعضهم

ان يركز في قصته اكثر من حادثة، فأخفق . ولهذا أرى - أي جب - ان التقليد في القصة المصرية اكثر من الخلق والابتكار، وان البعض جاء بدون لغة الحوار التي هي روح القصة .

هذا ما خطه القلم منذ اعوام بعيدة، وقد حقق الشباب، بعده، شيئاً مما رجونه، وان لم يستولوا على الامد .

قال الاستاذ ابراهيم المصري، في ذلك الزمان، راداً على جب : ان القصص المصري لم يخلق بعد . فقلت له : لا تيأس يا ابراهيم، وقل معي : ويخلق الله ما لا تعلمون .

واظنه قد خلق ... وما على هذه المخلوقة ان لم تكن ملكة جمال ؟ !

أُشِيخ الأَدَبِ فِي مَصْرَ

اغضبنا عباد (الاصنام) من اجل (التوحيد) الادبي فانهاالت علينا الرسائل سوداء وحمرأ. ممن يفكرون بعقول جيرانهم مستهجنين نقدنا، تارة يسمونه تحاملاً وطوراً يعدونه تهجماً، ونصحوا لنا ان نتناول غير مشيخة ادباء مصر الوقر، فيدنا اقصر من ان تنال الثريا... فصرنا على هذه العطمة ولا تزال، وكتبنا وسنظل نكتب، يعزينا اخلاص المنصفين - ومنهم كبار المتشرقين - وان ضميرنا مستريح.

يتساءل بعضهم : لموضوع المجترين بقية فاين هي ؟ نعم يا اخي للحديث بقية، ولكن الا ينقطع مساق حديثك اذا بدا لك ما يهيك اعلانه . فحديث المجترين كان قد تم لو لم يستوقفني مقال في (المجلة الجديدة) لسلامة موسى - المهداة الى ابني نديم من رفيق له - عنوانه « خصائص الادب والادباء » نقلته المجلة عن (الفجر)، اما كاتبه فالاستاذ محمود سيف الدين الايراني .

اما منو الايراني هذا ؟ فالجواب انني قرأت لهذا الاسم في (السياسة الاسبوعية)، وفي مقاله الذي انقل لك نتفاً منه يرى حضرته رأينا في (مترجمي) الادب الذي يريدون تسميته مصرياً، وما هو الا ادب عربي بلحمه وعظمه، ولا اشبهه الا بلما المتاون بلون الاناء .

تناول الايراني الكتاب عينهم : طه وهيكل والمازني والعقاد وسلامه موسى، وفصل ما اجملناه . اما كلامنا فاليك بعضه :

فما يضر العقاد لو انصرف الى النثر وفي ابجاث لا يتعدها، وان كان يتجاهلها او يحلها دللناه بالاصبع عليها . ايغصب نفسه على الشعر !! الخ...

وما ضر طه حسين لو انصرف الى الترجمة (جهرة) والنقد العام لا التطبيقي،

والدراسات الفردية - كما اشار عليه المازني منذ اعوام - واختص بدرس تلريخ
الادب العربي وتمحيص الرواية، ولو غوى مع كثير من المشرقين، وهام في اودية
مرغليوث ...

وما ضر المازني لو لزم اسلوبه الفكاهي وقفى على آثار مرك توين واضرابه
فلا خوف على شهرته ولا هو يحزن اذا ادى رسالته بامانة ...

وما ضر حسين هيكل لو جاور انقاض ايزيس وابيس وميراميس واختص
بأدبه الفرعوني وقصصه، ولوطلت الروانه المصرية وشاغت لهذا التعمد وتتالت
الاصباغ .

وما ضر سلامه موسى لو اختص بابحاثه الحديثة فاتم رسالة صروف وغر .

فلو حصر كل واحد من هؤلاء نفسه في نطاق لا يتعداه ترك في الادب
العربي اثرأ، هذا اذا اقلعوا عن خطتهم الموهودة وفكروا كثيراً، فادبهم الانشائي
بل انتاجهم الشخصي ضئيل جداً، وكلما تقدمت بهم السن شاخت فكرتهم ونصل
صباغهم، وانسلوا ذرية ضعافاً - بينا هتار وعلماء الاجناس يقولون بالتعقيم - فاذا
يكون لو بلغوا ارذل العمر .

لقد مللنا حديثهم، فا كتبوه الا اقله لا يخرج عما يقوله الدليل حول الاهرام
وبين انقاض بعلبك وانس الوجود وليس هذا بالادب الخالد . ان ما ينقلونه الى
لغة العرب يعثر عليه كل طالب ملم بلغة اجنبية ... لقد توكأوا على الشهرة،
والشهرة كالسياسة تفسد الفن، فقل اخلاصهم لغتهم وثقه محصول كهولتهم، رزقهم
(ربنا) شيخوخة صالحة .

اما كلام الاستاذ الايراني فاليكه محوطاً بهلالين :

« انما يعنيننا ان نتقصى جهود طه حسين والعقاد وهيكل والمازني وسلامه
موسى ومن اليهم فهل نلصق في اعمالهم صور الحياة المصرية ؟ » .

نعم نلّس هذا : ادب مصري، ادب فرعونى، قصة مصرية، صورة مصرية،
مصرولوجي الخ . وان تنقص كما تزعم لنا تجد ادباً عربياً عتيقاً كأنه هارب من
الصحراء يشطفه العرق، وقد فصل سرواله بنظولنا وعباته بردوسياً، وحول عقاله
عصابة للعنق ...

« الواقع انهم يتفاوتون في ذلك، ونظراتهم وميولهم لا تكاد تلتقي وتتفق،
وهم يختلفون في بعدهم او قريهم من روح العصر، وهم يخطئون جداً في تتبع
الحركة الثقافية في الغرب ويخلطون بين الصحيح والفاسد ... فان طه حسين حين
يبحث الادب العربي يعتمد على نظريات وارااء المستشرقين، ويشايهم ويتعصب لهم
في كثير من هذه الآراء » .

ليتك كنت اجراً وقلت وما حايت : وبأخذ عنهم ...
« ونحن يتناول الادب الغربي يحدثنا عن طائفة من المسرحيات العقيمة لمؤلفين
ينكرهم روح العصر . لماذا لا يحدثنا طه حسين - وهو ربيب الثقافة اللاتينية -
عن جيد، ودي هاميل، وبندا، ودي لا كروتيل، ومنترلان، وهنري بروس .
ان هؤلاء يحددون في الادب الافرنسي ويخلقون اعمالاً ادبية ... من وحي العصر
في مشكلاته وازماته . واتجاهاته المختلفة تمثل كلها الروح الادبي في فرنسا خير
تمثيل . اكاد اجزم ان طه لم يقرأ هؤلاء، ولم يحاول ان يقرأ، ولو قرأ لحدثنا عن
اثرهم في نفسه ... » .

سبحان الله، كيف يقول الايراني اليوم في طه ما قاله طه منذ اعوام في شوقي،
أي انه لم يقرأ غير هيغو ولا مرتين ومدرستها، ولم يعرف شيئاً عن مدرسة فولين
وبودلير .

« ولكنه - اي طه - آثر هذه الالوان اليسيرة السهلة وفضل العرض على
الجوهر، وبقي اسير الادب البرجوازي المخنث، واطمان الى القصر المترف والسيارة
الفضة والحياة الرغدة لانه هو نفسه لا يستطيع ان يتحرر من قصره وسيارته
وترف عيشه » .

معذور يا استاذ، واطمئنانه كاطمئنان شوقي الى القصر وحنينه اليه . وبعد
فالكاتب حر فيما يعتق من مذاهب، ولا حرج عليه ان هو ابداع .
« ولكن هل نلمس في انتاج طه حسين (الخالص) وحي المجتمع واصدا.
الحياة المصرية بما فيها من آلام وارزاء ومحن وجهاد متصل » .
ليس له شي . من هذا، فلفو الصيف لغو، و(اديب) كاللغو، وهامش السيرة
احياء ادب قديم .

« يمتاز الدكتور بكتابه (الايام) ولكنني اطمئنته فان اقل الناشئين شأنًا في
اوربا يكتب اعمالاً ادبية (اوتوبيوغرافية) اروع واجل من الايام » .

وهذا ما قاله المستر جب عن كتاب الايام ننقله عن الاسبوع وهو : يوجد
رأي ادبي انكليزي يقول ان كل انسان في الحياة ، ولو لم تكن له ملكة
الكتابة، في استطاعته ان يكتب قصته باتقان . . . ونحن لا نرى هذا الرأي الخ.
« مرة اخرى اقرر ان الدكتور طه حسين يعيش على هامش الحياة المصرية لا
تؤثر فيه ولا يؤثر فيها » .

وانتقل الايراني الى هيكمل فقال عنه « والدكتور هيكمل بك حين اراد ان
يكتب في الادب الغربي راح يحدثنا عن روسو وتين وشكسبير وشلي وبيرون،
ولا ريب ان هؤلاء من عباقرة الزمن، ولكن الدكتور هيكمل جمع بينهم على
اختلاف منازلهم وجنسياتهم، وعلى تباعد رسالاتهم في الحياة . لم يحاول ان يعطينا
عملاً موحداً عن عصر من العصور، وعن طور من الاطوار الثقافية، ومرحلة تامة من
مراحل الفكر . مجرد دراسات متفرقة لا يضمها لون واحد ولا يجمع بينها غرض
ثقافي معين، ولكن الدكتور رجل مستقل التفكير فهو لا يقلد احداً ولا يسطو
على آراء احد » .

بمن تعرض يا استاذ محمود؟ ليتك صرحت وعددت القراءة . . . ولكنني اعذر

وما أخالك إلا تعمل بقول أحد ظرفائنا لوحد كان يعد السكبرين في ضيعة سوادها يسكر . قال له : عدّ الذين لا يسكرون وخلصنا . . . إذا كان هيكلك كما تقول فلماذا يحلل الادباء العالميين ادق تحليل، حتى إذا كتب مقدمة ديوان شوقي اضمحلت براعة تحليله، وامحى ذلك الادراك السامي للجمال الفني .

« وهو الى هذا يشعر يوحى مجتمعه وتؤثر فيه الحياة المصرية - في حدود معينة - فينعكس هذا التأثير في اعماله على صور مختلفة نشعرنا بشخصيته، ولكننا نزيد التفاتاً اوضح من الدكتور هيكلك الى استلهاهم الحياة في البلاد العربية » .

انسيت يا استاذ، ان الدكتور فرعوني، ام رأيتك كتب (حياة محمد) فدعوتك الى الفتح والاستعمار ! اولى بهيكل الا يهرح محيطه فهو كاتب محلي، وان نتوسع فاقليمي . اراد ان يكون (رنان) المسلمين فقصر جداً . وان كان كتاب حياة محمد سفرأ نفيساً .

« اما العقاد والمازني فانها يتفاوتان ايضاً في الشعور بمجتمعهما وفي نقل صور الثقافة العربية الى ادبنا الحديث » .

قللتها يا استاذ، اما يستاهل العقاد الآ هذه الكلمة وهو يعتز بفنه اعتزاز الحوري ابراهيم بلحيته الطويلة حتى قيل فيها : اشتر لحيته كما تشمنها انت، وبعها كما يشمنها هو تصر اغنى الناس .

« وفي رأبي - رأي الايراني - ان المازني اوثق صلة بالحياة المصرية واقرب الى موحيات بيئته » .

قلت نعم، فالعقاد مشغول بالغزل الفلسفي . . . ولكن اذا لم يكن العقاد وثيق الصلة بالحياة المصرية، فكيف نظم (هدية الكروان) وقال في مقدمته، وهو فيها اشعر منه في نظمه : ومن العجيب انك لا تقرأ صدى للكروان فيما ينظم الشعراء المصريون، على كثرة ما يسمع الكروان في اجوائنا المصرية من شمال وجنوب الخ

لماذا لم يعتد الايراني بهذا الديوان العالي ومحسبه صلة وثيقة بالحياة المصرية ،
اتراه اطلع على ينيسة الشعالي وقرأ شعراً عربياً في الكروان، ام انه رأى بشاره
الحوري يذكره ايضاً تودداً الى المغنين والمغنيات المصريين، وما اكثر تودد اخينا
بشاره في سبيل نفاق شعره، حتى غرد الفجر وماجت «الدفقات» ولم يعد ينقصه
غير الخوضر والمعشوشب . . .

هـب اننا رضينا بهذا العليل فهل للاستاذ الايراني ان ينبئنا من اين استوحى
العقاد قصيدته الفريدة الخالدة ودرته العصا . . . التي مطلعها :

البيلا البيلا البيلا ما احلى سلب البيلا

والله ما ادري كيف يكون ناظم هذه الرائعة قليل الشعور بالحياة المصرية ..
وقد فاق فرويد في تحليله نفسية الاطفال، وتكلم بلغتهم في شعره المضحك المبكي
المنوم كآلة الفارابي . . .

« ولكن - المازني - بعيد من ان يحدث بادبه ثورة ثقافية واجتماعية، ذلك
لانه يميل بطبعه الى الادب الفكه » .

« اما الاستاذ سلامه موسى فانه طبقة وحده ليس بالاديب ولا بالعالم ولكنه
مزيج من هذا وذا، وتغلب عليه نزعة (البروباغندا) الاجتماعية ولكنه يتابع
التطور الثقافي والعلمي في اوربا ينقل عنهما صوراً وارا. لا يفتر عن بشها والدعاية لها،
وكادت تكون ثقافتنا ناقصة لولا سلامه موسى » .

هذا صحيح، فسلامه موسى مزيج من فرح انطون وصروف وغر، لو كان
يحسن التعبير مثلهم . فلو قرأت رأيه (اليوم والغد ص ٢٣٧) في اللغة وعلومها
لقلت له معي : الذنب ذنب معلمك يا استاذ .

« فانه في تطرفه وحماسته للآراء والمذاهب الجديدة يحفظ التوازن تجاه الجامدين
والمتحجرين ولم المس الشعور بالام الحياة المصرية . . . مثلما لمسته في كتابات هذا

الرجل، وهو لهذا اقدر المفكرين جميعاً على اثارة التمرد وفتح العيون على ما في المجتمع المصري من الوان الذل والفقر والجهل ... » .

وختم الايراني مقاله بهذا الحكم القاسي :

« وهناك فريق آخر من الكتاب، فريق مريض منحل يرى الادب حلية وزينة او قطعة لذينة من الحلوى يمثل هذه الطائفة الشاذة : مصطفى صادق الرافعي، واحمد حسن الزيات، والشيخ عبد العزيز البشري .

يا ضياع تعب محمود العريان تلميذ الرافعي وصديقه ونجيه، فقد ملأ الرسالة بخوراً ونداً ... احرقه امام صنمه الادي . اما شيخنا البشري ففخرة العرب عند امام الصناعتين، وشاعر الاقطار العربية، الجواد المسماح باللقاب والمقدمات، فكل الناس عند (خليل) نوابغ وكل الكتب درر غوال، فعلى (النقيض) الراجي خير التعرف الى الجمهور ان يأخذ (منشورا) من (المطران) المكرمان ...

« قوام ادبهم - الرافعي والزيات والبشري - التحسين اللفظي، والمظهر البراق، والالوان الخيالية (الرومنتيكية) المريضة، وهؤلاء شرهم كثير، فانهم يصدون الناشئة ببهارجهم وحليهم وزينتهم عن الاصول القويمة للادب والثقافة ويحولون بينه وبين عصره الخ ... » اه .

نحيل هذا المقال على من يفكرون بعقول جيرانهم، ويحسبون نقدنا تحككاً وتحاملاً وتهجماً على (قدس اقداس) الادب العربي - وليس افرغ من قدس الاقداس الا عقولهم - ويرون في (توابيت العهد) ما لم يحلم به بنو اسرائيل حتى جرت البقر واعادته اليهم بلا رهبة ولا اجلال ...

مجمع اللغة العربية الملكي

دعست على غطش وبغش وصحبتي سعار وارزى ووجر وافكل
كم كنا نقلب شفتنا السفلى، ولم كنا نغطيها كليهما عندما نقرأ هذا البيت، ولم
كان يتسطق به استاذنا الجليل، رحمه الله، عند شرحه له اجمالاً وتفصيلاً، بعد
تغنيه واعجابه باخيه له من قبل، وهو :

ولي دونكم اهلون سيد عملس وارقط زهاول وعرفا. جبال
فيقف عندهما وقوف امرى القيس يسقط اللوى بين الدخول وحومل، فيرى
في الشفري بطلاً صنديداً وشاعراً خلاً خنديداً .

كان استاذنا - دقاً الله ضريحه، فهو مقبور في صرود لبنان - مفتوناً بالغريب
متنبياً بالالفاظ الضخمة القعقعة، لا يرضى الكلمة اذا كانت اقل من رطل وزناً،
وكان يعجب حتى الجنون بقول الشاعر :

وادكن عاتك ججل روجل الخ

حتى كنا زى كل شعرة من لحيته ترقص، وتقطر لذاذة . ويكاد يزيل كمن
ينظر الى أكلة يشتهيها. ولا ازال كلما اذكرته اخال كأنني في حضرته اسمعه يقول
لنا : انظروا معي يا اولادي وقاملوا ما ادق هذا البيت . . .

سبحان محيي العظام وهي رميم، جاء من يعرفك يا خروب، فهذا المجمع العلمي
المصري قد انسل اليوم الى سرايب المعاجم واقبية اللغة وفنش بين الحواري وسقط
المتاع حتى اذا وقعت عينه على (الارزى) اخذها بيدها قائلاً لها بلهفة : قومي
يا حبيبتي، حمداً لمن أراني محياك الوسيم . انت (التلفون) . وهكذا انتقي لأحدث
اختراع اعتق لفظة .

هكذا تحيا الالفاظ، وهكذا تكون (الرجعة) يا من يدينون بها، من
جبران الى نعيمه فصاعداً، ومن فلاميون الى هيغو ولبنز وفرجيل وافلاطون فنازلاً،
وهكذا يبعث من مدافنه الكلام، متى نفخ في صور التجديد، ولماذا لا، اما
معنى الارزى الطويل الصوت ؟ وهل اطول من صوت تسمعه من لندن ونيويورك ؟
ثم أليس شريط التلفون طويلاً وطويلاً وطويلاً . . . وان توف الطول حقه من
التعبير الطلهجيني الطريف يجب ان تردد كلمة طويل مليون مرة . عفواً سادتي
اعضاء المجمع قلت (مليون) وقد تكونون قررتم (ملائكة وريوات) فاننا لم
اطلع بعد على المجلة التي اخرجتموها للناس، اما الارزى واخواتها الجملات فقد
بشرني بهن سلامه موسى في مجلته الجديدة .

وعلى قياس الارزى يجب ان نسمي الكهرباء (الأفكل) فكلتاها في بيت
واحد، ومعنى الافكل الرعدة، والكهرباء ترعد، وبهذا يقر الشاعر الصعلوك عيناً
ونخصيه مع المعري، ويكون قد تنبأ على التلفون والكهرباء كما تنبأ المعري على
مذهب النشوء والارتقاء، قبل ان قال به داروين، اما قال المعري :
والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

فعلى خطه (الشميل) في تفسيره وتأويله يكون المعري عرف الطيارات
والعواصات ايضاً قبل اختراعها، او لم يقل :
اقلقتم السابح في لجة ورعتم في الجو ذات الجناح

لله نحن، تنزاً المعري منافقاً بقصة الخلق فقلنا ادرك سر التطور . واغرب من
هذا قول احدهم، ان شكسبير عربي اصله، وتعريب اسمه (الشيخ زبير) وفي
(الرسالة) من يحاولون ان يجعلوا لامرتين عربياً، فكيف رأيت .

أظن ان المجمع العربي المصري يسير على ضوء هذا المصباح في تعريبه الاسماء،
حتى يرى في اللغة العربية اسما (ما يرى وما لا يرى) . فان كانت كل اعماله
كهذه الخريشة فبشر لغة الكتاب الكريم بنصر من الله وفتح قريب .

كنا نعلم ان فينا عقولاً متحجرة، وان فينا من لا يقلعون ثيابهم العتيقة لئلا
يبردوا، اما ما رأيناه فما ظننا قط انه سيكون .

اذا كان التلفون ارزيزاً والراديو واحياً والديركسيون دو طيرة، والمتر ذراعاً
افرنسية، والأتوتسيكل زفرافة (وهذه الزفرافة خير اخواتها البشعات) فواخجلنا
من العباسيين اذا بعثوا ورأوا أحفادهم يعربون هكذا .

ماذا يقول اولئك الذين عربوا : الاستاذ والساذج والبرهان والبرواز والدينار
والسراج والمنجنيق والحربا. والدست والدستور والدرفس والبندق والبند والدف
والدكان والدولاب والدفتر والدلو والدهليز والرطل والخر والطليسان والوفا
وغيرها، وهي تكاد تكون بلفظها الاعجمي، لقد عربوها ولم يستنكفوا من عجمتها
بل صبرها في قالب عربي ولم يبالوا .

ما هذا يا سادتي العلماء !!

أيرضى بالارزيز من لم يعجبه الهاتف! رحاكم بهذا اللسان، فالذي لا يتطور
لا يكون من الاحياء . أما أخذ الفرنجة : البرنس والمسكين والدرويش والديوان
والصفة ومئات غيرها بلفظها، وادخلوها في معجمهم، فاي عار لحق لغتهم ؟ ! أما
ان نظن ان لغتنا كما وصفها حافظ ابرهيم تماماً فهذا لا أدري ما أسميه .

فعلى قياس تعريبكم المتر بالذراع الافرنسية واليرد بالذراع الانكليزية ماذا
كان يجب أن يعرب العرب كلمة رطل ؟ بل ماذا كان يجب أن يقول الفرنجة
بدلاً من درويش وديوان وصفة الخ . هذا سؤال نطرحه عليكم حتى إذا افتيم
- ماجورين - تدارك المجمع العلمي الافرنسي خطأه وأصلح معجمه .

خفانيكم سادتي، وعربوا الالفاظ تعريباً لا يقطع الصلة بينها وبين المسميات،
اتركوا فيها رمقاً من الحياة . أياكون العباسيون احذق منكم وانتم من خير
رجال العلم .

أما عرب العرب الدولاب وعندهم المنجنون، والدكان وعندهم الحانوت،
والطيلسان وعندهم امماء كثيرة عربية ؟ أما عربوا المهر وعندهم ما يظاهيها، واشتقوا
منها فعلاً (مهر)، أما عربوا السراج وعندهم المصباح، أما عربوا الدرفس والبيرق
والبند وعندهم العلم والراية والغاية (الغاية بمعنى العلم، للالغ)، أما عربوا الحلخال
وغيرها حرفياً، أما عربوا الرطل من (رتل) الفارسية، فلماذا تأنفون انتم من المتر
والتلفون واليرد والراديو .

هذه بلية والله ما توقعناها، فيسروا سادتي ولا تعسروا، قرأنا في الاهرام
وصف جلستكم الاولى، وطالعنا خطبكم وقصائدكم ومقاييسكم فسررنا
وتفألنا، ولكن أرزىكم ودوطيرتكم وذراعكم الافرنسية والانكليزية وما
اليها خنقت في الصدر كل امل .

أتكأ كأتهم يا قداميس اللغى، لتأتوا بالحديدني ؟

أليس بهذه الالفاظ الرشيقة يجب أن نخاطب من يسمون التلفون ارزىاً ؟

جنة الشوك - لطف حسين

حقاً، ما هذا الكتاب جنة شوك إن هو الا جحر قنافذ .

اشتقت إلى صاحبي الدكتور طه حسين واشتقت أكثر إلى النقد . أما وضعنا أوزار النقد حين قامت الحرب على ساقها ؟ إن المحيط لا يحتمل حربين ... والآن وقد نامت تلك فما نحن أولاء نعلنها حرباً أدبية لا تراعي في المنام خليلاً، ولا يحمده نارها الا هادم اللذات .

قلت اشتقت إلى صاحبي الدكتور، فبينما اذكره - كما قال ابن أبي ربيعة - اذا بصديق عودني هذا الفضل يدخل علي حاملاً (جنة الشوك) كتاب الدكتور الجليل، فقرأته بلا انقطاع من الجلد إلى الجلد، وكنت أرى طه رائخاً جاثياً بين السطور، كما أتخيله انا، حتى الساعة لم اسعد برؤيته . يحيي، حفظه الله، لبنان يوم اكون متروياً في بيتي، في ضيعتي البعيدة القريبة، البعيدة بطريقها الشاقة والقريبة لانها في نقطة البيكار من لبنان .

قرأت أدباً طريفاً في (جنة الشوك)، والدكتور أبو الطريف، بل كاد في هذا الكتاب أن يكون طريفاً . في (جنة الشوك) كلام نقي خالص كالذهب المصفى فلم يجد النقد فيه مرعى يسمن عليه . فقعدت حسيماً اشكر للسياسة يدها البيضاء . من غير سوء . . . اقصد الدكتور عن منصبه فأخرج هذا الكتاب الفذ، كما صدت الولاية في الامس عن ابي الطيب فترك للذرية تراثاً لا يموت .

أجل، لقد أبعد (المستشار الفني) عن كرسيه فنفع الفن بهذا اللون الطريف، وما كل (مستشار فني) يخرج من رأسه ما خرج من رأس طه اذا عزل . اخرج

الدكتور، كما قال : (مرايا يمكن أن يرى الناس فيها انفسهم)، اما أنا فاشهد انني رأيت وجه الدكتور في المنة ونصف المنة - كما عبّر هو - من هذه المرايا التي اخرجها معمله الفني للناس .

لا أقول في (رسالته) لان الدكتور غضبان على خفافيش الادب الذين يتخيلون انفسهم اصحاب رسالات ويحدثون الناس عنها، بعنجهية وتبجح يفلقان صدر احلم الناس، وقد خص هؤلاء بمروة فاقرأها اذا شئت .

أرأيت الى السم، ان هذه المرايا مثله . ارادها مواظ بالغة، فبعد عن النكتة المصرية العابثة المرحمة التي تضحك ولا تؤلم . فكأنه اراد ان يخاطب بها العقول الحصيفة لا الاذهان الخفيفة الرأس التي تفهم النكتة بيديها ورجليها لقد مشى الدكتور وابن المقفع جنباً الى جنب في الرمز، وفاقه في التعبير العربي اللسان والجنان .

انني لا عجب منّا نحن، معشر الكتاب، فقد أدبنا عبد الحميد الكاتب غير هذا الادب . أما قال لنا، رحمه الله، في رسالته الى الكتاب : (وان نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه حتى يرجع اليه حاله ويشوب اليه امره . وليكن الرجل منكم، على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته اليه، احوط منه على ولده واخيه) . فما هذا العقوق الذي يصوره الدكتور ؟ ومن ينكر فضل الاستاذ على الجيل الذي ثقفه وهذبه .

الحمد لله، ان الدكتور الجليل بغنى عن عطف الناس، فهو هو في الحالين، ويستطيع ان يقول بكل غر لا ادعاء كالطغرائي :

مجدي أخيراً ومجدي أولاً شرع والشمس رآد الضحى كالشمس في الطفل

وقد يقول واحد، ولم هذا ؟ فالجواب الواضح عند احدي مرايا الدكتور في جنة الشوك، هذا الاسم البوداييري اللذيذ، والدكتور في هذا كصديقه ابي العلا .
يسمي كتبه احسن الاسماء، جل من له هذه .

قال الدكتور، وعنوان هذه المرأة : تجنر .

« تلقأهم من المدارس الثانوية لا يحسنون شيئاً، فتعهدهم حتى احسنوا اشياء كثيرة وحتى ظفروا بما يظفر به الشباب الممتازون في الحياة الجامعية من درجات وألقاب . ثم تعهدهم حتى اطمأنوا في الحياة الى ما يحبون .

وكانوا لهذا كله ذاكرين شاكرين ، وكانوا من هذا كله متزידين، حتى لم يجدوا سبيلاً للمزيد . ثم أزور عنه السلطان، فأزوروا عنه، وقالوا : جفوتنا حين كان يحسن ان تصلنا .

قال الطالب الفتي لاستاذة الشيخ : ما اعرف انهم لقوا منك جفاء . وازوراراً . قال الاستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : ليس المهم ان تعرف أو لا تعرف، وانما المهم ان تعلم ان كلمات التجني والتعلل والتكلف لم توضع في اللغة عبثاً، وانما وضعت لتدل على معان . والمعاني لا تقوم بانفسها وانما تقوم بانفس الناس .

قال الطالب الفتي لاستاذة الشيخ : أليس قد علمنا المعلمون في الكتاتيب ان الامام الشافعي كان يقول : من علمني حرفاً صرت له عبداً .

قال الاستاذ لتلميذه : بلى، ولكن الحياة قد علمتنا ان الضرورات تبيح المحظورات . ومن المحظورات ان تجفو من جفاء السلطان . فقد تصدك صلته عن بعض ما تحب، وتصرف عنك بعض ما تتمنى .

ان الكتاب يا عزيزي القاري، محاورات بين شيخ وطالب فتي، وما احسن جواب الشيخ، وهو الاستاذ الجليل، في المرأة التي ممأها هجاء .

(قال الطالب الفتي لاستاذة الشيخ : أي فنون الادب أحق أن يزدهر وينفق في هذا العصر الذي نحن فيه .

قال الاستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لا ادري . ولكننا في عصر انتقال اشد فنون الادب له ملائمة فن الهجاء .)

لقد اصاب الدكتور من جهتين، فقد يؤدي الهجاء الى المناصب، فاحرم بهذه المرأة، فهي انتى من مرآة الغريبة :

ويتكلم الفتى سائلاً استاذة الشيخ بعد ان تحدثا عن وعود النساء : (وأي وعود الرجال اشبه في ذلك بعود النساء .

انجاب الاستاذ الشيخ : وعود الساسة حين يطلبون النيابة من الشعب، او النهوض باعباء الحكم . وكما اعجبني هذه التي عنوانها : (نحو).

قال الطاب الفتى لاستاذة الشيخ : أأصدق النحويين واصحاب اللغة ام اصدق فلاناً مع انه لا يقول في النحو الا خطأ ؟

قال الاستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : صدق فلاناً لانه نحوي لغوي بحكم القانون). صدق الدكتور، ان القوانين تخلق ما لا تعلمون .

اظنني اكثرت من الاستشهاد ولكن هذا اللون الطريف لا يمل ولا يشبع منه، فاليك هذه الشوكة الاخيرة، واسمها : زيارة .

(قال الطاب الفتى لاستاذة الشيخ : قد كان فلان يكثر من زيارة فلان قبل ان يتنكر له السلطان، فلما اعرضت عنه الدنيا اعرض معها .

قال الاستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : لا . ولكنه يزوره ويطيل الاقامة عنده اذا جن عليه الليل ، لان آية النهار مبصرة ، فاذا انصرف انشد قول المتنبي في بعض مدائحه لكافور :

ازورهم وسواد الليل يشفع بي وانثني وبياض الصبح يغري بي)

آه، كم احس بما يعانيه الدكتور من هؤلاء المتذبذبين .

ولكي يتمتع القارئ بهذا الظرف الوقور فانصحته ان يقرأ هذا السفر الصغير، ففيه متعة كبرى لقوم يعقلون ويريدون ان يتأدبوا بكل ما في كلمة (تأدب) من معان . . .

لست اكتم القارى انه سيجد مرارة حادة كما قلت، ولكنها مرارة الدواء.
الذي ينبغي ويشني من الداء . وسبقها القارى ويتأثر بها لانها صادرة من اعماق
اعماق نفس طه حسين الاديب العظيم . فهذا الرجل، كما يظهر لي من انشائه، قوي
الحساسية، بل أرى حساسيته اشد تأثراً من زجاجة التصوير الشمسي .

اننا نشكر الفرصة التي اخرجت هذا الكتاب الطريف الجديد، ويا ليت
الحوادث تتكرر، بشرط الا تنال الدكتور العزيز بأذى، ليخرج لنا مثل هذه
الذخيرة النفيسة الطريفة فيثري ادبنا العربي، فنفس الاديب الحق كالارض، ولا
يستغلها كل الاستغلال الا الظواهر الجوية، فأبرقي يا سما. وارعدي . اللهم حوالينا
لا علينا . . .

توفيق عواد - من الصبي العرج الى الرغيف

سفر نكوبه الرواية

نحشى ان لم نهش ونهش لرغيف توفيق عواد ان يصح فينا قول المثل اللبناني :
فلان لا يضحك للرغيف السخن . ليس رغيف توفيق سخناً فقط ولكنه مقرص
من عجيب طالع، خفا . رافخاً تشتهي العين والقلب . كأنه الحد المدلوك ذلكاً عنيفاً
في غرفة الزينة .

قد بدأت درس توفيق بالمقاب، ولا عجب فرغيفه المشقر معروض في واجهات
المكاتب يقبل عليه جياح الادب يلتهونونه كما سبوا صبيه ونهبوا قيصه من قبل .
واننا لراجعون الى الصبي والقيص بعد ان نشبع الرغيف وزناً وتحليلاً .

ان عيني توفيق عواد قويتان (يدورهما) ساعة يشاء، فظاهرة بطله اشد بدواً
من بطانته، وهذا دليل على انه قوي الملاحظة شديدها . وقد كتب تحت
(الرغيف) رواية لانه يفهم ان قصة طويلة ليست رواية، كما ان الرواية القصيرة
ليست قصة . فهذان النوعان لا يقاسان بالاسطر ولا بالساعات، ولكنها يختلفان
في البنين، لا في الاتساع والطول والعرض، فليست الرواية ملعب فطبول، ولا
القصة طاولة (بيك بانك)، فالقصة تقتصر على حادث عرضي من الرواية التي
تكون متشابكة الحوادث غزيرتها . والقصة تجتري عادة على نوع من العرض
كالخبر والمحاورة والمناجاة، اما الروائي فهو كالموسيقي الماهر يبدل ويغير لحنه
وسلاله ما شاء، ويستعمل للذة فنية دقيقة اساليب لا تعد ولا تحصى لان النبوغ
يعرف بالابداع الفني .

والمجال في الرواية فسيح الرحبات للاديب الموهوب، ففيه يستطيع ان يعتقد

ويوسع الحقل لنفسه فيسرح ويمرح، ويلحق به مساحات جديدة بلا عناء. كما تفعل
دول الطغاة اليوم... في الوصف، والقص، والتحليل، والحوار ميدان للافلام
الفارغة.

ليس هناك قواعد تعلمنا بالحرص كيف نخلق الاثر الفني، ولكن هناك شروطاً
لا يحيا بدون مراعاتها هذا الاثر. كما ان مراعاة هذه الشروط لا تبلغ القصد ان
لم يحز المؤلف صفات داخلية تعجز عن ايجادها النواميس والقوانين الموضوعية. وهذه
الهبات التي نسبها الناس قديماً الى شياطين الشعراء وعفاريت الادباء هي التي تمنح
الاثر جماله الرائع. وشرط التأليف كشرط الجمال التناسق ثم التناسب والتلاحم.
وفي الكتاب، وخصوصاً الرواية، يطلب كل ما يطلب من قطعة فنية سواء اكانت
صورة، او قطعة موسيقية. واول مطالب الكتب الانشاء الرفيع الذي لا يخلد
بدونه أثر. ونعني الانشاء الشخصي لا التقليدي الذي يفلتنا به من يكررون على
مسامعنا في كل ساعة كلمة قالها ابن خلدون في المتنبي والمري. ألا فلنضرب
بعود الشعر كل رأس فارغ...

لغة قواعد ولغة علم يسمى علم البلاغة فعلينا ان نخلق كما خلق القدماء. لا ان
نملك تعابيرهم كما تملك الخيل اللجم، ويشط ريانا مثلها، ولا ان نجتر ما تساقط
عن موائد السلف الصالح لنسمى كتاباً. فهذه آفة ادبنا العربي الذي جعله اصحاب
المقول الضيقة رواسم وموميئات تأنف من معامها لكثرة ما لاكتها السنة الغزاة.
حتى قال احد المشرقين واطنه ماسينيون: الادب العربي رواسم - كليشيات -

اجل لا يخلد اثر فني الا اذا كانت مادته انشاء شخصياً، وهذا الشرط يعني
كل تأليف وخصوصاً الرواية التي طغت اليوم على الاسواق الادبية. والى انشاء
الرواية العالي تضاف اشخاصها، فرواية بلا اشخاص افذاذ كأمة بلا نوابع.
فالوصف مثلاً ليس بقصة، ولا يستحق هذا الاسم، لان الرواية هي خبر صحيح او
كاذب كالصحيح، كما ان الخبر الحقيقي ليس رواية. فالمدركات والسير، والاعترافات

وقصص التاريخ لا تدنو من الرواية الا بمقدار اي في الاسلوب والقص ، ولكنها ليست رواية في كل حال . فالرواية هي ما تقص خبراً مختراعاً لذلك قراءته لطرافته واسلوبه ولما يبت فيه الكاتب من روح حية تأسرك بل تنقلك الى الساحة التي يجعلها معترك ابطاله فتشعر انك حيال المشهد، وكأنك امام ناس بلصهم، ودمهم، وسجنهم فتكرهم وتحبهم وتكاد تهاجم بعضهم وتدعو عليهم بقصف العمر ان كانوا جبابرة وكنت ممن يحولون الحُد الايسر .

ففي كل رواية رجل يحدثنا بانشائه الخبري وطريقته القصصية، ولكن هذا الرجل لا يكون روائياً صالحاً ان لم تتألف شخصيته من عشرات الاشخاص، وهذا ما يخلق الاثر الفني، او فنية الرواية - ان صح التعبير - فعلم الروائي هو ان يثير فينا تأثرات عديدة. ومن هذه الناحية تتسع الرواية لجميع ضروب البيان الشعرية - والشرط ان لا يطغى الانشاء الشعري - وجميع ضروب الانشاء في جميع الاغراض التي تضحك وتبكي وتغيظ وترضي، وبكلمة وجيزة الرواية دنيا واسعة يستطيع الكاتب القدير ان يستغلها فهي غنية بالمواد الاولية - كرومانيا مثلاً .

اما القصة فلا تتسع لكل هذا لانها لا تدوم طويلاً. والشعر المنشور اذا طغى أبعد المؤلف عن القصة وقربه من الشعر، فأجنحة جبران المتكسرة واخواتها الروائع العربية الخالدة هي كسفر ايوب اقرب الى الشعر منها الى القصة .

ان الرواية تبعث فينا لذات ذهنية مختلفة حين يهزنا كاتبها بوصفه الذي تولده قريحة متقدمة، فهو يصور لنا بعض نواحي الحياة تصويراً فتناً تؤخذ به العين فينتهج القلب، ولذلك يبتعد الروائي الموهوب عن الروايات التاريخية والعلمية والفلسفية واشباهها، وهو يعلم اين يسهب ويوجز كأنه الكتاري الذي تلهمه غريزته براعته الموسيقية . ان الفن يفوق العلم وان لم يكن له صدقه، ونحن لا نطمع ابداً في ان تعلمنا الرواية دروس الاشياء ولا تاريخ الامم . . . وهذه الروايات المبنية على علم النفس، وحده، لا تحيا ان لم يكن لها حظ وافر من النظرة الغربية الى الكون، ومن قوة الوصف وبراعة الانشاء .

والرواية اشد ضروب الادب تعرضاً لعلاقة الفن بالواقع . والرواية الحقيقية الجديرة بأن تنسب الى الفكر الانساني السامي هي ما يظهرها الفنان بشكل موضوعي، والموضوعية لا تنفي الذاتية، ولكن المؤلف الروائي يجب ان يكون شاهداً عياناً، وعلى مقدرة الغنية في الخلق والتعبير يتوقف نجاحه، وليس على الروائي ان يجمع في نفسه كل خواص الروائيين، فحسبه خاصة يكون فيها نسيج وحده ليكون شيئاً مذكوراً .

ليس على الرواية ان تكتشف نواميس طبيعية كما يحاول علماء النفس منهم في روايتهم التي تفلق الناس بجلها، ولكن مهمتها ان تحيي اشخاصاً وتحلقهم خلقاً عجيباً يجعلهم في عداد رجال التاريخ الحقيقيين كما فعل نوابغ روائي العالم . لا اعدد، فهذا امر لا يجمله اقل الطلاب المأماً بتاريخ آداب الامم . وما احلى كلمة قالها مونتيني: يجب ان (نفن) الطبيعة و (نطبع) الفن .

وملاك الرواية عنصران هامين : التأليف والتحليل . أما التحليل فهو غالباً عمل لا شعوري يأخذ قطعاً من الواقع المفكك ولكن هذه العناصر تبني بناء جديداً، فعمل الروائي وكل فنان، كما قلنا في فصل سابق، هو ان يتمثل الاشياء ويخرجها اخراجاً جديداً . ولا يعني التحليل ان يكون لائحة منظمة كلائحة المختبرات لفحص الدم وغيره ... ولا كسرياً علمياً، بل يجب ان يكون خلقاً مفاجئاً .

اما التأليف فلا يتأتى ايضاً بالطريقة الجدولية بل هو تركيب يمتد وينتشر، اذ لا يكون خطة تنفذ جزءاً جزءاً فهو ينمو غواً طبيعياً كما ينمو الجسم بخلاياه، اما الروائي الردي. فيخلق جثثاً وقماثيل .

اما كيف يتخطى القصصي من التحليل الى التأليف فهنا سر النبوغ، وبهذا ينماز الفنان من المحترف، او كما يقول المثل اللبناني : هنا تعرف القرعاً من ام القرون .

وفي كل حال تقوم الرواية وتعالو بقدر انشاء تلك المخلية، وميزة التعبير

والعرض الموجز . فالسياق والتتابع والتنافر المقصود والانحراف، والحذف والالغاء، والاهمال عمل ذو شأن كبير في القصة . اما الاستطراد فلا يكون مقبولا الا اذا كان في حمة الرواية . وللاستطراد اناس طبعوا عليه يحسنونه بالسليقة فلا يتصد له من ليس من رجاله . وبالاختصار ان الاستطراد اذا كان وجيزاً يهب الموضوع جمالاً وظرفاً، وما اشبهه في تلك الحال يبرق يشق الظلمات . ولاختلاف الاسلوب عمل كبير في الرواية فلكل مقام مقال كما علمنا السلف، فاللهجات تتعدد وتختلف باختلاف الاشخاص، واحوال الرواية وظروفها وامكنتها . ففي استطاعة الروائي ان يجعل الرواية الواحدة مجموعة اساليب ولهجات ناطقة حية .

ولغة الرواية تختلف ايضاً باختلاف الاحوال، ولكل ضرب من الروايات اسلوب خاص لا تصلح الا به ولا يصلح الا لها . والرواية محتاجة ابدأ الى انشاء . صحيح رفيع وخصوصاً ما ينسب منها الى المؤلف . وان تساهل الفن في ما يقوله المؤلف بلسان ابطاله ليكون مطابقاً لواقع الحال وهو شرط البلاغة الاساسي، فهو لا يغتفر الركاسة في ما يعزى الى المؤلف . هذا في الرواية الفنية التي تطمح الى الخلود، أما في غيرها فقل ما شئت ومن يطالبك ! أليس في الدنيا هذر لا يحصى ؟

قبيح جداً أن يكون الانشاء القصصي بضاعة رؤاسم، أو عرض قوالب سكاكين بطلت في السوق . يجب ان يكون انشاء المؤلف متفرداً متشعباً من شخصية لها لونها وطابعها .

اما الحوار، وهو عنصر خطير من عناصر الرواية، فيجب أن يكون لغة الناس او ما يشبهها ويقرب منها كل القرب، ومجالة في لغتنا العامية واسع ان كلف الكاتب نفسه عناء التأليف والتنقيب على الالفاظ والتعابير . ان المحافظة على اصول اللغة شرط اساسي، ومن تعدى هذه القوانين فسدت طبيخته مهما في الخيال والقص والاختراع . أما أهمية الحوار فهي انه يصور لنا شخوص الرواية

بلباقة خلقاً وخلقاً، وكثيراً ما يغنيها عن الوصف المستقل الذي يعرفنا بالابطال ولكنه يأتي غالباً كأنه مقحم الحاماً .

والرواية بعد كل هذا تحتاج الى قوى عديدة مجتمعة : خيلة خصبة فجل وتلد، تخلق الابطال وتمنحهم فصاحة لسان وصحة رأي وقوة ايمان، وتخلق نجاحهم أبطالاً آخرين لا يقولون عنهم شيئاً ليقفوا ازاء بعضهم وقوف الند امام الند في الساعات العظيمة التي لا ينساها القارىء ويحدثك عنها كأنه ادركها بعينه الثنتين . والاشخاص التي تخلقها هذه المخيلة قد تكون جسوماً متزهلة ان لم يهبها خالقها اعصاباً شديدة تحركها دائماً، خفية الرواية في حركتها، وبدونها يسأمها القارىء ويطرحها الى جانب سريره، وقد تنام هناك نومة هائلة . . . والحركة يخلقها المؤلف بمحاورة هؤلاء الاشخاص وتحديثهم دائماً عن انفسهم وعن سواهم، وعن الحوادث التي تعرف القارىء بهذا وذلك وهذه وتلك، وتدل على خلقهم وخلقهم من غير قصد وتعمد، وهذا هو الفن .

واكثر ما تشكوه الروايات العالمية هو ضعف هاتين الناحيتين : الخلق البديع والحركة .

وللرواية سياق لا يند الروائي القدير عن سبيله، فهو معها توغل في الغابة لا يفلت الخيط . وتنوع الموضوع واجب اذ بدونه لا يتبعنا القارىء، بل يعتريه الملل وضيق الخلق فيدعنا وشأننا .

والروائي اشد الناس احتياجاً الى اكثر العلوم، وخصوصاً الاجتماعية منها، كعلم النفس والتاريخ والجغرافيا والادب الخ . واهم هذه العلوم علم النفس فمن يجمله لا يصور اشخاصه تصويراً صادقاً . ولا نعي ان نتعلم هذه العلوم في الكتب فهناك غير الكتب تعلم الفنان كيف يخلق ابطاله خلقاً سوياً، اهمها مراقبة حركات البشر مراقبة شديدة، ومما يحاديثهم والاستنتاج . والدرس والمراقبة والسمع لا تفيد شيئاً ان فاتته القرينة، فاعاظم نوابغ البشر اتقنوا التشخيص ولم يتعلموا هذا الفن، كما ان غير الموهوبين وان تعلموا هذه العلوم في اعظم الجامعات لا

يستطيعون تطبيقها بل يصورون شحوصهم صوراً تنفيها او تناقضها اعمالهم فيما بعد .
وللمرحوم فرح انطون فصل في جامعته عنوانه : انشاء الروايات العربية ، تفيد
مطالعة من يعينهم الامر .

وفي كل حال لا يهمننا الا عناصر الحياة والحقيقة في الاثر الفني ، وهذا لا
يتحقق الا عندما نخرج اختبارنا النظري باعلامنا وخيالنا ، اي ان نخرج الحقيقة التي
نراها بادراكنا الشعري الذي يعبرون عنه بالوحي والالهام . فعندئذ نستطيع ان
نردد كلمة رابليه : ادخل فهنا يصهرون الايمان العميق . والا فاننا نردد عبارته
الآخرى : أرخ الستار فالهرج قد انتهى .

حكاية الرغبة وعرضها الفني

ان طعم ايام الحرب لا يزال تحت اضرار توفيق يوسف عواد، والعلم في الصغر كالنقش في الحجر، فهو يقدم رغبته الى احق الناس بها، الى ابيه المجاهد في حرب المعاش . ولكن اي رغبة ؟ رغباً (فيه نفس الحرية والكرامة) . هذا رغبة توفيق عواد وقد أدى فكرته في مواقف اذكر منها حديث سامي لزينة ص ٦٤ ثم صفحة ٢٦٥ وما يليها رقم ٧ و ٨ .

الرغبة رواية كأنها مسرحية ذات مدخل وخمسة عناوين : التربة، والبذار والغيث، والسنابل، والحصاد. صفحاتها ٣١٥ اخرجتها دار المكشوف بحلة رصينة، ولولا الذي بيننا وبين الحيشي صاحب الدار من خبز وملح لاطنبتنا في اطرا. مضيفته الادبية فالرغبة الذي يقدمه للناس لا يقل غرة عن مجد ذلك في ايام الحرب .

تم عناوين الرواية على انها عظات وحكمة ولكن توفيق عواد، وهو من ابناء الفن، يعلم ان الروائي غير الواعظ . فهو يقص عليك انت ان تستنتج . يروي لك اخباراً صحيحة او كالحقيقة، يصدقها كل من شهد مصائب الحرب وبلاياها، فابطاله الذين علقوا بذكريته الطرية ثم خلقتهم اليوم مخيلته خلقاً جديداً لا ينكرهم من شهد الناس مثلنا قعوداً على قارعة الطريق، حول روث الحيل كأنهم في السماطين . لا يعفون عن الفئران والجردان والمهرة، ولا انسى ابدأ تلك الكلمة التي ذبحت حفيدها وادخرت لحمه وشحمه في برنية ليكون غذاءها الاحتياطي... وحسي ما ذكرت من مشاهد المجاعة لثلا تتقرز نفوس القراء .

يصف الاستاذ عواد في (المدخل) فتح الجند التركي لبنان ووصوله الى قرية بحرصاف، وقد اهل تصوير بحرصاف الجميلة كما يهمل وصف اكثر الساعات التي

يجعلها معتركا لابطاله، - في الرغبة والصبي والقيص - وهو ان فعل احياناً
فبخطوط اولية لا ترينا الصورة واضحة كاملة، مع ان هذا الوصف من عناصر
الرواية الخطيرة وهو الذي يقربها من الواقع، ولا يعوق الحركة ان اقتصد فيه،
وسندرس هذا في محله .

جميل تصويره دخول الجند لبنان، واجمل منه حركات توفيق الصبي : (وانا ارفع
انني - وأنفه ذو شان - حيناً بسؤال الى والدي، واشير باصبعي حيناً واصفق
مسروراً حيناً آخر) ولغرض ما كرر المؤلف حيناً مع ان (الظروف) كثيرة في لغتنا
واكثرها بمعنى حين .

وفي هذا المدخل الذي لا تبلغ صفحاته عدد اصابع اليد الواحدة يحشر المؤلف
نفسه مع لوام لبنان على رخاوته وتواكله، وقصر همته، والتفاته صوب الغرب .
غفر الله للسياسة والنعرات الدينية، واعاضنا بطول بقاء شبابنا وأبقى لنا هذا القليل
من لابي البادة والسروال، والصدرة المزودة، رمز رجولة ذابت في ثيابنا المزمكة.
وبعد فلتتقدم الى الرواية .

في الرواية ابطال عديدون سنجلهم واحداً واحداً وان كان اكثرهم من مقلع
واحد، ومكسرهم واحداً . والخطوط التي تميزهم متفرقة تحصلها من هنا وهناك،
فتوفيق لا يسردها سرداً، لولا ضحكة خليل المعلا الاولى (ص ٢٤) ما علمت ان
دكان ورده كسار في ساقية المسك . ولكن الحركة العنيفة التي يتسم بها توفيق
عواد الروائي لا تدعك تتأملهم جيداً، ففي يد الاستاذ سوط يفرقع ويؤلم معاً، انه
لا يعرف الرحمة في سبيل الفن، وقلما يسقط عن الدرجة الثالثة في سوق ابطاله .
ولو في الاكواع الخطرة - خطر الموت .

حكاية الرغبة بسيطة ككل موضوع يعالجه الفنان فيطرقه كما يطرق الصائغ
كتلة من الذهب ليخلق منها معنى طريفاً . اما مسرحها في لبنان . في بحر صاف
منبت توفيق عواد . حيث استشهد المهر المسكين - الصبي الاعرج ص ١٨٣ -

وساقية المسك حداثا . البيت الجبلي اللبناني هو العش الذي طارت منه هذه الطيور
البلدية مثل : ورده وزينه وبوسعيد وطام ، والقواطع مثل سامي عاصم وكامل افندي .

فزينه بنت لبنانية يتيمه الام ثم الاب تحب شاباً بيروتياً اسمه سامي عاصم ابن
تاجر بيروتى يستهلك ما يصدره مشغل الدنيا الذي احدثه ابوها سعيد بعد عوده من
اميركا مع خالتها ورده ، وابنها طام اخي زينه من ابيها . كان سامي عاصم يصيف
في ساقية المسك في بيت سعيد كسار بل في كرمه - النقبه - وكانت زينه تقوم
على خدمته فتجأبأ . وكانت الحرب العظمى تخاف سامي ان يساق الى ساحة الحرب ،
ففر الى لبنان واختفى في بيت سعيد كسار ، ثم في (مغارة الحورية) مستتراً بشوب
راهب ، وممي الاخ حنانيا . وارشدت الحكومة الى مخبأه فسيق الى الديوان العرفي
في عاليه ولكنه فر مع رئيس الحراس شفيق افندي العاليلي من سجن عاليه الى
معسكر العرب فقتلا على ابواب الشام .

وجاهدت زينه في منطقتهما فقتلت راسم بك قائد العسكر التركي في ساقية
المسك ، وفتكت بالjasوس خليل المعلأ وحرقت بيت ابراهيم فاخر الذي ارتهن بيت
جدها ، وانقذت اخاها طام من الموت .

العرض الفني

التربة - ورده كسار مزعجة غضبي لان الجند بعثوا متاع حانوتها مفتشين عن
سامي عاصم ، وبينما هي مرتبكة يسألها بوزيد خادم حانوتها كاس عرق اخرى فتأبأها
عليه ، ويدخل خليل المعلأ فترحب به ورده ، ويغتم الجاسوس الفرصة فينقدها رياءلاً
مجيدياً تسقي به بوزيد ليسرق منه سر سامي عاصم ، فيشرب بوزيد حتى يتلى ويلج
الى السر ولكنه لا يفشيه . ويدخل الصغير طام - ابن ورده - فيعطيه بشلكاً
ويخرج ، فيطير طام ليشر جده بوسعيد بالغنيمه ، وتلحق به امه ورده فتنتزعه منه
فيكيكي ، ثم ينام معللاً النفس ببشلك ابيض سيعطيه اياه جده .

ويسعف وردة جنديان على طرد يوزيد من الحانوت وتعمر الحلقة . وكلهم ينتظرون زينة، وزينة لا تجي . لانها في مغارة الخورية عند حبيها سامي فتعبر وردة وتجدف وتلعن، وتعود زينة ولكن الى المراح حيث (الصباح) فتخبر جدها انها حملت رسالة الى سامي فعزم بعد قراءتها على التزوح الى احد ديورة كسروان ليتخفى عن الابصار، فالحكومة استاقت بعض رفاقه الى الديوان العرفي، وانه مهدد لن يبارح ساقية المسك قبل ان يجتمع بالجاويش كامل افندي .

وفي الصباح يلتقي خليل المعلأ ببوزيد فينتحيان دكاناً يتقاربان فيه، وفي نهاية اللعب يشعر المعلأ صاحبه بوزيد انه قادم على رحلة الى الديوان العرفي بعاليه . . . ، واسم الديوان العرفي كان يرعب، وانه يمكنه ان يتقي شرها اذا باح له بسره، وان وردة ايضاً ستشتق . فانهد بوزيد وهم بالهرب فتشاجرا وفر، وغرم الجاسوس ثمن ما تحطم من متاع الدكان .

واتجه خليل المعلأ صوب حانوت وردة فصادف ابنها طام في الطريق فاعطاه ريالاً مجيداً واسترق منه خبراً مقتضياً عن سامي . وادرك طام انه وقع في الفخ فرد المجيدي أسفاً على كلمة افلتت منه، ولكنها لا تغني شيئاً . وفي تلك الساعة كانت زينة عند سامي تتعجب من دم عليه فيخبرها انه قتل جندياً تركياً واخذ بندقيته وثوبه العسكري، ويبكت سامي نفسه على ازوائه في تلك المغارة بينا رفقاه في الميدان، ويصر على الاجتماع بكامل افندي لعله يمكنه من عشرات البنادق فتكون غداً للشورة العتيدة . فتذهب زينة من عنده الى الحانوت فتري خالتها وردة و خليل المعلأ يتساران، فلا تدعوها خالتها للجلوس كالعادة، ولا يكثر لها خليل المعلأ . فتسرع لتسأل جدها عما فعل لدى كامل افندي فيخبرها ان راسم بك استدعاه اليه، وامام طام جلده وبصق في وجهه بصقة عامرة، فاشماز طام ونسي الزبيب والجز الذي يطعمه راسم بك، ولحق بكامل افندي يعاونه على قدميه الناضجتين على لهب الكرواج . وفي تلك الساعة يجي . الاخ حنايا - سامي

- ويحدث كامل افندي تحت جنح الدجى في بيت يوسف، فاذا هما كلاهما من الجمعية القحطانية، فتصافحا وتعاهدا الى غد .

البذار - وفي صباح اليوم التالي يدهم الجند مغارة الخورية ويقبضون على سامي وبعد ان يشبعه راسم بك ضرباً ولكماً ودعساً يقتاده ثلاثة فرسان الى بيروت، ومنها الى عاليه فيرحب الديوان العرفي بالاخ حنانيا (خوري نجس ايضاً ...) ويزج في الرقم ٦ . فيرى الناس اشكاًلاً والواناً وابو زيد يصرخ كل هنيهة : يا افندي، باد شاعم جوق باشا، فيضرب ويسكت . انتصر له سامي وهو لا يعرفه فهدد بالضرب مثله، وعرض عليه طعام (القيروانة) فأبى .

وجاءت زينة الى عاليه بعد ان سرقت ما لا يكفيها من درج خالتها، وبعد عناء شديد، ومرارة حيرة الغريب المصورة احسن تصوير، تلتقي بالمعلا فيعدها بتوصية صديقه رئيس الديوان رشدي بك، ويمد يده الى صرتها فيأخذ ليرة ذهبية واربعة بشالك - تحرير الحساب - ثم يدها على بيت رشدي بك ويوصيها باللطف والضحك لان رشدي بك يحب الابتسام... ولجأت زينة الى نزل صاحبته (عوراء) فذهب بنومها تلك الليلة تعليلها كل كلمة سمعتها من هذا وهناك وهاتيك . وفي الصباح بعد الف جهد قابلت صاحبها سامي وبلغته وصية جدها - الانكار .

وعادت هي الى ساقية المسك ونقل سامي الى الزندان، فارسل اليه عمر حمد احرماً . وتعيد زينة سيرتها الاولى، نقل الحضر والفواكه من انطلياس الى ساقية المسك هي واخوها طام - تلك مشينة خالتها وردة التي احسنت معاملتها بعد القبض على سامي لسبب يكتسه الاستاذ معاً كتم حتى النهاية . وفي صباح يوم ما تستعين زينة براسمال اليوم على الذهاب الى عاليه، فتواجه سامي عاصم مواجهة قصيرة ضاق لها صدر شفيق افندي رئيس الحراس، فقبلت حبيبها قبل ان يخرجها قبلة بلهاء أي (ماتت اليه تتشمسه ثم مسحت شفتيها بكتفه) (١٢٢) .

وسيق سامي الى الديوان فاجاب بجرأة غريبة قبض ثمنها سياطاً عديدة ولكمات

شديدة وبصقات عنيفة فخم بعدها ورأى حلاً غريباً شبه بحلم زينة الذي قصته عليه (ص ١٣٨)، وافاق على عمر حمد قرب سريريه . وفي الخامس من ايار سنة ١٩١٦ مشيت القافلة الاولى الى المشنقة وبينهم عمر حمد الذي ترك ساعته تذكراً لسامي . وبلغ المسجونون حكم الموت فقرأه سامي ومزقه وداسه، وجاء رئيس الحراس يأمره بالنوم ولكن بلهجة لا عهد له بها من قبل، فنام .

الغيث - الجاويش كامل افندي صديق بيت كسار يحوّل في ساقية المسك ويترحم على رفيق سلوم، فيضطرب بيت كسار من وردة الى زينة وتسال وردة عن تهمة سامي فيستغظهما كامل افندي ويلعن الحسيس الدني. الذي دل عليه، وينني ذلك عن طام وبوزيد لانها لا يعرفان اين هو، فتقطع وردة الحديث .

وتعدو زينه الى عاليه وتنام عند العوراء وفي نيتها ان تقابل رشدي بك فتراه في الصباح يشق الشارع على حصان كأنه البرق، واقتفت اثره فاقبلت على جماعة يتحدثون عن فرار شفيق افندي رئيس الحراس والسجين سامي عاصم بحيلة غريبة: ثم ادعى شفيق ان عنده سجيناً مريضاً فرخص له بنقله فقتل الحارس وفر مع السجين . وتطاردهما الحكومة فتقتلها وتمرضها على الناس مغطية رأسيهما - كما هو مألوف - فتعود زينة الى البيت حزينة فيخبرها جدها انها لن تكون فيما بعد عبدة لحالتها المستبدة لانه رهن البيت بمئة ليرة . فوعت كلامه ، ولما غاب قامت تتبع آثاره واحداً فواحداً حتى مغارة الحورية ، وهناك كانت وقفتها فيها كوقفة امرئ القيس ...

وفي ذلك النهار اقبل طام على امه ورده يخبرها ان راسم بك - صاحبه - يريد اخته زينة فاستبشرت ورده بهذه الزلني ورأت فيها باب رزق جديد . وذهبت زينة لمقابلة راسم بك فتوسل باستنطاقها لمراودتها عن نفسها، فاجفلت . فامهلها الى غد واعادها الى البيت، ولكنها لم تعد فاخذ (الصباح) رهينة وزينة لم تعد ايضاً، فاعتدى على كرم بوسعيد فقص جفانه وحفر فيه الحنّادق، وزينة لم تعد ايضاً . وبينما بوسعيد مرتبك صابر على الاهانة والضرب تعود (الصباح) الى البيت ويخبر

طانيوس عمه بوسعيد ان زينة عند راسم بك . وتقضي زينة ليلة يهوديت عند اليفانا فينجلي (الصبح عن راسم بك جثة باردة صريع السم فالمسدد . وتقر زينة وجدها بوسعيد . اما طام فتتركه لانه صغير لا يؤخذ بحريوة غيره، فاستاق الجند وردة وطام الى الثكنة العسكرية حيث اشبعوهما ضرباً فجئت واخذت ترغرد كلما عن لها ذلك، وزجت في السجن فاطبق عليها الجنون لعبث المسجونين بها .

وبعد اربعين يوماً افرج عنها فعادا الى ساقية المسك فتنكر لها البيت وما يملكان من عقار ، فخر طام ان ابرهيم بك فاخر المرتين ارسل من اخذ المنجور والبلاط فقصده طام تتبعه امه كظله، ترغرد وتشر كلما جاءتها النوبة . فغاز من ابرهيم بك برغيفين اسودين، وعاد طام الى وكره فالتقى بكامل افندي فلم يعرفه الا بعد تأمل، فامده بالشعر وغيره من جوايات العسكر ، وقبل ذهابه الى ساحة الحرب ودعه بكيسين من الشعر وبشلك واحد، واوصاه بالاتكالم عليه تعالى، وعالله بانتهاء الحرب وسيجتمعان بالشام ان شاء الله .

وفي الغد تذهب الكتيبة فيودع طام كامل افندي وداعاً لطيفاً، ويعود ليحافظ على الشعر ويخفيه عن يوزيد فيأتيه عمه طانيوس بكيس خبز ليلاً ويسأله اذا كان ابرهيم فاخر ارسل اليه مئة ليرة، وانه سيرسلها والا فالعصابة البيضاء تنتقم منه . فانتظر طام ولم يأت شي . فكر كرة اخرى الى البيك فلم يفر بغير الحية، بيد انه اختلس دجاجة، ثم طمع باخرى فاشبع ضرباً .

وترد على ابرهيم بك رسالة من العصابة البيضاء . لينيل الراهنين حقوقهم فلا يأبه لها فتحذره زوجته فلا يبالي معتمداً على ضابط المنطقة وخلييل المعلا . وفي تلك الاثناء تتورم وردة وتنحط قواها فتقطع الزغردة وتلثني عن اللحاق بابنها . وتام طام في احد الاقبية فجاء اصحاب النعش ليدفنوا امرأة ميتة من ذاك القبو، فاخذوا طفلها حياً معها، وهموا بطام ايضاً فهرب وهو يصرخ : انا ما مت . فتأتي زينة فترى وردة ويوزيد ميتين ميتة كريمة .

السنابل - وتنطلق باخيها طام الى مغارة الحورية حيث عمه طانيوس وهناك يأكل اكلًا غنيًا، ويسائل عن العصابة البيضاء مسائل صبيانية فتجيب زينة بمثلها . وفي مساء اليوم التالي يكمنون ثلاثتهم في ضاحية بكفيا . ثم ترسل زينة اخاها طام ليتقصى ابرهيم بك فاخر فلا يذهب الصبي حتى يدوي الرصاص، فتتقدم زينة فتري جندياً تركياً صريعاً وطانيوس يفتش جيوبه، ثم ترى خليل المعلا مشدوداً الى شجرة، ويقول لها طانيوس تركته لك . فتستبد به وتم بقتله فيخبرها ان حبيبها سامي عاصم لا يزال حياً وهو يحارب في الصحراء والنصر قريب ، وان مصرعه كان حيلة حكومية، وانه هو مثل دور سامي المقتول، فكان حلوان هذه البشارة قبض روح هذا الخائن الحسيس . وينتقل المؤلف الى وصف الحرب في الصحراء حيث سامي عاصم وصاحبه شفيق يتوقعان نفس قطار العسكر التركي ، وينجز سامي بعد ذلك الهول فيسقط فرسه مدقوق العنق ويسلم هو، ثم يرى جندياً جريحاً يزحف فيحاول سامي ان يقضي عليه فيصبح ذاك : انا عربي مثلك لا تقتلني . واذا بهذا العربي كامل افندي فيتعانقان ويعرفه برئيس الحراس شفيق افندي العاليلي .

وفي تلك الساعة من الرواية تكون زينة على صخرة عند بكفيا وابن عمها طانيوس يكتشفها بحبه وتأبى فيجرد حيناً . وننتقل الى البادية فتري كامل افندي رسولا الى الاتراك يخاطبهم بأمر التسليم حتى اذا عاد اطلقوا خلفه الرصاص فلا يصيبون منه مقتلاً . وفي فصل تالٍ يجلس الثلاثة يزحون مزحاً لا بأس به ويدرسون القضية العربية على ضوء جديد، ثم يذكرون زينة وطام، وتقر طائفة فيتندرون .

ونعود الى لبنان فنسمع طام منادياً في بكفيا : ابرهيم بك فاخر يوزع الطحين على الفقراء، فيتألبون حول بيته وبينهم طام وطانيوس وزينة ثم ينقلب الزحام ثورة تنتهي بحرق بيت الرجل وهلاكه فيه، واختفاء طانيوس .

ويصل سامي الى الطفيلة في شرق الاردن فيشيع بين اهلها ان الاتراك يزحفون من عمان لاستردادها، فيستعد الاهالي للدفاع عن قريتهم ويهب سامي وشفيق

معه فيسقط شقيق جريحاً لا يرجى فيجهز عليه سامي عملاً بما تعاهدا عليه لئلا يقع في يد الاتراك، ويجلس بعدئذ سامي وكامل فيعملل كامل نفسه بدخول دمشق بعد اسبوع، والذهاب الى ساقية المسك فيرى طام وزينة .

واعتدى الاسرى الاتراك على الاهلين فاصدر القواد امرهم بافناء الاسرى، ويتوجه سامي الى المزريب وهناك يثار لنفسه من رشدي بك رئيس الديوان العربي فيقتله شر قتلة، ثم سوى الاتراك صفاً واحداً وعرضهم على البنادق فحصدتهم . وركب فرسه متجهاً صوب المعسكر فرأى العراك حامياً والاهالي يهجمون غير منتظرين امراً حريباً فهجم وراءهم القواد بالاسلح الابيض وكان سامي في طبيعة الهاجين وظل يهجم حتى قتل .

الحصاد - فاز العرب ودخلوا دمشق ظافرين، وانهزم الترك وجاءت زينة الى بيت الوراق عند كامل افندي فقص عليها ايجاد سامي وكيف مات وهو يذكراها . وقد سلمه تلك الامانة - الذخيرة التي علقتها في صدره - فتأخذها زينة وهي كأنها لا تسمع ولا تعي ولا تحس، وتستفيق على اخيها طام يعالج يدها ويسألها .
اختي، اختي، ما هذه ؟ فتقول لا شيء .

فما اروع هذه اللاشي، وسيأتي درسها

اشخاص رَوَايَةِ الرغيف

لا بد من كلمة نعلقها على هامش (عرض الرغيف) قبل ان نتخطى الى درس اشخاصها . ظلت الرواية متمسكة متصلة في مراحلها الثلاث الاولى - التربة، البذار، الغيث - حتى اذا ما أسبل الزرع وأحب - السنابل - بعدت الشقة ما بينه . فكأننا تنقل زينة بين عاليه وساقية المسك قد بقي خيطاً سرياً يربط الحوادث فما انفصلت . واذا انشق المسرح شطرين واحداً في الصحراء، وآخر في لبنان انتقص الاتصال الطبيعي الذي نعمت به الرواية طويلاً، فكاد ينقطع السياق احياناً انقطاعاً مفاجئاً يشبه (دع ذا) النابغة .

ليس ينبغي لنا أن نؤاخذ المؤلف على هذا التقطع مؤاخذه عنيفة، فكم له من ضريب في روايات ذات مقام رفيع في عالم الادب، غير اننا كنا نشئ ان تظل الرواية تعدو الجزى ولا تطير هذا الطيران المتقطع . فالرغيف غنية بالحركة المنظمة، وجري الحوادث لا اصطدام فيه ولا زحام، منظم كخطط السير في العواصم . ولكن هذا البون الشاسع بين الميسنة والميسرة كما في رقم (١١ ص ٢٨٧) ذهب بشي . من الاتزان الفني . وقد نبتت على جذع الرواية بعض اغصان كان الأولى ان تمتلخ مثل (رقم ٢ ص ١٥٥) . أبدعها المؤلف اكراماً لعيون زينه (التي تذبذب ذبجاً) لتعلم على الهيئته فرار سامي . المشهد جميل، وحواره واقعي، ولكنني رأيته ألبق بالمسرحيات منه بالقصة .

وكافي بالاستاذ عواد طماع اراد ايضاً ان يزيد على روايته المستلثة كالزمانة، مشهداً آخر، فصور لنا الاحتفال بدفن المسيح والتنافس على قطف الازهار ولكن ذلك كان بعد فوات الوقت . فالمسيح لا يتضح بل يشبع نوماً ويقوم قبل هذا الموعد،

عند الكنيستين الغربية والشرقية، ناهيك انه في العام الذي يؤرخه صاحب الرغبة، قد قام باكرأ (٢٣ نيسان) . هذه مسألة (طقسية) ولا بأس على توفيق ان فاتته، ولكن زميله اناطول فرانس عندما كتب (تليس) لم يسلم من مطالعته كتاب ديني حتى خلق بفرنس الشهير . احتاج الى شي . فني فاستعاره له من قصة سمعان العامودي، والقصصيون كالجيران يستعيرون من هذا لذلك معجزات وحوادث لا لا حوائج ومتاعاً .

ويلحق بهذا الباب جعل صاحبة التزل في عاليه عورا . كل ذلك لتتشكى من الترك الذين يقولون للمرأة السوقية (عورات)، ظانة انهم يعيرونها عورها . تلك رغبة ملحة عند اكثر الروائيين لم يسلم منها توفيق، على ما عنده من حذر فني، فظهرت في رغبته بعض بشور سببها الاكثار من الحمير .

الاشخاص - بالاشخاص تحيا الرواية وبهم تتحرك، واصعب اعمال الفن الروائي خلق شخص حي، اما كيف يخلق الروائي هذا الشخص - الحي الباقي - فن يعلم ؟ قل لي ماذا نفعل لنخلق ولدأ نابغة اقل لك ذلك . قد تحمي الشخص بضع كلمات وقد تقضي عليه جمل فصيحة يحسب المؤلف حين مسح القلم منها انه استراح كالله في اليوم السابع . وقد يخلق الصمت بطلاً يعجز عن تصويره الكلام، والشخص الذي نعينه هو الذي يخرج من بين سطور القصة ليسايرنا ويماشرنا حتى نتوهم اننا سنلتقي به في طريقنا، او في احدى الساحات العمومية، او في الحقل بقتة، كلي سعيد مثلاً، فهو اقل ابطال الرغبة كلاماً وليس دون خيهم حياة . لا يفطر هذا الخلق البديع الا خيلة قوية وذاكرة لاقطة تتجمع لديها العناصر فتكون منها شيئاً واحداً يصير لها، كما يستمد الابن خواصه المادية والمعنوية من ابيه وامه وجدوده وجميع رھطه . فليس لنا ان نقول بطل هذه الرواية مثل ذاك فالناس تتشابه . وابطال القصص ناس عالمهم الكتب ومسبحهم اخيلة البشر، والاستعارة لا بد منها، فالمرء يعجز عن الخلق من العدم . لا بد من أن تتلاقى بعض عناصر اولية . وتلك الدنيا الآخرة الا ترينها الكتب المقدسة كأنها صورة عن

دنيانا؟؟ ان العناصر المتكدسة في مخيلتنا كالفضاعة في مخازن الجبرك تعمل جميعها في تكوين ابطالنا، كما تشارك عناصر السلالة جمعا في تكوين مولود جديد . فان نبغ فهو ابن اولئك كلهم ولكنه غيرهم في كل حال .

واذا نظرنا الى اعظم الروائيين رأينا في ابطالهم بعض ملامح من تقدموهم . ففهم من احسن الخلق فرزق ثابغة ومنهم من رأينا بين ولدهم بلها، وكتما، وعوراء، وحولا، وحديبا، ومقعدين، وسحنا مقاربة . لا نعني بهذا ان يكون الشخص - الروائي - جميلا محبوبا ليكون خالدا، فقد يكون الجميل المهذب النبيل شخصا يتحرك كاللعب تحركا آليا، وقد يكون القبيح المكروه شخصا عبقريا - في فصيلته - نتحدث عنه كأحد الناس، وهو ابن مخيلة مبدعة .

قال احد مشاهير كتاب فرنسا القصصيين، الفونس دوده : « فرح الروائي الحقيقي ان يخلق اشخاصا انسانية يتجولون بين الناس بايمانهم وحر كاتهم وسجنهم التي طبعت فيهم، فيتحدث الناس عنهم - بيبغض او حب - بقطع النظر عن خالقهم وبدون ان يذكر اسمهم . فما أشد فرحي حين اسمع الناس يتحدثون عن واحد من الوف اللعب الآلية في مهزلة الحياة السياسية او الفنية او العالمية فيقولون : هذا تارتارين، هذا مونبافون، هذا ديليبيل . ان هزة تعتريني حين اسمع ذلك، هزة كهريا . أبر غير معروف من جماعة يصفقون لابنه اعجابا، فهو يتأهب في كل هنية ليهتف : هذا ابني . »

اولئك هم الاشخاص الذين يتبنى الروائيون ان يرزقوهم، وما أرى توفيق عواد الا ابا واحد منهم ان شئت الهة الفن . فعنايته بشخصه اكاد المسها بيدي فهو يدور حولهم كالمثال وفي يديه الشتين ازميله ومطرقته . غير اني أرى الناس يرغبون اليوم في تحديد النسل هربا من مؤونة التربية الثقيلة، بينا توفيق عواد اكثر تفقيصا من الجراة، حتى انه لم يحرم نفسه ولا اهل البيت الظهور في روايته، ومن كان الدفتر في يده لا يكتب نفسه من الاشقياء . لقد خلق في رغيغه دنيا من الناس

عند الكنيستين الغربية والشرقية، ناهيك انه في العام الذي يؤرخه صاحب الرغبة، قد قام باكراً (٢٣ نيسان) . هذه مسألة (طقسية) ولا بأس على توفيق ان فاتته، ولكن زميله اناقول فرانس عندما كتب (تليس) لم يسلم من مطالعته كتاب ديني حتى خلق بفرنوس الشهير . احتاج الى شي . فني فاستعاره له من قصة سمعان العامودي، والقصصيون كالجيران يستمعون من هذا لذلك معجزات وحوادث لا لا حوائج ومتاعاً .

ويلحق بهذا الباب جعل صاحبة التزل في عاليه عورا . كل ذلك لتتشكى من الترك الذين يقولون للمرأة السوقية (عورات)، ظانة انهم يعيرونها عورها . تلك رغبة ملحة عند اكثر الروائيين لم يسلم منها توفيق، على ما عنده من حذر فني، فظهرت في رغبته بعض بشور سببها الاكثار من الخبير .

الاشخاص - بالاشخاص تحيا الرواية وبهم تتحرك، واصعب اعمال الفن الروائي خلق شخص حي، اما كيف يخلق الروائي هذا الشخص - الحي الباقي - فن يعلم ؟ قل لي ماذا نفعل لنخلق ولداً نابغة اقل لك ذلك . قد تحيي الشخص بضع كلمات وقد تقضي عليه جمل فصيحة يحسب المؤلف حين مسح القلم منها انه استراح كلفه في اليوم السابع . وقد يخلق الصمت بطلاً يعجز عن تصويره الكلام، والشخص الذي نعنيه هو الذي يخرج من بين سطور القصة ليسايرونا ويعاشرنا حتى نتوهم اننا سنلتقي به في طريقنا، او في احدى الساحات العمومية، او في الحقل بفتة، كالتي سعيد مثلاً، فهو اقل ابطال الرغبة كلاماً وليس دون خيهم حياة . لا يفطر هذا الخلق البديع الا خيلة قوية وذاقة لا قطة تتجمع لديها العناصر فتكون منها شيئاً واحداً يصير لها، كما يستمد الابن خواصه المادية والمعنوية من ابيه وامه وجدوده وجميع رهطه . فليس لنا ان نقول بطل هذه الرواية مثل ذاك فالتناس تشابه . وابطال القصص ناس عالمهم الكتب ومسبجهم اخيلة البشر، والاستعارة لا بد منها، فالمرء يعجز عن الخلق من العدم . لا بد من أن تتلاقى بعض عناصر اولية . وتلك الدنيا الآخرة الا تربتها الكتب المقدسة كأنها صورة عن

دنيا ٩٩؟ ان العناصر المتكدة في مخيلتنا كالفضاء في مخازن الجمر تكمل جميعها في تكوين ابطالنا، كما تشارك عناصر السلالة جمعا في تكوين مولود جديد . فان نبع فهو ابن اولئك كلهم ولكنه غيرهم في كل حال .

واذا نظرنا الى اعظم الروائيين رأينا في ابطالهم بعض ملامح من تقدموهم . فنتهم من احسن الخلق فرزق نابغة ومنهم من رأينا بين ولداهم بلها، وكتما، وعورا، وحولا، وحديبا، ومقعدين، وسجنا مقاربة . لا نغني بهذا ان يكون الشخص - الروائي - جميلا محبوبا ليكون خالدا، فقد يكون الجميل المهذب النبيل شخصا يتحرك كاللعب تحركا آليا، وقد يكون القبيح المكروه شخصا عبقريا - في فضيلته - نتحدث عنه كأحد الناس، وهو ابن مخيلة مبدعة .

قال احد مشاهير كتاب فرنسا القصصيين، الفونس دوده : « فرح الروائي الحقيقي ان يخلق اشخاصا انسانية يتجولون بين الناس بايمانهم وحركتهم وسجنهم التي طبع فيهم، فيتحدث الناس عنهم - بغيض او حب - بقطع النظر عن خالقهم وبدون ان يذكر اسمهم . فما أشد فرحي حين اسمع الناس يتحدثون عن واحد من الوف اللعب الآلية في مهزلة الحياة السياسية او الفنية او العالمية فيقولون : هذا تارتارين، هذا مونبافون، هذا ديليبيل . ان هزة تعتريني حين اسمع ذلك، هزة كهريا . أب غير معروف من جماعة يصفقون لابنه اعجابا، فهو يتأهب في كل هنية ليهتف : هذا ابني . »

اولئك هم الاشخاص الذين يتسنى الروائيون ان يرزقوهم، وما أرى توفيق عواد الا ابا واحد منهم ان شئت الهة الفن . فعنايته بشخصه اكاد المسها بيدي فهو يدور حولهم كالمثال وفي يديه الشتين ازميله ومطرقته . غير اني أرى الناس يرغبون اليوم في تحديد النسل هربا من مؤونة التربية الثقيلة، بينا توفيق عواد اكثر تفقيصا من الجراة، حتى انه لم يحرم نفسه ولا اهل البيت الظهور في روايته، ومن كان الدفتر في يده لا يكتب نفسه من الاشقياء . لقد خلق في رغيته دنيا من الناس

صغره وجوعه، جوز راسم بك وزبييه انتصاراً لكامل افندي . يعيد البشلك
الابيض - الذي هياه توفيق لاستقباله - انفة واستكباراً، يبكي بكاء مرأ
لكلمة أفلتت منه وهي لا تضر ولا تنفع . احط الجوع خلقه فسرقت لياكل ،
ولكنه كان يوسفأ ثانياً حين راوده السجان، واستقتل على ضعفه وخوره في صد
كركور عن عرض امه .

ابوزيد - صديق ورده - بغتة - يعاونها على اشغال حانوتها، بدين، قدر،
سكيز مزعج، ولكنه بطل رواية حقاً، صورته توفيق صورة اخالها قبالة عيني ،
يتمايل بغنبازه المشقوق . وما اكثر امثاله الذين يعترضوننا في السكة . لا يعرف
ما في تصوير ابوزيد من صدق الا من له عينان، كأن المؤلف اقام ليالي وجمعاً
حيث يكون امثاله ليخرج هذه الصورة النادرة التي اتها في عاليه حين كان يصرخ
في السجن : يا افندي . باد شام جوق باشا .

خليل المعلا - شنيع الصورة احفى الجدرى شارييه، ابتسامته خبيثة كريهة،
وضحكته نسناسية، جعل المؤلف في وجهه سياءه الدالة عليه، جاسوس وقواد
للاترك في وقت معاً، استأثر بالانحطاط كله ولم يترك لاحد شيئاً، وما اجدره،
ساعة صرعه زينة ، بالكلمة التي قالها ابليس ذاتي ليفينديكو : اذهب ايها
القواد، فليس هنا من تبيع عرضها .

سامي عاصم - ابن تاجر بيروتى، لا يعرف كيف يحب، والعهد بهؤلاء خريجو
مدارس عالية... الا اذا كان الفرع بطاير الرجوع كما يقولون . تجاوز مقدار الشجاعة
والنهي بقتله الجندي التركي، وخصوصاً في الدفاع الأهرج بالديوان العرفي . ينظم
الشعر ليحرض الناس على الثورة، ولكنه لا يرضى عن شعره الجميل فيكتب ويمحو .
تعوز شعره القوة - كشعر بشاره الحوري القومي - ولكنه اعاضنا ببطلوته وموته
في الصحراء من ذلك الشعر الرخو .

كامل افندي - شاب شامي، يدل تركيبه على انه أهبل، ثم يحل في الصحراء
مشكلة حربية، مسلم مؤمن، مواظب الخمس لاوقاتها، يطفح صدره يقيناً، متكلم

على ربه - قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا - يهمل في الصحراء ويكبر ويصلي
ويسلم كأنه في الجامع الاموي، ويجاهد كأنه مع النبي في وقعة بدر . كبير الامل
بفلاح العرب، طيب القلب متردد في غشيان كل ما يسي . الى اسلامه، وهو الى
كل هذا يرى الخلق كلهم عيال الله . يترحم على صديقه رفيق سلوم المسيحي من
كل قلبه .

واسم بك - قائد الجيش، رجل خمسيني مديد القامة صليب العود فاسق أدمر،
متعجرف مهاب، قاسر يأخذ الناس بالشبهات، منتقم لا يعرف الرحمة، شديد الوطأة
على الجيش كأنه زياد او الحجاج .

رشدي بك - رئيس الديوان . صورته الاخلاقية والخلقية وخصوصاً (فكره
السفلي) يعيد الى ذاكرتي وجه رضا بك رئيس الديوان العربي الذي ارب لبنان -
ما خلا الجميلات - فهو الذي بعينه توفيق لا غيره، وصفته معروفة منا وتشهد بها
الكتب .

شفيق افندي - رئيس الحراس رجل يظاهر ما لا يبطن، مسير لا يخير، تركي
لباسه، عربي قلبه، يعضه الاستبداد ببني امه وعمه، ويسكت على مضض، جري
مغامر يدبر الامور ويحكم الخطط .

طانيوس كسار - لم يعطه المؤلف شيئاً مما وهب لزينة بنت عمه، فهو في واد
وهي في واد، امانيه ضيقة لا تتجاوز الكيس، مكارري جلف لا يقاتل المثل
العلياء، كسول غير شجاع (يعتاض عن سلاح الاسود بسلاح الثعالب) .

ابراهيم فاخر - بيك عتيق، وآدمي طازه، ضيق العينين كأنه من خزر تغلب،
متكالب على حطام الدنيا، غني صخري القلب، جبان يثق بالحكومة وبجبايتها
للعباد، امراته عقيم، والمثل اللبناني ينفي عن مثله الكرم . خروج القرش من جيبه
وطاوع روحه سيان، وهكذا كان .

هؤلا . اشخاص توفيق العاملون في جمعية الرغبة، اما اعضاء الشرف وغيرهم

فما يتسع البحث لدرسهم كلهم، وقد يكون عددهم كثيراً ولكن الإبطال لا
يكثرون على توفيق فدواهيته تبددهم وتطهر الأرض منهم فهو :
يشي وعزرائيل من خلفه مشر الاردان للقبض

لم يسلم من كل من حشد في روايته الا ثلاثة : زينة وطام وكامل افندي .
فالاستاذ روائي سفاح، زملاؤه كثر في عالم القصة . كانت وطأته على ابطاله ثقيلة،
فما ابقته عليه المجاعة والديوان العرفي افناه هو . ليس يعنيننا هذا فالفاخوري مسلط
على طينه .

اذا كان الانسان ابن نشأته ووليد بيئته الاولى، كما قال الدكتور ادهم وعلماؤه،
فتوفيق لبناني مهما تبيرت . فهو لا ابطاله في روايته الرغيف وقصصه الصبي
والقميص - الا اقلهم - من ابنا الجبل . صورهم تصويراً رائعاً صب فيه كل ما
أوتي من قوة فنية لجأوا واضحين بميزين متساوين في العظمة والكرامة . كان
التصوير فائتاً حتى النفور، والتظهير متقناً حتى التقوية، وللعين العمل الاكبر في ذلك .
معظمهم قرويون او يشبهون القرويين، وجاههم او كلهم من السوق، وتوفيق
اختصاصي بدرس هذه الطبقة وتصويرها . وأوسع اشخاصه ثقافة وعلماً هو سامي
عاصم . يزجهم توفيق في مأزق حرجة ويجملهم شهداء ليستغفر الضعفاء . فينهضوا،
وهذا هو هدفه في روايته وقصصه، يجري في هذا وراء غوري الذي قلما سلم له بطل .

يعجبني من توفيق انه لا يرسم لك ابطاله دفعة واحدة بل عليك ان تلتقط
صورهم من هنا وهناك، انه لا يعطيكها جرعة واحدة بل متقطعة كالدواء،
وبعض الاحيان يهمل كل هذا فتدلك عليه القرائن، وهذه طريقة لا بأس بها .
كثيرون من الروائيين الكبار - ديماس مثلاً - يصورون ابطالهم بلسان الآخرين
منهم، وهكذا تظل حركة الرواية مستمرة، فلا يحس القارئ جوداً أو وقوفاً .

ان اشخاص توفيق مكتنزو الاجسام، اقوياء البنية - فنياً - لا يحتاجون الى
الفسفات وزيت السمك، في مطبخ ابيهم الفني خيرات كثيرة .

حوار الرغيف وأشياء أخرى

اللهم، اسقنا سقياً نافعاً، اللهم، حوالينا لا علينا لان الفاضل ضار .
لا أدري اهي حديث شريف، ام كلمة مأثورة، وقد تكون آية . ولكنها،
كيفما دارت بها الحال، تصلح دستوراً عاماً لكل شأن ولا نستثنى الآثار الادبية .
فكما يستبشع القزم كذلك يستشنع الذي هو فوق الطويل كالشمروخ الغرائق .
اجاد الاستاذ عواد في الحوار - لولا التضييق احياناً - فكسا روايته لوناً
خاصاً هو ألزم حاجات الصانع الفني ليسوه به ويطلي آثاره . والفن هدف صاحب
الرغيف فيما الف وصنف . فالحيال والواقع صنوان في حوارهم . ان الحوار معضلة
الفن القصصي، وهي تشغل حتى الاوربيين الذين يكتبون، تقريباً، كما يتكلمون .
فغير الباريسي مثلاً، لا يحسن اداء حديث الباريسيين بالضبط . ومن طالع قصص
موبسان الاقليسية يدرك كم سعى هو واتباعه ليجملوا العلاقات بين ابطالهم كاتي
بين الناس قولاً وفعلاً .

قد شعر شيخنا الجاحظ بهذه الحاجة الفنية فقال في كتابه الحيوان (ج ١
ص ١٦١) : « وانا اقول ان الاعراب يفسد نوادر المولدين كما ان اللاحن يفسد
كلام الاعراب » .

لا بدع ان ادرك اديب كامل كالجاحظ سلحته الطبيعة بذوق كامل، ان
هذا الشر لا بد من وقوعه . إننا نقدر له هذا الرأي الاصيل وان كنا نقبح حواراً
عامياً كالسيل الجارف مثل حوار الاستاذ توفيق الحكيم في (عودة الروح) . هذا
الحوار الذي اطراه السيد صلاح ذهني في كتابه الطريف (مصر بين مهدين)
فحوار كهذا لا يعجبني . انه جنائية على اللغة الفصحى التي هي رابطة العرب، ناهيك

ان غير المصري لا يتذوقه، بل لا يفهمه، ونحن نريد ادباً عاماً . قد سألت طلعت
باشا حرب قمع هذه الفوضى، فكتب واعد ان يتدبر ذلك في ما يخرج منه سيديو
بنك مصر من مسرحيات لتذوقها الاقطار كلها .

وبعد هذا زعم كاتب نقد اقاويص توفيق عواد في المقتطف : ان البائع
الجوال في شوارع القاهرة ينادي على سلعته (عندنا نقتالين بمنع العث من الملابس)
ولذلك يخالف هو (من يدعو الادباء الى مخاطبة الدحما . بلهجتهم ومصطلحاتهم
وتعابيرهم) انه يريد ادباً زفيعاً، حتى في الحوار، ولو جاء كالضبط بالشكل الكامل
في الجمع والطرح والضرب والقسمة .

قلنا اذا كان هذا الكلام على لسان البائع فاساوبه أولى مع مراعاة الاصول،
لان الرواية صورة الحياة، ولكن سر الفن ليس في هذا بل في وضع الشيء في محله .
فانشاء المؤلف وطريقته القصصية وتخطيط روايته تؤلف كلها، مجتمعة، اثرأ فنياً
واذا اجتمعت للمؤلف الموسيقى الكاملة والخلق المناسب الملتحم تألفت وحدة
صادقة الدلالة والتعبير وهذا هو الاثر . فكم يأتي أفصح الكلام نابياً وارذله
فصيحاً مليحاً ! فالحكم هنا هو الذوق الفني ليس غير .

اننا ننكر على ناقد اقاويص توفيق عواد قوله ان في لهجة مصر طوعية
لهجة الاقطار وخصوصاً اللبنانية، وقد احسن توفيق عواد واجاد استعمالها في اقاويصه
وروايته، ولولا يمن توفيق في تهذيبها لطابق حواراه الواقع كل المطابقة ولم تخسر
القصصى ولا اساوب العرب مثقال ذرة .

جاء في الرغيف (ص ١٨) وحاول القيام بكأسه - الضير عائد الى بوزيد -
فوقعت على الارض وذهبت شظايا، فانحنى يلها ويوسها متباكياً : - يا حرام .
يا حرام .

فتجيبه وردة - كلها كلها . عسى ان تموت .
ان (يوسها) لا تلام (ذهبت شظايا) فيقبلها هنا افضل، والتقطها خير من

(لها) . اما يا حرام، يا حرام، فطبيعية وجميلة جداً في هذا المقام ، وكذلك قول وردة : كلها، كلها . اما عسى ان تموت فجافية وفي الممكنة الهرب منها الى : ليتك تموت، فيقضى الامر الذي يرومه المؤلف ويوفق بين الفصيح والعامي من الكلام .

وفي (ص ١٩) يقول بوزيد ايضاً : قدح واحد بعد . يدفعه عني الخواجه . فلو قوله : اعطني قدحاً آخر . الخواجه يدفع لك ثمنه ، بل لو قال هات فرد قدح لجاء التعبير عامياً فصيحاً، ومن قرأ الادب القديم رأى ان مثل فرد قدح ورد كثيراً في كلامهم .

اما قول وردة : من اين لي العرق ! فاكثر من جميل، اما : هل انت مجنون، خفي منها : آنت مجنون !

ومثل هذا ورد عن الفصحاء . قال النبي (صلعم) لأعرابي كان عنده : اعطني السكين . فاجابه ذاك الذي لا يعرف ما السكين : ألمدية تريد ؟ والعبارة التي تليها : (رح اكل سكرتك حيث بدأتها) لا تحتاج لتصير كالواقع الا الى حذف همزة اكل فتصير رح اكل سكرتك حيث كنت .

وفي الصفحة (٢٠) يقول بوزيد ايضاً : (اهذا عرق ام لا، شم شم يا خواجه) . هذا جميل، والأجمل حذف الهمزة . ثم قوله : عرق وردة كسار رانته كالمسك، ستري انها تصب لي قدحاً آخر .

هنا يجب حذف كسار فليس بوزيد متى الانجيلي يكتب الانجيل السلسلة . وابدال الكاف بمثل اولى بعشاق الواقع، وهو لا يضر اسلوب العرب شيئاً . ثم لو قال : ريحة عرق وردة مثل المسك لكان كالواقع بعينه ، فهذه السين واختها سوف، وهمزة الاستفهام، وبنت عمها هل، وغيرها كالكاف واترابها قد عافها اللسان العامي الذي يهذب الحشن ويشقف المعوج .

ويصف توفيق عواد عيني زينة وفها فيقول : (لها فم كافستقة وعينان تذبجان ذبجان) . الوصف جميل وهو من كلام العوام الطيب، ولكنه يحتاج الى تحويل

ايضاً يخلصنا من الف التثنية، ناهيك ان محله على لسان وردة او احد الابطال
يكون ابلغ وواقع .

هذا رأيي في الحوار، وقد قلت اكثر من مرة ان لهجتنا اللبنانية اطوع اللهجات
واقربها الى الفصحى . نحن في هذا البلد نكاد نتكلم لغة الكتاب الكريم، وفي
كلامنا وعلى السنتنا الكثير من كلماته وتعايره . لا يتسع المجال لتحويل غير هذا
من حوار الرغيف، وقد احسن الاستاذ عواد اذ تعمد التوفيق بين الاصول والواقع
فأرضى الفن ولم يسخط الاخفشين .

واذكر اخيراً عبارة جميلة قالها طام لاخته زينة : تجننين انت يا اختي . ما
ابشع هذه النون المعلقة بالفعل كهن بدنب هر . قد قضى الاعراب على توفيق
ان يتعلق بها، وماذا تريد ان يقول، فلو قال : جننتينا يا اختي، كما نقول بالحرف
لعلت صيحة الغر الميامين حماة اسلوب العرب واخرجت صدورهم اثقالها . اما الحل
فعند الجاحظ وعندني . قال مولانا الجليل في كتاب الحيوان (ج ٤ ص ٣٣) :
« وقد يقول العاشق لمعشوقته : يا معذبتى، وقد عذبتيني النح » . اما الذي عندي فكما
قالوا عذبتوهم واعربوا الواو ضمة مشبعة، فلنقل عذبتيني، ونعرب الياء كسرة
مشبعة . وسوف استعملها حيث اضطر اليها وليشق المتعنتون رؤوسهم، فداود
اكل خبز التقدم لما جاع . ما لنا نضع في رقابنا هذه الاغلال ونصرخ شاكين
الجور ! فلنحطم ما لا يضر تحطيمه، فلنلجأ الى القياس كما فعل الصحابة بعد
موت النبي، ولا بأس بالاجتهاد اللغوي فليست اللغة اقدس من الشرائع المتزلة،
دايل الحياة الابدية .

ان اقاخيص عواد وروايته الرغيف تكاد تكون اصدق الروايات العربية
حواراً، ولا نؤاخذ مؤلفها الا باسفاف حين يتكلم هو، او اخطاء لغوية ونحوية
كثيرة يجب على كاتب كتوفيق عواد ان يتجنبها . ان اسلوب الرغيف كالرغيف
له وجه وقفا، يلتقي فيه توفيق عواد الصحن بتوفيق الشاعر، وقد استغربت اذ رأيته

يقف على قمة الابداع في وصف الطفيلة التي لا اظنه رأها، بينما هو لا يعرض علينا بضاعة من تلك البابة اذ يصف المواضع اللبنانية . واذا كانت القصة ضرباً من (الرابورتاج) كما يحددها بعض كتّاب اوربا فتوفيق قاص من الطراز الاول . في رغبته غداً لاوساط الناس ولا يعجز السوق عن تذوقها، اما المفكر فله منها النتائج التي طمورها المؤلف، له الغاية التي كتبت لاجلها .

لا ازعج ان الرغيف دليل على الطبيعة الانسانية كاملة النقل يقرأها الاديب كل عام ولا تفرغ، ولكنها في كل حال تصور حقبة نادرة الوقوع خرجت فيها الطباع عن مألفها، وسيبقى لها قراء في الغد يعلمون منها ان الجوع فضأح . وان المثل اللبناني القائل : ما احد يموت من الجوع، غير صادق . قد يلاحظ قارئ الرغيف انها كخبر نهر ابراهيم مرفقة حتى الهلهلة، وعلة ذلك انه قرأ اقاويص توفيق، والاقصوصة ملخص او خلاصة، ولذلك يؤاخذ كاتبها اكثر من مؤلف الرواية اذ عليه ان يجمع النور في بؤرة العدسة ليكوي ويحرق . اما الرواية ففيها ألف بؤرة وجرة على القصصي ان يلاها، ولماذا نهرب من قول كلمة حق : ان توفيق عواد القصصي ابرع من توفيق الروائي .

يعجبني من توفيق هذا الرسم والجزم والرمز - لا اعني بالرمز تلك الفقاقيع - فالاشخاص ترد الى ثلاث اربع ضربات اصلية يعبر عنها ببضع افعال، اما ما بقي فيترك . فالقراء الاذكياء يميزون الشخص ونحن لا نكتب لهؤلاء . (فلنأخذ الجوهر ونخرجه للقارئ بافعال مقننة متضامة مختصرة تلخص الحياة وهذه هي غاية الفن) هكذا علم النقادة تين .

قد اهمل توفيق عواد تصوير بضعة اشخاص ولكنه جعل اعمالهم تدل عليهم، اما الاغراب في كل الاعمال الادبية فرجعه طبعه، فعلى وجهه سياء المغامر المعارض . فكيف نصدق نحن الذين رأينا لبنان يموت من الجوع ان تقوم فيه عصابة بيضاء او خضراء تفعل ما فعلته على رمية حجر من ساقية المسك، مركز قيادة الجيش

المهايوني المظفر، وهل يصدق ذلك كاتب مدخل الرغبة ؟ وهو لو فكر لم يجعلها تحت ذقن الوالي ...

ليس هذا الاغراب ببعيد التصديق لو لم يختار توفيق ضعفاء العالم ليخزي الاقوياء، كما يقول مار يولس عن ربه . بل لو استطاع ان يطلم المستحيل، فالطلم الفني عدة القاص، وآله ان نتكلم مؤمنين بما نقول وان رويناً مستحيلاً كفعل دائتي في جسيمه (ف ٢٣ شعر ٣٧) والمعري في رسالته . قد يكون الذنب ذنبنا لاننا رأينا بأعيننا ما وقع في ذلك الزمان، ولكن غيرنا لا يصدق مثلنا لان التاريخ لا يموت . ان الكذب ضروري للفن، اذ لا فن في الخلق الصحيح، وتوفيق لم يقصر في هذا ولكنه تجاوز فيه الحد (حوادث زينة) .

أجل ان الرواية غير التاريخ الصحيح، والروائي متافيزيكي، والعلم لا يكون فناً، اما المتافيزيك فدائماً فن . والفن يفوق العلم وان لم يكن له تحقيقه، والشرط الاول ان نحسب حساباً للقارى فهو يرفض المستحيل مهما خف عقله .

اما الجز خاصة فنية طريفة لم يعدمها توفيق فهو ينتقل ولا يبالي، يترك كثيراً من العرض، وهو لو فصل كل شي . لكان حكا . لا روائياً بالمعنى المعروف . انه يعتمد كثيراً على ذكاء القارى فيدع له الاستنتاج ولكنه غالى في هذا فترك مطامير كثيرة، وحفرأ غير مطبورة، فهو كالحاصد يقطع ويرمي وعليك ان تجمع . فن مطاميره الدلالة على سامي وموت ابي سعيد، وموت سامي، وكيف اختفى طانيوس، وماذا حل بالبيك الجليل واهله، ولكنها خفايا غير عريضة، وهي عندي افضل من التصريح الوقع واللث القبيح .

اما الرمز فهو في التهيئة التي يلوح لك بها توفيق من بعيد، فني رغيته معالم خفية يظهر شأنها فيما بعد، وبها يعمد ابطاله للعمل كما هيأ رشدي افندي للعطف على سامي . ان اكثر ابطال توفيق مهيأون بلباقة دقيقة فكأن القضاء والقدر في شق قلعه . اما دلنا، على ان سامي عاصم لم يقتل، حين قول خليل المعلا : هيبة

الدولة كم مرة انا انقذتها ! (١٧١) . ومثل هذا تهيئة طانيوس (١٨٠) الخ . وكذلك ترحم كامل افندي المسلم على رفيق سلوم المسيحي دون سواه . اما التحليل عنده فمزوج بالتصوير . خذ مثلاً مشهد سامي عاصم في مغارة الحورية ، فهناك تحليل وتصوير . وخذ مثلاً آخر زينة في عاليه (ص ١٦٩) وما قبلها ، ففي هذه تحليل ظريف وتصوير بارع لحيرة الغريب ونفسيته . فهذا المشهد في نظري ابرع مشاهد الرغبة ، بل خير ما فيها على ما فيها من خير . أما اللون المحلي فعام في الرواية كلها ، فرقم ٦ (١٧٥) فيه شعر ووصف نفيسان ، ولتوفيق نهرا انشائية تكاد تكون شخصية ولكنه يعملو فيها ويسفل كالسنونو . ويعجبني فيه انه لا يفكر بالرواسم ، فمضى ان تتفق هذه النهرا في قابل مع اخواتها .

أما التناقض فكثير عند ابطاله ، فزينة التي دل تعليقها الذخيرة في عنق سامي على ايمان متين ، لم نر فيها فتاة مسيحية متدينة ، فهي في اخرج الساعات لم ترفع بصرها الى فوق - اللهم الا مرة واحدة - مع ان النساء من طبعهن التدين والصلاة كما نرى في بطله البعث لتواستوي . فكانت تترك صلاتها لتقضي حاجاتها ثم تعود تصلي ساجدة لليقونة ، اقاماً للفرض ... واحد ابطالنا المحليين كان يستوقف ابنا السبيل ليتم صلاة المسبحة ثم يعود ليسلبهم اموالهم . ان المؤلف حر بمخلاقته ولولا غرابة اعمال زينة لم نقل شيئاً . ومن الاغراب ايضاً ان تقص زينة على سامي ، في اخرج الاوقات ، حلماً كرؤيا يوحنا ودانيال ، وان رأينا أثر علم فرويد في حلم زينة وسامي ، فحلم كامل افندي وليد ابن سيرين .

اني ارى توفيق عواد موضوعياً في عينيه اللاقطتين كعدسة المصور ، وذاتياً في نفسه التي تتأثر جداً وتحمى لاقول لهبة ، فعينه تلقط المشاهد الخارجية بالضبط ، أما نفسه فقلما تهضم كل الهضم - لا بد من الكريونات - . تحس السينما صارخة في مشاهد ، اقرأ وصف مغارة الحورية ومصباح سامي الضئيل . والمصباح اخرج توفيق الى استعمال مشعات للسراج وهي سريانية لا عربية . ان هذه النظرات اللاقطة افاضت اللون المحلي على المؤلف . والى اللون المحلي اصف اللون الخاص ، فلبعض الادباء .

لون خاص كخليل تقي الدين في كثير من تعابيره - اقصوصة الديك - ومثله توفيق عواد فان له لوناً خاصاً احياناً لكنه ضيق الانطلاق والاتساع . ولولا قلة المؤونة اللغوية لجاء هذا اللون صارخاً، ولكن قلة توفيق اللغوية غامضة فكأنه من العيال المستورة . انه يتاجر بالوزنتين ويريك ان مخزنه ملآن وتجارته واسعة، وهو على قلة بضاعته مدقق في التصرف بها .

ينقص الرغبة زخم العرض، وتصوير المسارح، وتوفيق في اقاصيصه أيضاً لا يصور المسرح، وقد رأيت يتعمد حل قضايا اجتماعية في اقاصيصه - الصبي والقيص - حاول هنالك الدروس النفسية على مصباح فرويد وتلاميذه فخر في هذه المحاولة شيئاً من سليقته - والفرامة لا بد منها دائماً - اقرأ قيص الصوف تر ان حب تلك الارملة لابنها قد استحال حباً جنسياً . كل ذلك لان فرويد يقول هذا . فني ام قيص الصوف، وديك خادمة خليل تقي الدين تحليل فرويدي عنيف لا مبرر له في نظري . كان عمي انطون كأبي عروة السباع (يصيح بالسبع وقد حمل الشاة فيخيلها ويذهب هارباً على وجهه) (بيان وتبيين ٧١ ج ١) وكانت زوجته رجا ضيقة العين تدخر البيض الطري لبوفارس فلا تطيق ديكاً يأكل مع الدجاج مع ان عمي كان فحل شول .

اما شخوص الاستاذ عواد ففتنة من عالم الآثار، نقود عتيقة بالية . ينظر اليها نظرة عصفورية، اي يدور عينيه حين اللزوم، فهو سائق مغامر قلذ له الاصطدامات العنيفة، والتزمير وما يليه من شتائم ومسابات . وهو تارة يصور ابطاله بريشة الرسام، وطوراً يرش النشادر ويكوي بجحر جهنم ونترات الفضة . ولهذا اسباب طبيعية اجهل عللها . ان هذه النظرات الحادة تجعل منه كالسلاح المشحوذ حديثاً، يقطع جيداً ولا يرضيك بريقه ولمعانه ، وهو قبل كل شيء عابر سبيل يلم كل ما يقع في دربه ويضعه في عبه حين الحاجة، فعينه مفتوحة دائماً حتى في الظلمات، وهو على أخذ ما يرى اقدر منه على الخلق . ولولم ترجع كفة الواقع جداً على خيال الرغبة لكانت خير ما خرج من نوعها .

يصور توفيق العاهات ببراءة تشوبها القسوة والكرهه فكان له ثأراً عند صاحبها، فالعنف هو فن توفيق عواد وهو الذي يبث الحياة في قصصه، فيخيل اليك انك امام خلية نحل في يوم قيظ . فليكن توفيق عنيفاً ما شاء فهذه حسنة فنية يزينها تنكبه عن التعابير المهياة .

يحسب قارئ الرغبة وغيرها من قصصه ان درس الطباع فيها غير عميق لان مؤلفها لا يسير تواً الى هذا الغرض، انه لا يشتغل وحده بل يستغرق للعمل معه، فبدلاً من ان يصف اخلاق الابطال يريك اعمالهم التي تحددها، ولكنه يتطرق فيطلب من جدته الاولى ان تلبس مثل اخته الصغرى، او مثل عروسه ، والا فيعدها غير لائقة . اقرأ لتعلم كيف يقسو على ام قبيص الصوف ، حتى لم يبق الا ان يضع على بابها مصباحاً احمر . . . اني لازعم ان اكثر دنيا قصص توفيق عواد صادرة عنه في اكثر الاحيان، واره يرى الاشخاص ولا يرى التفاصيل، او يراقب من ناحية واحدة .

وكانني به قد قرأ القصص الشعبية كثيراً فصار يصدق كل شيء . ، وكانني به ايضاً قد قرأ لقصصيين عديدين فأمن ايضاً بالعنف حتى في الحب فصور لنا كانا تول فرانس تلذذ المعشوقة باللكم والضرب . فصور لنا وردة التي لم تحصن فرجها من صراع ليلي مع جندي تركي وتلاوص زينة لتأخذ درساً . . . ولكن هذه المشاهد العديدة التي تعج بها الرغبة يبدو بعضها غير متماسك والسبب طمع توفيق بالاكثار منها . قد يبدو المشهد جميلاً بمجد ذاته ولكنه لا يمتزج بما حوله . يجعل من سامي عاصم بطلاً لا يهاب المنية ثم يعمل عمل الاطفال اذ يلحس اصبعه حين يلمسها كرجاج السحان .

لقد اكثر من استعمال حكايات الاصوات فمهر عنها مكرراً فجاءت كقول الراوي العامي : ومشينا : دي دي دي حتى وصلنا الى البيت وهناك : دق دق دق وفتح الباب الخ . ان كثيرين من الروائيين يستعملون الفاظاً كهذه ولكن هذا الاكثر غير مستحسن .

قد نكون نظرنا الى رواية الاستاذ عواد القيمة بالاكبار والاعجاب لو كانت لمؤلف عالمي فلا نتناولها بما زعمنا، فتوفيق ان لم يصب في كل شيء، وهذا محال، فقد أصاب في أشياء كثيرة . ولكن توسيع البيكار حتى في البيوت مضر فيعجز المرء عن تأنيثها وربما عن تكتيسها . فهو لو حصر روايته في مدى اضيق وعمل على تنقية اجوائها من كل ميكروب لجاءت اوfer عافية وصحة . انها في كل حال خطوة واسعة في طريق الفن، وقد خلقت اجواء غير اجوائنا المألوفة وعللتنا بسمو القصة عندنا .

بقي ان نقول كلمة في (نهايات) رواية توفيق وقصصه فهي بارعة حقاً . انها اشبه بقطعة القلم او انطباق الفخ، كما قال سنت بف . فنهاية الرغبة في منتهى الروعة الفنية . فقول زينة وهي تشد يدها على الذخيرة : (لا شيء) رائع جداً، بل تحته معنى لا توضحه الصفحات العديدة .

اما ابتداءاته فدون نهاياته روعة . ان اكثر اقصيصه في الصبي الاعرج، وقيص الصوف مبدوءة (بكان) حتى تكاد تحسب كل القصص واحدة لولا العناوين . ليته ينتبه الى هذا ففيه ما فيه من الدوافع وخصوصاً الاقصوصة، فان الزخم يجب ان يرافق اولى خطواتها . اما في الرغبة فقد دخل من الشباك لا من الباب كالعادة . وبعد ففي الرغبة نقيضان : اولها خير من آخرها فنياً، وآخرها خير من اولها بيانياً، وفي عمومها اذا درست كل مشهد وكل شخص على حدة فزت بالفن الجميل، واعجبت بهذا الكاتب الذي يحدق التصوير ويحمل كل همه في تعزيز الخطوط المميزة . اما العلاقات بين مخلوقاته ودنياهم فقائرة لا ترتاح اليها ارتياحك الى كل منهم على حدة .

وقصارى القول ان رغبناً واحداً لا يشبع امة . فليخرج توفيق من فرنه الذهبي ما استطاع من ارغفة، ولا ينس ابدأ ذلك الكعك الذي قامت عليه شهرته .
بارك الله في عمره وزاد نشاطه الادبي .
عاشت الشباب .

حول القصة والقصصيين

فصل تقي الدين العسر

١

تعبت، والله، من عرض عقلي على الناس، واريد أن أستريح فلا اقدر . كلما بردت همتي ينكرني شي . لا ادري ما هو، وهكذا لا أقف ولا الطريق تنتهي . ان لذات الفتى عندي غير التي لطرفة، واشهاهن الى قلبي مذاكرة ابناء الضاد، ومذاكرة الرجال تلقيح لألبابها . كانت النصيحة يجمل اما اليوم فنؤديها كالأمانة ولا طماعة لنا بشي، ما نبتغي الا وجه الفن الكريم، وتناسي ما يمر على رأسنا من هموم تهد الجيال .

اما اولئك الذين يتشقون منا بكلام مثل وجوههم فلسنا نبالي بهم، انهم كالجباري ليس لها شيء الا سلاحها المعهود . . . فني جوفها خزانة لها فيها رجع معد كما لهؤلاء . في رسائلهم العنبرية ! قال جدنا الجاحظ : ربما رأى الحرباء انساناً فتوعدده ونفخ وتطاول له حتى ربما فرغ منه من لم يعرفه وليس عنده خير ولا شر .

اذن فلتدرك الجباري البلهاء، ولينفخ الحرباء حتى ينشق، فنحن في طريقنا ماضون وموعدنا الساعة . كان أخرى هؤلاء . أن يقاتشونا، او يتحفونا بنفقة من آيات صاحبهم هذا، لنذوق الكوثر ونصلي لربه وننحر . لماذا يحبون لغير سبب ؟ لا ادري . وما ضرهم لو جاؤوا الى كلمة سواء ؟ لا اعلم . ان تكوين الادب كشروع القرش، ومثلما يربو المال يجمع دينار الى دينار هكذا تتكون ثروتنا الادبية . فالنقد اذن واجب مقدس لاننا نربأ بجزائرتنا الادبية ان تحشى بالزئوف،

ولكن من تحدث ؟ انهم صم بكم عمي ان مدحت غيرهم حسبوك تسبهم ، وكلما صدقتهم النصح تفتحت حناجرهم كالقبور وراحوا يفرضونك .

خبرنا مار بطرس - والمهددة على التوراة - ان الله حلف لنبيه داود بقسم ، فهل يصدقنا هؤلاء . ان حلفنا لهم بين النابغة لرب القبة ؟ أصدقون ان قلنا لهم ليس في الدنيا بشري يكون كلامه برمته كلمات مأثورة ، واننا ان مدحنا واحداً غير مسيحي فلا يعني اننا نذم من يعيشون فينا مشية الفحل . وأخيراً ماذا يتوهم هؤلاء ، أخلقهم الله وكسر القالب ؟ اذا كان المسيحي يترجى قيامة الموتى في الدهر الآتي أفنكفر نحن ان ترجينا جيلاً جديداً يكون خيراً منا ومنهم ؟ وهب ان الله قطع النسل فما تكون العاقبة ؟ ألا نبكي كالنبي الكريم ونقول : اننا عليك يا ابراهيم لحزونون .

فنصيحتي لهؤلاء . أن يضعوا ألسنتهم في موضع دافئ ويسكتوا فذاك خير وابقى . ولو درى صاحب البريد بما يشحن الينا من مسك وعنبر ، لتقرز وصام شهراً بلا أجر .

خبرنا احد النقاد ان الشاعر بودليز خاف على صيته الداوي من قصيدة ممها لما رمه ، ولكنه كان ضالاً فما عوق هذا ذاك . فمن مبلغ عنا بعض الرؤوس العصفورية ، ان تاريخ الادب ارحب صدرأ من معاوية .



كان اول مقال كتبته في النقد سنة ١٩٣٤ (١٧ ك ١) درست فيه بعض قصص الاستاذ كرم ملحم كرم . وبعد صيام ثمانية أشهر شرعت أفقص كالجراد ، وارسل هذا النسل المبارك طياراً وزحافاً فقال نفر : اكثرت يا صاح ، من عيث وافساد ، وقالت فئة : انه على سفر لا بد من زاد . . . وقال فريق . . . سلمت يده ، أتلّف هشياً ما فيه خير . لست أوّرخ ولكنني اريد الوصول بك الى كتاب بعث به الي الاستاذ خليل تقي الدين عند ظهور هذا النوء ، واليك منه ما يعينيك :

(فتقبل مني ايها الصديق الفاضل هذه التهنئة، واذا كان لي ان اتنى عليك شيئاً فهو ان لا تحجم بعد ان اقدمت، وان تقول ما في نفسك وكل ما في نفسك لقوم يعقلون، والسلام عليك من أخيك)

خليل قبي الربيع

١٢ آب سنة ١٩٣٤ .

وفي غرة عام ١٩٣٧ اخرجت جريدة المكشوف كتاب عشر قصص للشيخ خليل فوجهه الي (للغربة) ولكنني لم اقل كلمتي فيه بل قعدت له ، وحدي ، قعدة امرئ القيس وصحبته بين العذيب وضارج ... انأمل .

حقاً انها موجة كطوفان امرئ القيس الشهير، ستحوم بعده مكايي الجوار ... وتظهر انابيش العنصل ...

والآن ماذا يحتاج الفرس الاصيل، وحجته في رقبته، كما يقولون . فالكتاب نقد كما نقرأ في كشف دار المكشوف، ومتى نفقت البضاعة قام الدليل على جودتها، فالنقاد حجة كدامغة جري . ولكن يضل ضللاً كبيراً من يستنتج اننا زمينا سلاحنا . فالفرس، وان كان الهراق جده ، لا يسلم من هتات ولو هتات ، او شيات سعد ونحس على الاقل . واننا نكاشف الاستاذ تقي الدين بنيتنا . قد نوينا ان نكون نخالين لا مغربلين، فالغرابيل للزوان والشيلم، اما الدقيق فما يأخذ منه الغربال لا حقاً ولا باطلاً . وليثق الاستاذ اننا سنقول له : (ما في نفسنا وكل ما في نفسنا) . فليس الغش من شأننا، واننا متمسكون وفوق المتأسكين، ولن نتهافت ابداً . اما شعارنا مع هذا الرف الجديد، الذي لا يطلب الحسنة بالدبوس كقرومنا العتاق، فكما قال زياد : لين في غير ضعف وشدة في غير عنف .

للشجرة الشائخة الفأس، فني حدها رجوع الشيخ الى صباه ، اما الفروخ فتقوم برفق ولباقة لتعتدل، ولا يلين اذا قومته الحطب . والأواني الطريقة تساس بنظنة ونباهة وتوقى حتى من مروحة سيلي بريدوم ... وجهاز العرائس يسان في الحزان ذات المرايا، اما صرر ام الحليس الشهيرة فتعبر في صندوقها الدهري ...

امسيت لا اميل الى الالفاظ الداوية كالعاب قيصر عامر، فتلك أتركها لكل
مرقعان فرقاع، وسوف لا تسمع مني هذه الالفاظ المفلطحة مثل بيسيكولوجيا
وشقيقاتها، وكل بنيات هذه العائلة الشريفة التي يحدثنا عنها كثير من الناس وقد
لا يعرف أكثرهم عنها الا ما عرفنا عن عاد وثمود... لست اعتقد ان الاديب
يتعلم هذا كالتجو والصرف، وانا اجد أكثر من ثلاث مرات اخضاع الادب
للعلم، ففي ايام المغفور لهم راسين وشكسبير وعمر والجاحظ والمتنبي لم تكن هذه
المسميات، وفي ادبهم منها شيء كثير. فالاديب الموهوب يعرفها ولا يدري انه
عرفها. اما اذا كان غير مؤزر بطبيعة خصبة فهو لن يفلح ابداً، ولو تعلم ذلك
العمر كله.

واحدة فقط اظنها تكفيني شرك ايها القارئ العزيز! بجاتك قل لي من علم
الاستاذ الجليل عنتر بن شداد علم النفس! ادركايم ام فرويد، أعن شيوخ
السريرين أخذه ام عن جهابذة اكسفورد، اما حلل لنا نفس بهيم كان يركبه
ليخلب لب علة فلا تغدق دونه القناع؟ وهاك النابغة الذبياني اما حلل لنا في
تلك المسجدية التي حبا بها غسان، نفس (عصائب طير تهدي بعصائب) فمن علمه
ذلك يا ترى؟ واخيراً ماذا تقول بوصفه نفس المتجردة:

نظرت اليك بحاجة لم تقضها نظر السقيم الى وجوه العود
تباركت ايها الفن، وجل جلالك. فاندع هذه الفقايع التي يتسطقون بها في
أدبنا منها كثير، ولكنها ومضات. فالعرب لا يحبون هذا (الادب المسقط)
الذي يصطنعه جمهرة كتاب اوربا لانفسهم. فهم يرون عجالي، وأدبهم كحياتهم
تلك، مختصر وجيز كلبسهم ومأكلاتهم، انهم كالنحلة تأخذ كثيراً وتترك أكثر.
شمارهم اللبيب من الاشارة يفهم.

قال احد الكتاب الفرنسيين: يريد بعض الكتاب الثوريين ان يجعلوا الادب
خادماً لبعض القضايا، ويحاولون جعله بواباً على بعض القلاع الحكومية مع ان مهنة
الادب استقلال الروح.

فالاديب مستقل يستنير بالعلم وكل المعارف، بيد انه لا يتعكز عليها . هو حر أن يبدي نفسه من خلال مرايا بلورية كالتي في قاعة فرسايل، او من سجنجل امرى القيس، او ماوية طرفة، او من خلال قرارة كالدرهم، كما فعل سيدنا الحطيثة اذ حباننا بوصف وجهه البهي ... قال فولتير : كل اصناف الادب جيدة الا الملل المضجر، اما تولستوي فعدها هكذا : كل الاصناف جيدة ما عدا التي لا تفهم، او التي لا تؤدي الغرض .

أظهر لنا العرب انفسهم من خلال اطار القصيدة الضيق - ليتني أقول البرواز فهي تؤدي المعنى اكثر - وظل الشعر كبير أناس في بجاد مزمل حتى أتى الدهر باعجوبته الجاحظ العظيم فعناه من مشاكل الحياة ما يعنيننا نحن اليوم، واحل النثر في مرتبة الشعر، ثم سرت روحه في ظهور الحلق خلف لنا نسلًا مباركًا كالاصفهانى والهمداني والمعري والشدياق .

وما أغنانا عن رأي العلامة مسينيون الذي نفحننا به الشيخ خليل تقي الدين لنعلم ان مظهر القصة ابتداءً عندنا في المقامات، فنحن نحس ونذكر ان بعض مقامات البديع قصص بالمعنى الفني اليوم، لا مظهرًا من مظاهرها كما قال ذاك الفاضل : فالمقامة المضيرية والاصفهانية والبغدادية والمكفوفية والموصلية والنهيديّة والحمرية والبشرية يقصر عنها كثير من كتاب اوربا اليوم . صدقني ان قلت لك ان زعيم القصة غي دي موبسان لم يكتب مثل المضيرية . وان صح زعمي، ولا ريب فيه، كنا السابقين الى خلق القصة Nouvelle كما خلقنا الرواية . قد عرفنا هذه الالوان الادبية يوم كان غيرانا يغط في نوم ثقيل . ثم جاءت نوبتهم فنشأت القصة عندهم، كما نشأت عندنا : حكايات، فاساطير، قصص خرافية، فروايات فروسية الخ . ثم هذه القصة التي في المقامات . لم نقف حتى كانت الدولة علينا فانحلت عرى الملك وعفا ادب الطلول، ولم يبق فيها لسائل رد . وظلت آثار السلف ملهى للخلف حتى كانت القرون الاخيرة فسبقنا الذين تقدموا الطغرائي قبلنا ...

كتبنا شيئاً عن القصة سابقاً فليراجع ان كان فيه خير . اما الذي يعوزنا اليوم فهو القصص المتنوعة، اما تاريخ القصة فالمتمشرون انفسهم لا ينكرون ان في اساطير لافونتين عرقاً من كليله ودمنة، وان في مغامرات روبنصن كروزي ملامح قوية من سندبادنا . فليست القصة في الادب بنت امس، ولكنها مطلقة طريفة فقرر فضيعة وضعينا الابن . . . والحمد لله على تلاقيها بادبائنا في فجر هذا القرن، وان قلنا جبران ابوها فما نقول الا الحق .

وانتج الادباء قصصاً فكان بعضها دبلّة على القلب، وخرجت من تحت اقلام آخرين كالدينار المصروف بالقروش وانصاف القروش . واصدرها جماعة كالصخرة الملساء، او كدب لافونتين . . . ومن غرائب عصرنا الادبي ان كلاً يخطط الادب دارات ومنازل على هواه، ولو من الله عليه ببعض ما من على الحجاج لحمل الكتاب على الأدهم . . . فهذا يؤثر شاعراً فيقدمه على كل من قال شعراً، لان جيد شعره كركيك ذاك - كما فعل العقاد مثلاً - وهذا يدافع عن نول لانه يحوك على مثله وهلم جراً . وكأني بهذا المرض يعدي والا فكيف سرى اليها من القاهرة، فقال خليل تبي الدين في محاضراته : كيف افهم القصة : (والحادثة في القصة الحديثة ليست إلا عرضاً، اما الجوهر فهو ما يقصد اليه الكاتب من وصف وتصوير) .

ويقول ايضاً في مقدمة عشر قصص : (ولكنني اذا عدت الى نفسي رأيت الحقيقة تنكر هذه الحوادث والعقد والحلول لانها امور متكلفة يجي بها الكاتب ليتلها بها السذج من القراء) .

فان صح ما يقول الاستاذ تكون القصيدة والمقالة قصة لانها تحتوي وصفاً وتصويراً ولماذا يرى خليل الحقيقة تنكر هذه الحوادث والعقد والحلول ؟ أليس في الدنيا حيوات متعددة، منها المعقدة كدنب الخرزون، ومنها الملساء الناعمة كدنب القط . انما الذي ينكر هو التكلف، والابن وهو اعز الخلق يمقت ابوه محضره ان كان

متكلفاً . . . فان شاء خليل هذا شايعته عليه، بل كنت من غلاة شيعته، والا
فانني اكفره كما كفر علياً اصحابه، ولا تحكيم بيننا .

ان رواية ذات عقدة كالانشوطة يبسط فيها كاتبها ما يبسطه الكتاب المصورون،
ويجمل ويدرس ويصور كما يريد الاستاذ تقي الدين لحي أحب الى القارى من
كاتب يعطمط ويعطمط، ويعطينا درهم دبس على قنطار حطب .

في ذلك الزمان، زمان الحمير والبغال، دعي حكيم لمداداة أب مريض، وفي
ذلك الزمان السعيد كان الحكيم يتنازل عن المجيدي اجرة ولا يترك غداه أو عشاءه .
فسأل الابن الحكيم : تريد دجاجة محشوة ام مقلية، فجاوبه الحكيم : المرحوم
جدك كان يعمل الثنتين . . . فرأني انا كذلك الحكيم الذكي، أي أن نعمل الثنتين،
وان نكون بين بين، فلا نسمي الصورة قصة، ولا نلبس (القبع الاخني) او نحول
الناس ممكاً يفر من المقلّي ويحبب : نعم نعم، وينشد شعراً .

ليس في الادب الفرنسي كتاب يعلم الروائي كيف يعمل قصته، وان كان هناك
شيء . فأراء مبثوثة هنا وهناك وخطرات لهذا وذاك، فكما لا يعلم الانسان كيف
يصف الحديث كذلك لا يعلمونه كيف يكتب قصة يسوق فيها ابطاله ويخلق
اشخاصه . وقد خبرت ان في الادب الانكليزي شيئاً من هذا فلم استغرب، فعند
الانكليز قوانين وتقاليد لكل شيء .

وجملة القول انني لا اسلم ان القصة بلا قصة تكون قصة - عفواً يا سيدي
السكاكي عن هذا التكرار - ولو اثبت ذلك خليل تقي الدين وأيده ألف جهبذ
فرنجي وكان بعضهم لبعض ظهيراً . ولا يهمني ان كان الفن اليوم لا يتشدد في
ذلك، فأنا أعلم علم اليقين ان اللحم المسروق طعام أمراً من اللحم المقلّي بالسمن
الصريح والمتبل بالبهار والفلفل، ولكن هذا القياس البطني لا يثني عن رأيي بل
يحملني على التعصب له، فأنا لا استطيع الطعام بلا قلية . . .

لست ادري لماذا قال خليل هذا، فالعقاد معذور ان أثر ابن الرومي، لان

جيده كاردا ما عند شاعره كيور كيس، أما خليل فحجوج لان في كل قصة من قصه قصة، - عدنا ياسكاكي - ونحن لا نطلب اكثر . وكما قال بول بورجيه سيد الادب الممخط، بمناسبة كلامه عن بلزاك : لا يقدر العالم من تجربة واحدة ان يقر ناموساً عاماً، وكذلك نقول نحن لخليل : انه لا يستطيع، وهو لم يكتب الا تسع قصص، ان يضع قانوناً صارماً للقصة والقصصين . فتحديد القصة عندي كالاسم الواقع بعد لاسيا، حركه كما تشاء . ولا حرج عليك ان احسنت الاستعمال . ولو كانت الحقيقة تنكر الحوادث والعقد والحلول لما امتن الله على عبده ورسوله بسورة يوسف دون غيرها اذ اوحى اليه : نحن نقص عليك احسن القصص .

دع الناس يقصوا ما شاؤوا شرط ان يقصوا، فرب حالك فتتك بقصته وهو لا يقص شيئاً، ورب آخر شوه سرده اطلي الاخبار، وأغرب الحوادث، فلا يفكهمك حديثه فتكون حكايته كالدملة في ذلك الموضع . . .

لا يعنيني كيف تكتب القصة ولا في أي موضوع كتبت، ولا يهمني أبضير المتكلم ام المخاطب، لا يعنيني الا الشخوص فإن كان فيها ما لا أنساه فهناك القصة الرائعة ولو خلت من العقد والحلول، كصاحب مضيرة الهمداني، ولست انسى قط ابن سوار قاضي الجاحظ، ولا نعم ابن ابي ربيعة، ولا فاريابية الشدياق، ولا اعرابي الاصفهاني، حتى ولا ذاك الذي صرخ : يا حجاج، الكلام الذي بيني وبينك اريد ان يبقى مكتوماً . كل هذه ليست قصصاً مقصودة على هندازة اليوم، ولكنها قصص كيفما دارت بها الحال . وثمت قصص ليس هناك اعقد منها تحلب لبك حتى تحال انك تواجه ابطالها، اذ ينقلك كاتبها الى معترك ابطاله .

نحن الآن في صدد القصة الصغيرة التي انما خلقت لتأثي حياة هذا العصر المستعجلة، فهي القهرمان الذي يموت من لا وقت لهم ولا جلد، وكما اظهر القدماء انفسهم بالقصيدة ففصلوها على قدمهم ثم بالمقالة، كذلك سيظهر اديب اليوم نفسه من خلال القصة، والقصة رسالة مستعجلة يؤذيها الاديب المتين الى قرائه، فهي

اليوم نقل القراء الذي لا يعوق مستعجلاً ، كالسندوش العاشي حاجته . والادب على اختلاف اشكاله كالنفواكه تختلف شكلاً وطعماً وتتفق عنصراً . والفن وحده يحبي الأثر مهما كان نوعه، وحيث لا فن لا حياة ولا بقاء . فرب مقال أخرجه اديب كامل ذوقه كان قصة بعينها، وربت قصة جاءت كالمقالة النيشة، اشخاصها موتى، وبروازها ابرش لا يبرز شيئاً منها، ومشاهدها ممحوة كصورة ابن بلدنا ادونيس في الغينة .

قال خليل : عشر قصص من صميم الحياة . يا ويلى على الحياة وويلي منها ، اما كل شيء . من صميمها، فكما يخلق الخلاق كل شيء . هكذا يخلق الروائي مخلوقاته المختلفة وكلها عجيبة اذا احسن تكوينها . ان حكاية خلقنا معروفة ، ثابتة لا يشك فيها عقل . اخذ الله تراباً ونفخ فيه فكننا نحن . ومننا اليوم ملكات الجمال، وكواكب هليود، ومنهن بنت شقيق سيدنا البابا كما قرأت ان لم تكن الذاكرة هذه المرة . فأني شيء . احط واخس من التراب، ومع ذلك استطاع ربنا القادر على كل شيء . ان يخلق من الطين خالفاً آخر .

فبقدر ما في صدورنا من حرارة ايمان وما في رثتنا من هواء سخن يجمد الطين وتشيع الحياة ... نحن لا نزيد القصة كالتنور المسجور ، ولا نرضاها فرناً هامداً لا يصلح الا للغاتو . فالقصة هي الخلق بعينه والكاتب خلاق عجيب يخلد ابطاله كالذين دوخوا الارض وقد يكونون امكن منهم . ان للكاتب في خلقه شؤوناً .

قال مارمه : هذه مشاهد لا رؤى . فالقصة مشاهد ورؤى، وهي قبل كل شيء . وبعد كل شيء . حكي كما قلنا . فمن الناس من يحلو حديثه ومنهم من يفلتق . ففن القصة لا يعلم ولكنه يوجد على الممارسة والاطلاع اما صاحبها فمخلوق كالشاعر . وما هؤلاء القصصيون الفرنج غير شعراء، قالوا الشعر او لا ثم انصرفوا عنه كما فعل المنفلوطي فخر الاثنين .

ادرك العرب حتى الاعراب منهم : ان القصصي مخلوق كما نستدل من كلام

الجاحظ قال : وتكلم يزيد بن أبان الرقاشي ، ثم تكلم الحسن ، واعرابيان
حاضران فقال أحدهما لصاحبه : كيف رأيت الرجلين ، قال : أما الأول فقاصٌ
مجيد ، وأما الآخر فعربيٌ محكك .

وإذا قلبت الصفحة ١١٥ من البيان والتبيين سمعت الجاحظ يقول : وقد يكون
الرجل له طبيعة في الحساب وليس له طبيعة في الكلام ... ويكون له طبيعة في
الحداء أو في التعبير ، أو في القراءة بالالحان ، وليس له طبيعة في الغناء ، وإن كانت
هذه الأنواع كلها ترجع إلى تأليف اللحن ... ويكون له طبيعة في قصة الراعي
ولا يكون له طبيعة في القصبتين المضمومتين ... ومثل هذا كثير جداً .

أظنك أدركت القصد وهذا كاف . إن عصراً صار حريه وممنه نباتين
لحري بالساهرين فيه لا يناموا لنألاً يأتيهم السارق بغتة ... عليهم أن يبحثوا
ولا يملوا ، فالناقد كالأثري ينبش القناطر المقنطرة من التراب ليعثر على تمثال
أكله الصدا .

قال جيليان بندا : أريد أن يبحثوا كتاباتي كأنهم وجدوها في قنينة ملقاة
في البحر . وكذلك تفعل إن شا. الله .

وما علي ان خلقتني الله مارون عبود ولم يخلقني انطونيوس البادواني المالك سعيداً في بيعة الله . اما المعجزة التي حسدته عليها واشتهيت ان يتفضل الله علي باختها فاصير عديله، فهي ان هذا الطوباوي كان يظهر بساعة واحدة في مدينتين مختلفتين كبيروت وحلب، مثلاً .

ان الله يعطي اللحم للأردد، فما احوجني انا الى هذه المعجزة لاكون بعاليه وعين كفاح في وقت معاً، فاتناول الكتاب الذي اريده من هنا ومن هناك . لذينة هذه الحالة وألذ منها ان يخطفني ملاك الرب كما خطف فيلبوس بعد تعميده الحصي وزير ملكة الحبشة، عند غزاة . فالملاك أسرع من طائرات اليوم، وظهره ناعم لين . . . بطرفة عين زروح ونحيي . والحبر لما ينشف . . .

ولكن ما لنا وللتمني فليس لنا الحيرة من امرنا، ما بيدنا ملكوت كل شي . فليبر القلم لموضوعه كقينة طرفة الشهيرة . . . يداني تاريخ الادب العالمي وخصوصاً تاريخ القصة على ان عقلية البشر هي هي . يتغير العرض اما الجوهر فلا يس، وما زاه اليوم كاملاً ستأتي أجيال تهزأ به، ولكننا نعمل ولا نبالي، قد وجدنا وما يليق بنا ان نتواري ولا نترك أثراً .

إن الذرية هي جنس غريب عنا لا يعترف بحميلنا، ولا يهيمه أن يرضينا، بل كثيراً ما يزعمنا . فكما فعلت بيت أبي وجدي سيفعل اولادي ببיתי . يخططونه على هواهم ونماذجهم الحديثة، وهذه سنة الكون .

ورأيت ايضاً ان الادباء، منذ البدء الى اليوم، سلاسل مختلفة، يتعارفون ولا يدرون . ورأيت ايضاً ان الجديد يحاول أن يعثي على القديم، وتلك غريزة دفتها الطبيعة في تلافيف ادمعتنا لتدفعنا الى المثل الاعلى . والذي عندي ان كتاب ذلك

الزمان غير ملومين لانهم فاصلوا ثيابهم على هندازة عصرهم، بل هم حريون بالعدر ان لم يستحقوا التعظيم كالذين غيروها باحسن منها .

لا تتعجب اذا قلت لك ان تاريخ القصة هو تاريخ الآداب العالمية، واننا اليوم نسلك مسلك كتابها، اما المفكرون فيتوقعون، دائماً، لوناً جديداً . فتي يخلق هذا . . . واين، ان علم الساعة عند الله .

اننا ننتظر، أما الان فلنبداً بقصص خليل العشر . فيهن واحدة وهي الاخيرة لمكسيم غوركي، وأرى المؤلف حشرها في آخر كتابه كالمحضور بالآ، لتقوم برهاناً على قلة اكتراث قصصي العصر (للحوادث، والعقد، والحلول) . فاذا طرحنا هذه الواحدة بقي تحليل تسع، منهن خمس مسرحهن الشوف، وان سمينا البعض باسم الكل كما فعل مشايخ النحور قلنا : بعقلين . واليك اسماءهن : ندا، الارض، فارس الشامي، ذكرى الهوى الاول، طريق الوجيه، بعد العرس . وهناك ثلاثة مسرحهن بيروت : في مهب الغرام، جسيم امرأة، ساره العانس . وواحدة فقط مسرحها خليل تقي الدين، وهي صاحبي الذي مات .

مدار هذه القصص - عدا طريق الوجيه - على ذلك القطب الذي لا يبريه الدهر . . . فالحب هو العقدة الابدية الازلية التي لا يحلها ملك الموت الذي وُكِّل بنا .

في قصص خليل شعر كثير - لا اعني المنظوم - والشعر عنصر خطير في هذا النوع من القصص شرط ان لا يطغى فيكون الفن من المفرقين . . . وفي قصص خليل حياة، والحياة عنصر اولي في كل قصة كما قال احد شعراء الفرنسيين :

« Là où la vie est le plus la vie, sur les lèvres des hommes » .

فالحقيقة والخيال مجتمعان في هذه القصص . نقرأ وصفه لغروب بعقلين - بيت العقال عند علماء السريانية والجنة المعلقة في نظري - فيتخيل لنا اننا نراه ونسمعه .

عند خليل كلمات غير هرمة، وبين الفاظه تناسق وتآلف، كأننا الشيخ يزوجهن عن حب صحيح ليس كزواج ياممين في (بعد العرس) ولا كفارس الشامي . اما

الانشاء المصنع فقليل في هذا الاثر، فعذارى خليل لا يتبرجن تبرج الجاهلية الاولى.

اساس هذه القصص وضعي، اما تفصيلاتها فتمثل شخوصاً حقيقية، ولكنه قد يؤلف الشخصية من عدة اشخاص، واكثر الشخوص ظاهر ناتي كياممين البريئة، وزوجها المري. وسارة المقهورة. وبعضها يظهر بغتة ثم تختفي علاماته المميزة، وبعضها تظهر رويداً رويداً حتى تكتمل اشد كمال مثل فؤاد (في مهب الغرام) اما العنصر المسيطر على هذه الكائنات كلها فهو هزم خالقها بها. انه ساخر كالتقدير.

عرفنا خليل باشخاصه في مقدمة كتابه بقوله: (وفي وسعي ان اضع على جبين كل منهم اسماً يعرفه الناس) فهو اذن شاهد عياني كما قال تين عن ماريه. وما هذا بعيب فعلينا ان نلاحظ بدقة عظيمة لنكتشف ما لم ير، كما قال فلوبيير.

ورحت اقلب قصص خليل تي الدين رأساً على عقب فرايت التبدل في المطلع مرعياً في اكثرها، اما خطته فواحدة تقريباً. يدخل موضوعه، دائماً، من اوله، فكانه يحفظ جيداً: واتوا البيوت من ابوابها. بيد ان هذا التغيير هو الطعم الذي يتصيد به الكاتب قراءه. اما التنوع في نهاية قصصه - اعني الحوادث لا الخاتقات الفنية - فحسنة. لكل قصة نهاية تختلف عن آخرها، وهذا شرط لاقبال القراء على الكاتب.

اشخاص تي الدين مختلفون، وان لم يكونوا اربعين بالضبط كما قال موبسان لبورجه. انهم يروحون ويحيثون على قدر حفظهم من القوة والنشاط. والذي لا يشك عاقل فيه فهو ان شخوصنا كأبنائنا منهم المتحرك الورش، ومنهم الجامد الهادي ومنهم البين بين.

نراء الارض

عنوانها اكبر منها، بطلها سعيد وهو شاب يتوحش في البرية، ولولا بنت عمه خيزبان عروسه العتيقة لا يدخل الضيقة. ونعم الاسم خيزبان ففيه لون محلي صارخ، وهو خير ما ينتهي لقصة ابطالها جذعان.

تلسع سعيد حية فيقتلها بمداسه وينجو من ممها بمصه ، ولا غرابة في ما فعل
فهذا معروف عندنا، وسم الافاعي لا يؤذي الغنم والمعدة السليمين . قال الانجيل
المقدس : يشربون سماً ناقماً ولا يؤذيهم . فلذغت بولس رسوله حية في مليطة
فرماها بالنار ولم يصب بأذى فأمن البرابرة بسيدته يسوع المسيح . الحمد لله كان
سعيد سليماً كما سمي العرب الملدوغ تفاؤلاً .

وشأت خيزبان فهجر سعيد عززاله واستقر في الضيعة، ثم اتت ساعة الزواج
فوصف لنا المؤلف عادة المحيط في الدعوة الى العرس وصفاً متحرراً . ثم دنت
ساعة (قيم الجرن) فيجامل معروف سعيداً، وهؤلاء رواسيم في مثل هذه المواقف
كالطقوس والمناهج الحكومية لا يخرمون منها حرفاً .

وبعد اللتيا والتي يفوز معروف ويقصر سعيد فينكمد هذا بعد الكسرة،
فيعيش عيشة غير راضية الى حين، ثم يطلق الضيعة ويعود سيرته الاولى .

ان تلخيص القصة تشويه لها . فالفن في التفريق لا في الجملة . اما العيب الذي
بدا لي من هذه القصة فهو ان تصوير بعض عاداتنا الاجتماعية يأتي متكلفاً كقوله :
(ثم جاءته بابر يق الفخار فبرد بمانه عطشه ومسح فم بطرف كفه) ثم قوله : (وهو زعيم
شباب القرية)، فهل حقوق كلمة (شيخ) محفوظة !! ثم هذا الذي يصفه خليل انه
(ليس للتفكير كبير شأن في حياته بل هو مجموعة اعصاب تعمل بالفطرة وهو اقرب
الى ان يكون آلة منه ان يكون رجلاً يعقل ويفكر) كيف يجيب بنت عمه :
(لقد زلت بي القدم وأنا منحدر عن صخرة عالية فتلقيت الارض بيسراي وأصبت
بجندش بسيط) .

فمثل هذا القدم لا يقول اكثر من وقعت . وهي لاثقة جداً به وبنا ناهيك
ان قد وحدها لا تأتي في كلامهم فكيف بها مع اللام !! ولماذا نقوله : يسراي،
والقرآن الكريم قال : عن يمين وشمال . وهذا حين عند قوله لمعروف : أنت له
يا معروف (ص ١٩) .

ويقول المؤلف عن سعيد : (ثم بصق بيده اليمنى وفركها باليسرى) . انهم لا يبصقون ، ولكنهم ينفضون فيها نفخاً يطري الراحة . ان الاستاذ تقي الدين وان يكن ابن بعقلين فهو لا يعرف حركات العوام بدقة ، لانه ليس منهم ، فهو لا يتخاطبهم ولا يعايشهم ، ولا اظنه يحضر عرس الذي يسمح فيه بكلمه بعد الشرب . أما اذا كان من المحسوبين عليه فيزوره بعد حين . فهو ابن محمود بك وبيته برأس الضيعة .

يريد خليل ان يتغلغل في القرية فتعوزه اشياء يدركها ان عمل بنصيحة فلوبيج ، ولكنها وظائفنا تحول دون اعمالنا الفنية . فلنكي نبلغ من درس كل ما يمكن الحصول عليه يجب ان نستسلم اليه بكليتنا ، وان نتزوجه لا ان نخاله ، ففي نداء الارض شي . كثير من الخالة ، اما الزواج المبارك المقرون بالرفاء والبنين (ففي مهب الغرام) وفي (بعد العرس) وفي ... كما سنرى .

وبعد فليس كل حوار نداء الارض غير موفق ، فهناك كلمات تذوب رقة وتمثل الواقع ، وكلها فصاحة وان كانت من الكلام المبتذل ... ونصيحتي لخليل صاحب الانشاء الانيق ان يستشير القاموس طيب الادباء الخاص ، فيسلم من بعض الاملاح التي تصلب الشرايين فلا يقول : التحديق في ابن عمها ، وعصا النوطرة . ولو خرجت العبارة الاخيرة من فم سعيد او احد ابطال الرواية لقلنا معذور ، ولكنها من كلام المؤلف والمؤلف بليغ والحمد لله . فلا يلائم انشاء خليل الناصع ان تقع فيه تمنطق ، ولا (او لم يرسل اليهم نعي من ماتوا من اهله) وفي نعي غني عن يرسل اليهم .

اما تصوير المشاهد والاشخاص فجميل جداً وهذا مجال واسع لخليل وحده ، الآن ، لا يزاحمه فيه قصصي . انه يصور شعباً ، او قطعة من حياة شعب وعاداته التي يعرفها حق المعرفة ، وهذا مهم جداً في الادب يخلد من يكتبه ويحله محله في تاريخه .

ولو لم يعز خليل تقصير سعيد عن رفع الجرن لتركه البرية كان افضل ، فللقارئ مجال واسع ليفكر ويعمل ، فهو لم ينس تلك الحية الملعونة ... وان شاء خليل

ان يعيده الى مراحه فلا يصعب عليه ان يخلق سبباً كما خلق هذا البطل الباسل .
ناهيك ان مناخ بعقلين وعزال سعيد واحد، فكيف تم هذا التفاعل الخطير .

واذا انتقلنا الى (في مهب الغرام) رأيناها تعوم في بحر يجمع بالفن كفرات
الاخلط، خليل يصف فيها من يعرف ومن يرى . فهذا الفؤاد صورة صادقة لكثيرين
وقد ارناهم خليل على مهل فكان يظهر في القصة كما تظهر الصورة البالغة على
الزجاجة تحت يد المصور في الغرفة السوداء . خليل في هذه القصة روائي من الطراز
الاول . وهو لو يشبه ياقه فؤاد الضخمة بركة البعير لا خفه لجاء التشبيه ابرع،
ولكنه اراد ذلك لامر لا يحمله الفنان ... فليكن . لا الحس هذه القصة،
ونصيحتي لمن يهسه الادب والفن ان يقرأها، انها تجري كالنهر الهادي، وفيها
اطوار خسيصة قد تحاماها الشباب المغترون . يذكرني تأليف مكتوب فؤاد بخطبة
رئيس بلدية الفونس دوده في حكايات الاثنين . ويذكرني ايضاً اعتناء فؤاد بالورق
بكلمة ماريمه : وبجهر احسن .

ويظل يقرب خليل هذه الشخصية الغدة في طيجه حتى تنضج نضجاً صالحاً
تشهيه العين قبل القلب . ثم يجمعه بجرمين التي عشقت وهي غير دارية، فيسائلها
عن رسالته تلك فتجيبه : حسبتك تكتب مقالة لجريدة . وكذلك ممت مي كتاب
جبران (النشيد الغنائي) كما ادر كنا في رسائلها اليه .

اما انصراف الفتاة وغضبها (سرّاً) في قاعة سهرة فيها من كل فاكهة
زوجان ... فلا أدري ماذا أقول فيه، ولكن تلك (السيدة المتصاية التي تعرف
معنى الحياة اكثر من جرمين وارتاها الجاهلات الغيبات) أنستني ذلك .
وهكذا عام فؤاد في ذلك الغبيط ... وسبحان مقسم الارزاق . وانعدمت
السيدة المغبوطة في ذات ناسوت فؤاد انعداماً كلياً لا يشبهه الا انعدام (البهائي)
في ذات وحدانية ربه ...

وفق الله خليل تقي الدين الى امثال هذه .

(اما ذكرى الهوى الاول) فهي اقرب الى الصورة منها الى القصة، ولكنها في ميزانهم قصة راجحة فعند اشهر القصصيين مثلها واقل حادثة منها . تذكرنا بتصوراتنا القديمة فهو يرى البحر من بعقلين كما كنا نراه من عين كفاع، ويتوهمه كما توهمناه، فقد كان يعيش في ذلك الزمان السعيد كما نعيش نحن اليوم ... في خيمة ... ولكنها من غار ... غار الحطب لا الاكاليل .

القطعة شعر منشور رائع تصف تأثيرات خليل الصبي بكل شيء . : بالبحر، بالغاب، بالغروب، برنين الاجراس، بموسيقى الغابة، بالظلام، بالانوار، بالرعاة، بالاغاني العامة، بكل ما يبشرنا بان صاحبنا سيكون شيئاً في عالم الوحي والالهام . ثم يعشق المسكين ثوباً وقامةً ومنديلاً، كما كنا نعشق كل ذات خمار، أو فسطاطاً منشوراً على السياج . ويتراءى له انه يتحدثها فيقول لها كلاماً أعلى منه ومنها - طبعاً في ذلك العهد - فمن كان في ذلك العمر لا تأتيه هذه الفصاحة الغراء، ولا يعرف هذه الفلسفة الغرامية، فهي بضاعة عتاق قارحين .

فقله (اتكفي على صدري ودعيني انظر الى عينيك الساحرتين، ولا تتكلمي) مشهد لا يحسن وضعه الا عباقرة الفن . . . ولا سيما انه يليه : (وانسي في هذه الدقيقة العابقة بطيب الهوى كل ما في الوجود ما خلا حبنا . ودعي اناملك تعبت بشعري حتى اذا تعبت استراحت على شفتي) .

وهذه ايضاً حكمة سليمانية يعز نظيرها على غير نشيد الانشاد . . . ولهذا اشك في ان خليل الامس يحسنها، ولكن نيابة خليل عن صاحبه الذي مات جائرة . . . ولا حرج علينا ان وسعنا الدائرة، فكل ما كتبه خليل اصبح يعنيننا . رأيت الاستاذ ذا ولع خاص بالعبث بالشعر، فاعلاً ومفعولاً . لحت هذه الحصلة بشعره اذ خاطب واحدة اسمها (مها) ودعاها لتأتيه قائلاً لها :

والتي برأسك فوق ضلوعي تداعب شعر حبيبي يدي

أما ذات المنديل فتأتي على عادتها إلى العين عند الغروب فتعاود خليل النوبة
فيحترق، ثم يبرد، ويوحى، وينام ملقياً التبعة على أيلول، وأيلول طرفه بالشتاء.
مباول . . .

لقد كانت هذه المرأة كذلك العصفور الغريب الذي رآه مارييه في Arène
de Nimes وكلا الكاتبين لم يظفر بغير الحنية : قريب بعيد . . .

أرى ماء وبني عطش شديد ولكن لا سبيل إلى الورد

وسواء أكانت ذكرى الهوى الأول صورة أو قصة فهي خير ما يكتب في
هذا الغرض . ولو وقف خليل عند (أكبر ظني أنها دمة) لكانت الحاتمة أروع
وأبرع .

فارس الشامي

ملاك القصة شيثان : المحيط، والعالم الذي يعيش فيه . أما المحيط فلا يخلقه المؤلف خلقاً، بل يصفه ويصوره بالوانه وأشكاله ومميزاته . لا يعني قولنا هذا ان يصف كل ما هب ودب فالفنان ينتقي ويكسب الاقدار في الساقية ... ومتى تم له هذا ظهرت القصة كأنها حقيقية . اما الاشخاص فالمؤلف يخلقها . وكذلك اشخاص خليل وان قال : (وفي وسعي ان اضع على جبين كل واحد منهم امماً يعرفه الناس) . ان النواة حقيقية كما قال، أما هذه الجذوع المفتولة والفروع المتطاولة فمن عمل الارض التي اقتبلت النواة فانبتت شجرة اصلها ثابت وفرعها ...

ففارس الشامي وان يك شخصاً معروفاً كغيره من ابطال خليل، فبوتقة الفن صهرته واخرجت لنا منه شخصاً قلما خلت منه ضيعة لبنانية . وهب انه شخص خيالي فالفنان قادر على جعل شخصه تاريخياً، وقد صار .

جميل دخول ساعي البريد الى بعقلين في موكبه الساذج الذي يشبه اثنين الراهب ... فهذه الصورة لا تمحي من مخيلة اللبنانيين بعد ما أكلوا مما عز وهان . كان اللبناني اذا مست كرامته تمرد واى وتمثل بقول ابيه وجده : ما احد يموت من الجوع، حتى كانت الحرب العظمى فالبسهم الله لباس الجوع والخوف، وصار الموت ارخص من الفجل . فكم دفنا بأيدينا من شبان لم يزودهم اباؤهم بدمعة لانهم شغلوا بانفسهم . وفي فارس الشامي يصف المؤلف حالنا بعد تلك الزوبعة فيريك بأي آبهة كان يدخل (البوسطجي) الضيعة . لقد صور المشهد كله ولم ينس الولد الراكب على بغلة ساعي البريد (الفجاء) . وما انتهى شريط الموكب حتى عرض أمامنا معلم الاولاد يقرأ ذلك المكتوب البليغ الذي عقبته فرحة ام فارس بالخمسين انكليزية وجيئة ابنها . ثم يظهر المستر فارس الشامي على الميناء بين

المسلمين عليه بهيئة قميذه منهم، وترينا ما علق باذيله من عادات لم يهضمها حق الهضم فاتحته، واصبح كالغراب يمشي مشية الحجل ... ولا يبلغ البيت حتى تفاجئه الوالدة بجديث أدما مرعي التي اصطفتها له عروساً، فاستغرب فارس الامر جداً كما لا نستغرب نحن هذا العنف اللبق الذي صدم به امه، فالرجل قد تأمرك وعاشر القوم اكثر من اربعين يوماً ... ولكنه تروى بعد ايام ولان وهاكه مرتياً على يدي امه معلناً نزوله عند ارادتها (فتبتسم وتنز رأسها علامة الشك فيما يقول) . ان في هذا البيان الصامت لاكثر من السحر واني أهني* به الاستاذ .

ويتزوج الابن وقوت الام، بعد ايام، وما هذا بغريب الوقوع، ثم يهاجر فارس وتصور زوجته ارملة لم يمت بعلمها . فما اكثر هؤلاء الارامل عندنا، وما اصبرهن على احكام الله ...

لم تعجب بعضهم شخصيات هذه القصة ولكن ليس في اليد حيلة، فكم في الحياة من مخلوقات لا تعجبنا، ولكنها موجودة وما لنا حيلة في اراحة الدنيا منها . اما انا فما على ضرسي مر، كل الاشخاص تعجبني، وقد ارثي للقبح فاهواه كما قال ابن المعتز . ما لي على الموانع شرط غير تقديس الفن . وهذا ما يعمله خليل .

قصة فارس الشامي طبيعية ومقدمتها الطويلة غير غريبة عنها، ومن الطير الهدهد والطاووس والغرائق ... اما هذا الدبوس الذي يشكه فارس في ياقته فما اظنه يمثل حداً، بل نعل الفرس التي تتشرف اليوم بيوتات كريمة في بلادنا برفعها فوق اعاليها لتحل عليها البركة ... ومع كل هذا فلست استغرب فعجائب اميركا اكثر من عجائب القديسة تريز .

ولو قال خليل حين تحدث عن موت الام : (وانطفأت بين يدي ابنها كما تنطفئ الشمعة) ووقف ولم يزد (وقد نفذ منه الزيت) لاسترحنا من مشكلة خطيرة وهي الخلاف على الزيت في دولة الادب ...

أما الحوار فيتمتع أحياناً مع ان لغتنا العامية طبيعة لينة لا تحتاج الا الى عنا. قليل لتصبح فصيحة فبدلاً من قول ام فارس : (تم بنا يا ولدي فقد اجتمع الناس وعليك ان تخرج الى اصحابك فتسليهم) (ص ٦٠) تقول : تم يا ولدي، بل تم يا ابني سل اصحابك - لان يا ولدي تستعمل غالباً للتحسر!! - ثم لا ادري لماذا يقول الاستاذ حلوينة وعنده حلوان، ولماذا يضع المصطبة والغياب بين هلاين وكتاهما فصيحتان . اما اذا كان قد فعل لفتاً للنظر فهو حر . وكلمة الجيب مذكرة فلتبقى كذلك، وان قال بعض المنتظرين ما هذا معناها في كلامهم، قلنا له : وما علينا ان حملنا الكلمة معنى تطيقه ونحن في حاجة اليه ؟!

وأخيراً لو صار امر هذه القصة إلى حُنتها وقطعت قلفتها هذه : (امرأة كانت كل آثامها ان القدر اختارها ليلهو بها ، والويل من القدر المكتوب) . أنا لا اطالب الاستاذ باداء رأيه، ان القارىء اللبيب ادرك هذا، ونحن لا نكتب لغير الالباء . ليست القصة اطروحة لتكون ميداناً لآراء ونظرات مؤلفها كما اراد احدهم . ومن شاء ذلك فما عليه الا ان يكتب رواية فتلك ارحب صدر، أما هنا فعلى القارىء ان يستنتج وما علينا نحن ان نعبر له .

ساره العانس

كتب خليل تقي الدين قصة بطلتها (ساره العانس) المقهورة فطلع علينا العقاد من مصر السعيدة بـ (سارة) اخرى ولكنها فائدة خالعة النبر . فهل من حرج على ان تذكرت بهذه المناسبة قصة اول (سارة) وسردتها لقارىءي خطفاً :

لعل قصة سارة زوجة سيدنا ابراهيم الخليل ابى الآباء اقدم قصة عالمية . والذي يظهر لي انها كانت طيبة كزوجة الفرزدق التي وصفها لابن ليلي . وأين عظمة دارم من عظمة بيت ابينا ابراهيم، فانه جل جلاله تعشى عنده واستراح تحت

الشجرة وغسل رجله . وخاطبه بعد حين في سدوم، وكان بينهما اشياء كثيرة
لا علاقة لها بموضوعي .

ان سارقي هذه كانت (حسنة جداً) كما تقول التوراة، ولما هاجر ابراهيم الى
مصر اصطحبها، واتفقا على ان يقول وتقول (انها اخته فيكون له خير كثير بسببها
وتحميا نفسه من اجلها) (ت، ف ١٢ ع ١٣) فاستحلاها فرعون، جد طه حسين،
فأخذها وعاش سيدنا ابراهيم مطمئناً حتى اعيدت اليه . ولا تظن ان اعادتها كانت
هينة، فالفه الذي وعد خليله ابراهيم مواعيد شتى قامت قيامته وضرب فرعون لاجلها
ضربات كثيرة فانتهبه ودعا ابراهيم وقال له : (لماذا لم تخبرني انها امرأتك، لماذا
قلت هي اختي، خذها واذهب) (ت، ف ١٢ ع ١٨ و ١٩) وهكذا صرفها فرعون
من الخدمة بلا تعويض... ولا تقاعد .

وعاد ابراهيم الى فلسطين ثم انتقل بعد حادثة انتقام الله من سدوم، الى ارض
الجنوب، وهناك ايضاً قال عن سارة انها اخته فأخذها ابيالك ملك جرار، وتداخل
الله في القضية حالاً، فأعاد ابيالك سارة الى زوجها، واعطاه معها - دوتة - غنماً
وبقرأ وعبيداً واماً .

اما سارة الاستاذة تقي الدين ، يا حزني عليها ، فقير نافقة كسارة ابراهيم .
مسكينة هذه البنت، انها لا تحتل ولا تطاق، حملها خالقها - أي الاستاذ -
وجهاً متكرشاً كالجراب العتيق، فضاقت به وها هي منفردة في احد بيوت المروج،
تحرق الناب على الناب وتصرف في سريرها كناقاة النابغة .

لحلل تقي الدين عناية خاصة بمدخل قصته ، فني مطلع كل واحدة منها انشا.
كالمصل المصني الذي وصف به الشعر الزهيري . وصف بيت سارة وصفاً جميلاً
طويلاً مع انه لم يدخله احد من الناس غيرها، وارك سارة المبتلاة بوجه جاحظي،
غارقة على شرفته في احلام اليقظة... حتى اذا اقبل الليل المتطفي بصلبه تذوب

ذوباناً وقوت من الكمد ولا يعلم بها احد ... يبينها المؤلف كما هيأ (فؤاد مهب
الغرام) لفاجعة غريبة الشكل، والامور بتقدماتها .

وبقيت الشقية تازم بيتها حتى فرج الله عليها واتصلت بعائلة مصرية ، غير
اتصال سارتي بفرعون، ثم تصير معلمة لبنت تلك العائلة، ومرغريت جميلة مخطوبة
تنتظر صاحبها ... واتي اميل فتعرف بسارة وكان يتحدثها احياناً فقام في نفسها
ان كل نظرة من نظراته دعوة الى السرير ... واتي ساعة زفاف مرغريت الى
اميل فسبقتها سارة الى الكنيسة واحتلت كرسي العروس احتلالاً انكليزياً، وهي
تظنها اياها، واخيراً جنت المسكينة كما جنت خورية توفيق عواد يوم احد الشعانين .

كل هذا حسن ولا اغراب فيه، وما زلنا نرى مجانين الحب اكثر من المهم
على القلب . اشخاص القصة وحادثتها عادية وما احيائها الا فن خليل فجعل منها
هذه القصة الرائعة . اجاد خليل الدرس والتحليل كل الاجادة، وقد رأى غيوري ان
التحليل ميدان الاستاذ اما انا فاراه يصلح لكل ميدان، وسيعني في قابل بالحوار
وغيره فنرى ابطاله عمالقة، حياة الابطال في كلامهم، وهو الذي ينم عن كل شيء ..

مجموع امرأة

اذكر انني قرأت منذ سنوات قصة بهذا الاسم، وما زلت اذكر موضوعها
جيداً فهي لا تتفق وهذه بشي . غير العنوان . ان هذه القصة جسيم حقاً لا تنقصه
الا شجرة الزقوم ، وقد كانت المرأة فيها كما تعودت ان تكون كل امرأة غير
حصان، جسيماً لنفسها . فدارت عليها الدائرة . القصة عامرة فيها حب شبق حتى
الكلب واقتتال حول حوض سائب لا يذود عنه احد بسلاحه ... احسن
الاستاذ المساق فلم تلتف فيها الساق بالساق ولكن السطر الاخير قد جاء علاوة
عما يطلب الفن، اذ ليس على المؤلف ان يذكرها، كما انه حمل نفسه فوق طاقتها
حين كافها شرح : خائنة زانية (ص ٩٢) .

وهنا لا بد من ذكر بعض مأخذ لغوية طفيفة كقوله : حتى هوم من الناس،
فكلمة من الناس فضول، وهوم وحدها تؤدي الغرض . ثم قوله اشار اميل على
الخدمة، والوجه تعديته بالي، فليس هناك ارشاد بل امر بالعمل . وشراب التوت
المثلج، والمسموع عنهم : المثلوج . ثم في الصلعة وحدها غنى عن القول صلعة رأسه،
وقوله : ملأ حفتته، فالحفنة هي ما يؤخذ لا ما يملأ . وقوله : استروحت رائحة
الفريسة، فراحة زائدة . واخيراً تهربت، فهي غير فصيحة .

سيقول بعضهم ما اثقلك واكثر تعنتك، اما نحن فنجيب : وهو كذلك . ثم
نسأل هل فينا من يشير الى غبار على ثوب كلاس او طحان ؟ ومن مناً لم يتفق له
ان نقضه بظفره اذا رآه على ثوب نظيف أنيق ؟ وهذا شأننا مع خليل .

قال أناتول فرانز في ختام فصل عقده لنقد موبسان : (انني مغبوط لقولي ان
موبسان يكتب بلغة افرنسية حقيقية، ولا اعرف تقريباً اجمل من هذا) ونحن
نقول لصاحبنا الذي افترضناه : ان خليل تقي الدين يكتب بلغة العرب، ولذلك
زويد ان نزههم عن هفوات قد يكون عندنا مثلها واكبر منها .

طربس الوجيه

لماذا احسن ان هذه الرواية واقعية وانني اعرف بطلها، لا ادري . تمثل القصة
صراع الزعماء مع الأودام الطازج - الطازة - وهذا كثير في لبنان بعد افتقار
زعمائه واغتناء عوامه، والناس حيث المال مالوا .

ان حركات سعادة البيك ومن حوله من رجاله لعل اعظم جانب من الفن، ولو
كنت مخرجاً سينمائياً لاخترتها مشهداً . قد لا يتذوقها مثلي كل قارئ، فاذا افعل
لأجمل فيه خمس دقائق كما حل الروح القدس في التلاميذ . لا أراني اغالي اذا
شبهتها بروائع القصص الاجنبية . اقول ولا يؤنخني ضميري انني لم اقرأ احسن منها
عندهم، فاذا قارناها بما يشبهها عند موبسان رأينا الاستاذ يجري معه في هذا الشوط

كأنهما فرسا رهان . وان كنت لا تصدقني فعليك بقراءة قصة Decoré ثم خبرني بعد هذا كيف تجد خليل تقي الدين .

اسمع تهكمه ببيكننا الجليل : (أيعقل أن يضطر البيك غداً الى السير على قدميه من آخر الضيعة حتى بيته لان الفن يقضي بذلك، ولان المهندس لا يستطيع مخالفة ما يقضي به الفن ! ترى اين كان الفن عندما كان اسعد بك يركب حصانه الادهم في الايام الصائفة تحت اشعة الشمس، ويقصد الى مركز المطران ويظل الساعات الطويلة يدافع عن حق (جبلين) في الطريق، أم قضي عليه أن يتعب ويشقى وقدر لرجل غر أحمق كميلان الياس أن ينعم بالطريق تأتيه صاعرة اليه اكراماً لعيني الفن) .

ويجاهد الاستاذ في وصف البيك وهركلته حق الجهاد، ثم يطوفه على الابواب الدينية والمدنية حتى يقفه اخيراً امام الخريطة كالبهلول ويقول له المهندس : (أرني اين يجب ان اضع الطريق لتكون حضرتك راضياً) ! الخلاصة خاب سيدنا البيك والعرض بالله، ووفق خليل فأجهز على هذا البطل وختم قصته احسن ختام .

ان قصة طريق الوجيه وجيهة في عالم الفن كما كان المسيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين .

بعد العرس

كأننا بخليل تقي الدين يفعل بنا كقوله تعالى : وما نزيهم من آية الا هي اكبر من اختها . او كما قال رئيس المتكئين في عرس قانا الجليل : انكم ابقيتم الخمر الجيدة للآخر . فقصة بعد العرس طرفة فنية تتراعى لنا شخوصها ناتئة كأنها قماثيل لا صور بيانية . كل ما فيها طبيعي ينكر عليّ ما انكرت من خليل في نداء الارض، فهو هنا خبير جداً بشؤون القرية، وان كان ينظر دائماً (من فوق) الى ابطاله .

ثلاث نسوان يأتين مع الصبح الى عنبال ليخطبن بنتاً سمعن بجسنها، لعريس محطم

فانز ولكن غني، والمسال ستار العيوب، فتفليح سفارتهن بشروط وتكون ياممين
البريئة كبش المحرقة .

في القصة اشياء كثيرة من درس، وحوار، وتصوير، ولون محلي، وكل ما
يفرضه الفن على الاديب الموهوب، ما ترك الاستاذ شيئاً حتى العصفور الذي فر
عند ما سمع وقع الخطى . . . ولم ينس الحروف المعالوف ولا بعض خرافاتنا كالختلاج
العين اليسنى، والشؤون التقليدية التي يفعلها الشباب بالعريس، ثم عادات ليلة العرس
البيضاء وصباحها الاحمر . . . واخيراً ختام هذه المأساة الذي تنفطر له الصخور .

كل ما في القصة جميل، واني اسأل من يعنيههم الفن ان يطلعوها فهذه قصة
قلما يقعون على مثلها .

صاحب الذي مات

قصة مسرحها خليل تتي الدين، كما قلنا، وهي غريبة عن اخواتها، ولا يقاربها
الا ذكرى الهوى الاول . ذكرتني قصة صاحب خليل الذي مات، اعاضنا الله ببقاء
الحي، مع المرأة التي راودته، يوم لم يكن يعرف قيسة الرزق، بحكاية لموبسان يأتي
فيها رجل الى امرأة ليسألها بعد عشرين سنة ماذا كانت تريد منه في احدى ساعات
بعض التزهات فضحكت وعادت الى المطبخ . . . ويختم خليل قصته هذه بقوله
للك المرأة وقد عتب عليها لانها سكنت اذ رآته غير شيطان كجورير : أنا
يا امرأة رجل مادة وكفاح، أما الفتى الذي تعرفين فقد مات . . . لقد ولد صاحبي
معي ومات، ثم بعث ثانية ويدي اليوم على قلبي وقلبه معاً نخشى عليه ان يموت فلا
يبعث من جديد) .

قلت : لا تحف يا صديقي، عليك بمخائيل نعيمة، ألم يقل في رثائه امين مشرق :
(ليس في الحياة انفصال على الاطلاق، فامين معي من بعد ان جاءني نبأ موته مثلما
كان معي من قبل ذلك النبأ) .

لا شك ان هذه العبارة كفكت دموع شقيقته المفجوعة، وعزت كل اصداقا.
امين . أما عرفوا انه لا يزال مع الاستاذ نعيه مثلما كان ؟ ... فثق انت اذن
ان صاحبك سيظل يبعث من جديد، آمن يا أخي تغلب الموت . ثم ما لنا والاستاذ
نعيه فهو من الطارئين عليكم، وما غلب الموت احد غيركم انتم الدروز .

ان تذكاراتنا هي بقاياتنا الميتة، فكما تتغذى الشجرة باوراقها التي تسقط منها
هكذا نعيش نحن بها، فتصورها عذب والتحدث عنها شهي ... فصاحبي الذي
مات لون ادبي طريف يبشرنا ان كاتبنا المجيد سيخلق في الدرس والتحليل - بضاعة
اليوم الرائجة - وسيكون بذكراً كاملاً ان شاء الله، (في الواحة والديك) تباشير
نهار جميل، أبعد الله غروبه .

اما قصة السجين لغوري فلا تعنيني، وما ارتكب خليل كبيرة بحشرها في
كتابه فقد رأينا ماريمه يفعل ذلك قبله، واظنتني اصبت الهدف حين زعمت انه اتى
بها حجة وبرهاناً .

وبعد فهل اسي . الى احد ان قلت ان عند خليل تقي الدين قصصاً سيكتب
لها العمر الطويل في لوح القدر . ان ابطاله عاديون قلما خرجوا على المثل الاعلى
المعروف . ليس للحكاية عنده المحل الاول، ككثيرين من قصصي اليوم . فإني
هو الفن اذن ؟ ان مواضيع كهذه لا تشيع فيها الحياة الا اذا انتدب لها قلم
فنان، فبيان خليل هو الذي يحياها، ويهون عليه اقتحام هذه الثغور والفجاج، فيلجها
غير هباب كلنا يدخل ندوة المجلس النيابي ...

ان الفن في نظري تعبير بليغ عن حبنا للحياة، وعلى قدر الحب والالهام يكون
تقييدنا لأوابد المشاهد فتجيا الى الابد .

واخيراً ثقي يا صاحبي الذي لم يمت اننا كنا عند ظنك، فاحابيناك ولا داجيناك،
بل قلنا لك ما في نفسنا، وكل ما في نفسنا . وانتقادنا بعض هفوات لا يحول
دون اعجابنا فإلى الامام يا شيخ : انا نبشرك بفلام اسمه يحيى ... انجز (العائد) ...

الباب المرسوم - عمر فاخوري

١

لا ادري، ولست ادري لماذا لا ادري، علة ابطائي في درس الكتب، فبعد عامين لا ينقصان ولا يزيدان وجدتي مسيراً لا خيراً للكتابة عن (الباب المرسوم). طالعته والصف المنتهي باباً باباً لم تخرم منه حرفاً، فكان لهؤلاء القتيان فيه متعة لم احسها عندهم من قبل. كثيراً ما كنت اجأ الى غطسة الاستاذية في اثناء قراءة الكتب الاخرى، فاحض هذا واحث ذاك، اما في هذا المرج الحبيب فني وسع الراعي ان ينال من القطيع ولا يتولى رعيه اسد... كانت تحالط الاستفادة لذة ترقص على قنات الوجه وهذا ابعد مدى يبغيه الكاتب او القارئ من مطالعة كتاب.

اسلوب عمر الفاخوري طريف قوي، وقلماً تجتمع الطرافة والقوة. فالكتاب لذة للقارئ، ولكنها لذة غير مرمية على قارة الطريق. جمال غير وقح، ملثم بهرقة خفيف يزيد الفتنة نعة. فعمراً كوسى يغطي وجهه حين يكلمه الرب... لم يسم كتابه الباب المرسوم عبثاً. يخيل اليك - ان كنت نحويًا - ان ذلك من باب تسمية الكل باسم البعض، كما ممي اشياخنا افعال المقاربة. ولكن لا، فعلى كل شبك ونافذة رصد. يجلس عمر في كل ققم عفاريت ومردة تعجز عن احضارهم عرافة عين دور، مصعدة صمويل لساؤل. يطمر في الطريق الغاماً، ويوزع القنابل، ويمد الاسلاك، وهو يعدو عدو الشنفرى، فيجار فيه قراؤه ويجلسون فريقين في الغميصاء يسألون:

فان يك من جن لأبرح طارقاً وان يك انساً ما كها الانس تفعل

هذه مصيبة بعض الادباء بالكتاب فكيف بالمتأدين ومنهم الذي قال في
المقتطف : (ما هذا كتاب نقد) . كأن كتاب النقد كبطل مكفوفية البديع
لا بد له من أجراس وجلجل وشعلة صوف . . . اذا كنت من ذوي الالباب
والراسخين في العلم فني وسعك ان تدخل هذا الباب الضيق ، وتعود من عند
(الرصد) بالكنوز الثمينة ، والا فابق في عرصات الدار وحسبك رؤية الداخلين
والخارجين . ليست كل العيون تصدق في ادراك الالوان .

قلما تخلو كتابة اديب اصيل من (رصد) كما لا تخلو قرية من اخباره
العجيبة ، فان كنت ممن يخشون الارصاد ولا تطيق الحياة في دنيا السحر والعرافة
فما عليك الا ان تبسل وتعوذ بالبلاهة من شياطين الفن .

في باب عمر المرصود حكايات فيها الغريب وفيها الواقعي ، وفي قراراتها جميعاً
لب يسيل له لعابك ، فكده ذهنك تصل ، او استعن بمن يقرئك بالمبدل . . . والا
فاعلم انك لست من قراء هذا الكاتب العبقري . فلنبداً :

في (الشاعر وابناؤه) حكاية الفتى عمر الفاخوري . ظن عمر الغلام انه سوف
يحدد الشعر العربي يوم نظم ابياتاً معدودة من قصيدته الاولى . اعجب بها اعجاب
الأم (بطرفتها) يوم المولد وبعده ، ولكن الايام نكرت تلك الملامح وبدلت السياء
فراح عمر يردد : سقياً لك يا عهد الصبا ورعيا ، لقد كنت تسكر بزيبية .

بطل (الشاعر وابناؤه) عمر في الظاهر ، اما البطل الحقيقي فكل شاعر يشفق
على العرج والمخلمين والخرس والطرش والعمي والبله من بنيه وبناته . . . فيبلاو بهم
دنيا الفن ، ويصبح عالم الشعر مأوى عجز وعوه ، او مستشفي مجاذيب . وان لم
يستخفك الطرب بهم مثله احصاك في زمرة الحساد ، اذ كيف تنتقده وهو يحسب
ان لن يقدر عليه احد ، وأن شعره أنزل في ليلة القدر .

هذا اول قسط من المبلغ المرقوم أداه عمر ، مع الشكر ، باسلوب تحت زئبره
المخمل يبر تلذع كتيار كهربائي خفيف يدغدغ ويؤلم . وفي الكهرباء شفاء الشلل . . .

وفي المقال الثاني وعنوانه (الباب المرصود) يخبرك عمر انه شهد السينما فوق
بين فتى عربي وعجوز فرنجية بكيا تأثراً . لم يزعم عمر انه كان كالجزيرة بين دجلة
والفرات حتى خشي الطوفان، ولكنه يشهد ان صاحبيه بكيا، وهم بأن يتمشيخ
في زمانه ويتولى عقد قرانهما فمنعته كراهية الدخول فيما لا يعنيه . وحسناً فعل .

تظن وانت تقرأ هذا المقال ان عمر يكتب فصلاً لا قرابة بينه وبين السابق
واللاحق، والحقيقة انه ابن عم لحظاً لهذه الأسرة الكريمة . فالمعالم التي ينصبها عمر
في مغاوزه مقالاته ترشدك فلا تضل (فهذا الفتى الباكي يمسخ عينيه خائفاً من سخر
الناس الذين سيعلمون انه صدق ووقع في حبال الفن) ثم (وهكذا الفن، سواء
الموسيقى والشعر وغيرهما يخرج المرء من طوره الى طور ثان) (ص ١٩ و ٢٠) .

ورجل عمر خفيفة ينقلك من عند كاتب انكليزي الى آخر فرنسي، ثم يطير
بك الى دنيا (النرفانا) لتلم كروية الارض . ويسيرك ولا يخبرك مع قوافل البشرية
المنتقلة من ازل الازل الى ابد الابد، فتستريح على مصاطب الصوفيين حيث السعادة
خلف الباب المرصود وهنا يتناول عمر الى معرفة ما وراء هذا الحائط
فيقول : ولكن من تراه يفك الرصد . ويكون عمر في عداد الضائعين فبدلاً من
ان يجد السعادة في افيرن يودلبر يعني نفسه بالنعيم لانه ممسك الى صدره كتاباً . . .
وكان لسان حاله يقول : الكل باطل وقبض الريح .

وفي (كنوز الفقراء) يسرد عمر حكايات كثيراً ما علل بها اللبنانيون غنى
فلان وفلان، ويخبرك بسخر المعري المؤلم كيف ان المرحومة جدة ابيه - السيدة
صفية - لم تأخذ نصيبها من البقرة المذبة، وان عمر كاد يكون غنياً في ظهر
الغيب في النصف الاخير من القرن الثاني عشر للهجرة، وان لم يكنه فلان جدته
المرحومة ما ارادت . وهناك قصص مواقد غير هذه ترافق نقل الشتاء والشاي
الذي يشرب على ذكر الحبيب الربيع .

وهذه الافاصيص التي تخلق على هامش الواقع عوالم غنية بالاحلام والاماني

ليست وقفاً على وحي الانبياء. وخيال الشعراء. بل لها ينبوع يفيض ولا يغيض هو الآداب العامة التي (لا يتجلى فيها الروح القومي فحسب بل تترجم من جهة ثانية عن النفس الانسانية على اطلاقها، فهي كالبقرة المسرجة بالذهب تحمل كنوز الفقراء. (ص ٣٠) .

ففي الباب المرصود، كما ترى، سلك ينظم فيه هذا العقد الفريد، وما عناوينه الامسيات تدل على اعيانها . لم يشر عمر الى الآداب العامة عبثاً، انه يهينك تهينة دبلوماسية بقوة عارضة المدره البليغ لقبول ما يعرضه عليك . انت مقبل على باب (حنين شاعر الشعب) فاصمع ما يقول فيه، اي في عمر الزعني :

(وهذه قصائدك ببيانها ومعانيها واغراضها ان تضيقها تلك اللهجة الوسط بين الفصحى والعامية، بل انها في هذا الثوب المنوع الالوان البهيج الذي لاحسن استيفاء لشروط البلاغة في المعنى، والفصاحة في التركيب، من بدائع ادباء العصر الذين يحجون في منظومهم ومنشورهم على هامش الحياة . فقصاراهم اذن ان ينطرح ادبهم جثة على هامش الادب الحق الذي لا يصدر، سواء كان فصيحاً ام عامياً، الا عن مورد واحد .

«أما الجثة فيبالغون في تنميقها وترويقها وتأنيقها ولكنها (تواليت) الميت الذي لن يمدح طويلاً . لن يمدح في صفوفنا هذه الغثة الفتية التي تطمع فيما هو خير من نسخ الاقدمين واعسر من تقليدهم، وتطمح الى ما وراء صب الالفاظ في القوالب الجاهزة (ص ٣٥ - ٣٦) .

وفي فصل ثانٍ وعنوانه (حنين والشعر القومي) يتأدى عمر في اطراء عمر . وفي الثالث وعنوانه (العمود الهادي) - والعمود الهادي، او الصوى بلغة البوادي، هو الذي يرشد أبناء السبيل الى الجهة التي يجب ان يمشوا فيها - ويرى عمر ان الاعمدة الهادي كثيرة في مجتمعتنا (فإن مجتمعتنا غابة من الاعمدة البكنسيفية التروفية .

لا يدعك بكنسيف واحد الا لیسلمك الى ترثوف آخر، اما في أدبنا فغير موجودة البتة،
فان أدبنا مشغول بما لا ادري عن تمثيل نواحي الحياة وتصوير اخلاق الاحياء .
ادب لفظي لا ادب حي (ص ٤٤) .

(لا تجدد في غير أغاني حنين العامية تمثيلاً صحيحاً لنواحي حياتنا حتى لو أن
مؤرخاً بعد خمسين سنة حدثته نفسه باستشهاد ادبنا على زماننا، او بالتأمل صورة
لعصرنا في أدبنا لكان أكثر تعويله على ديوان شاعر الشعب حنين . لولا حنين
لكان هذا العصر ابكم ليس فيه من يشهد له او عليه، هو اذن شاعر العصر)
(ص ٤٥) .

وفي الفصل الرابع وعنوانه (حنين والهجو الاجتماعي) يقول (وليس الذنب
ذنبه اذا كشفت له بصيرته عن عورات الاجتماع فثألها لنا بصورة لطيفة بل (ملطفة).
ومن قال ان الفن رداء يجب ان يطرح على سواة نوح في غفلة!!) (ص ٤٦) .

(فلا بد لنا في كلتا الحالتين من أن نحمد الى حنين هذه التزعة المباركة في
أغانيه العامية . هو أولاً الشاعر المجيد فناً، وهو اخيراً المصلح المحسن اخلاقياً
واجتماعياً) (ص ٤٧) .

ويرفع عمر فاخوري حول رأيه هذا دعائهم من الباطون المسلح تسنده من الجهات
الاربعة، وكأنه خاف عليه من غابات الاعمدة الهوادي فأرانا ان في صراحة حنين
(الملطفة) كل الحق، وأخيراً فذلك رأيه (هكذا تريدون أدباً صحيحاً فلندع الحياء
الكاذب، وتريدون اصلاحاً اخلاقياً فلندع الرياء الاجتماعي) (ص ٤٨) .

فلنعد الى هذه الاقوال كلها، مبتدئين بكلمة بنى عليها الاستاذ رأيه في حنين،
وهي حجة القاطعة لجعل حنين شاعر العصر . الكلمة للفيلسوف رنان : (الادب
الحق في زمن ما هو الذي يصور ذلك الزمان ويعرب عنه) (ص ٣٥) .

اقول : اذا قصرنا الشاعرية والفن على تصوير العصر والاعراب عنه فحنين شاعر العصر بلا منازع كما ممّاه عمر، ولكن السلف الصالح يفهمنا في علم البلاغة ان التشبيه، مثلاً، اذا كانت أدواته مثل او شبه لا يعدّ تشبيهاً طبقاً (للمرسوم) الذي صدر في ذلك الزمان... فما لا شك فيه ان اغاني حنين شعر رفيع، وان اغاني حنين كسريع وبضع للدمامل والبشور الحبيثة المقيحة في جسمنا الاجتماعي . وان اغاني حنين تدخل الأذان بلا استئذان، وان اغاني حنين تضحك وتبكي في وقت معاً :

هرج ومرج ، وسوق فرنج وتكسيات بتكرج كرج
غرقانين بين النهرين نهر براهين ونهر الكلب

اشهد ان اغاني حنين احب الى قلبي ونفسي وعقلي من شعر فلان وفلان...
واني لاجاري الاستاذ عمر الى ابعد مدى وهو (ان لحنين كرامات في حياته وما هو من الاولياء)، وانه (ما كاد يصرخ - كما قال ذلك البعض لعمر - في اغنيته من قلب مجروح قائلاً : (حاسب يا فرنك) حتى وقف بمثل كن فيكون) ص ٤٠ .

كل ما كتبه عمر في تمجيد شاعرية حنين لا مبالغة فيه، ولا غلو ولا ايغال، فهو من ناحية (المطابقة لمقتضى الحال) شاعر فذ . ولكن هناك شيئاً غير مطابقة لمقتضى الحال والواقع . هناك مادة يجب ان تظلل أولى في عناصر الفن، وهي اللغة . لا اقول الفصحى كما يريدونها المترمتون، فني كلامنا الفاظ وتعابير فصحي ولا تعد منها . فما ينقص الزعني غير هذا ليكون في اعلى عليين ...

ان شعر الزعني كيفما قلبته لحير من قصائد كثيرة تنعت بالعصا، وهي منهكة، وغراء، وبوزها أسود... لا قرابة بين ابياتها، ولا (قران) بين الفاظها، فكأنها بحر الكباش كما قال ابو الادب العربي في شبيهاها . ان شعر حنين لحير من هذا الشعر الحروبي الذي لا فائدة فيه الا انه يلين المعدة ، وينغي عن حبوب الدكتور

روس . ان قصائده هذه لافضل من شعر أصحابنا الذي يطرحونه في غيابة الجب فلا يراوده ذئب عن نفسه، ولا تسومه قوافل الحياة لتشتريه لانه لا يجاريها : ادب ضفدعي قوته في حنكه ولا يعيش الا في المستنقعات .

وقبل ان نودع على امل العود لا كمال سياحتنا في دنيا عمر الباقية فاننا نحتكم الى (الباب المرصود) فهو الحضم والحكم في قضية شاعر الشعب المحبوب، وما احلى تلك الآية القائلة : من فك ادينك .

قال عمر في فصل (كنوز الفقراء . ص ٣٠) : (وان في الآداب العامة او (الفكاور) ، كما يسميها الافرنج ، لطرائف شائقة ممتعة غزيرة المعاني ، سواء الاقاصيص والامثال ام الاساطير والعقائد، توفر على العناية بها جمعاً وترتيباً وتأويلًا كثير من اختصاصي الغرب، اعتقاد انها فنون غير الفنانين، وآداب غير المتأدبين، ودواوين غير الشعراء، لا يتجلى فيها الروح القومي لحسب، بل تترجم من جهة ثانية عن النفس الانسانية على اطلاقها) .

اذن يا صديقي عمر، فليكن شعر صاحبنا الزعني : فن غير الفنانين، وادب غير المتأدبين، وديوان غير الشعراء - يزداد عليها الرسميين - وهذا لا يسخط التقاليد العالمية ويرضي (العمرين) ان شاء الله .

يكبر في عيني عمر فاخوري كلما انفتح لي بابه المرصود، فكان الذين بنوا تدمر بالصفاح والعمد كانوا في عون الاستاذ يوم شيد هذا القصر المسحور .
أسمعت بكوؤوس ابي نواس التي في قرارتها كسرى وفي جنباتها المها ؟ انك لو اجدتها في هذه المأدبة الفنية التي أعدها عمر للجياح والعطاش الى ملكوت الفن . اما عن الحجرة فلا تسأل فهي كما قال ذلك : تؤخذ بالعين فتغني اغفاءة حاملة .

ان قارئ الباب المرصود اللبيب - لا اغني لبيب المعري الذي ليس يغتر بكون مصيره للفساد، بل الذي يعشق الكون ويحس بحال الحياة - كالسائح في لبنان تطل عليه المشاهد الغريبة كلما توغل فيه، لا يطوي قفة حتى ترتفع له ذروة،

ولا يعلق نظره بشماريح الجبال فيخاف على طربوشه من التدرج حتى تنفتح تحته
اشداق الاودية فيخشى ان يذهب بجملته . وهكذا يتقلب بين ذراعي الجبال
والجلال ما استطاعت ركبته حمله . اما اذا كان عقله من صنف الطنك المصفحة
خيلتي فيه قليلة . ففي هذا السفر الصغير لذاذات . هو ينبوع حي يتدفق من فكر
فياض فينعمش ويحيي ، يوجه الادب المريض في طريق النقاهة ، يصف الداء والدواء .
ويرشد الى الاجواء الطيبة والماء والغذاء . ويفتح الابواب والنوافذ للهواء والنور ،
ومن لا تعاوده الصحة والعافية على يد هذا النطاسي فانقض يدك منه وبشره
بالموت . خير ما في هذا الطبيب لسانه فهو لا يينسك اذا انذر ، ولا يطعمك
بسواعد شمشون اذا بشرك بالسلامة . يترك شيئاً للقضاء والقدر ولا بد عنده من اذا .

نحن الآن امام باب (الاحلام) وهو ذو ثلاثة اقسام . اولها البحث فيه
غزالياً وديكارتياً وفرويدياً ، ثم الاستطراد في ختام الباب الى ان الشعراء هم اهل
الحلم . ومنهم السيد شفيق معلوف الذي نشر منذ ايام (سنة ١٩٢٦) قصيدة
عنوانها الاحلام - مجموعة شعرية صغيرة .

شفيق المعلوف هو صاحب عبقر بعد عشر سنين من ذلك التاريخ ، وحديثنا
مع شاعر عبقر ليس بسر . لا اعرض لهذا الفصل المثلث خوفاً من ان يحصى علي
غضب أبيه . اني اتجاوز هذا الفصل لثلاث تعاودني ذكرى الماضي ، ويلق القلم
زلقة اخرى فاغضب امام اللغويين عضو المجمع الملكي المصري ، وحجة المؤرخين
صاحب دواني القطوف ، والاسر الشرقية فلا يلحق نسي بجدي عبود الذي
كان له عرش في الاندلس فخرناه كما خسر صاحب الباب المرصود تلك الثروة
الضخمة في منتصف القرن الثاني عشر للهجرة . . . او بذلك العبود الآخر التي
النبي الذي قال فيه الفيروزابادي انه اول الناس دخولا الجنة ، وانه نام سبع
سنوات فقط ، وهب لا يرى الا انه نام ساعة من نهار . . . او على الاقل بابن عبود
وهو محدث . . .

هذه نعمة مسرولة من نعم الحسب ليس بالهين خسرانها . . . الست كغيري
من الذين الحقهم الاستاذ عيسى المؤرخ المدقق بقريش وغسان، فاكثر المسلمين
وبعض النصارى، ومنهم صديقي الشاعر امين نخله، اصبحوا بفضل المعالوف قرشيين،
وكل نصراني امسى منسوب الجدين من غسان . ان لعيسى عجائب في التاريخ لا
تقصر عن معجزات بنيه في الشعر ! ! غفر الله لنا ولهم .

اما الان فلنستيقظ من الاحلام فقد اطل علينا موكب (المرأة المجلوة)،
والمرأة عند عمر اليوم ما كان لها عند عمر الامس . . . (المرأة المجلوة والمرأة الصدئة)
عنوان عدة فصول يعرض فيها عمر للصوص الادب، اصحاب الغارات السردائية
الذين يسرقون عن سابق تصور وتصميم، والذين لا يسرقون متعمدين (ولكن
لا ذاتية لهم واضحة، فشعرهم ونثرهم كالامواج التي لا تقور حتى تقور زبدًا وتذهب
جفاء (٦٧) وشر هؤلاء جميعاً (حادث الجيل الادبي الذي يقتل التقليد والصنعة
والبيانات روح الصدق والبراعة والطبع فيه) (٦٨) . ويلخص عمر ما قرأ عن
الادب الروسي بما نلخصه : تأثر بعض آداب الامم ببعض كما هي الحال في اوربا،
ولكن التأثير هناك كان حافزاً الى الخلق ولم يكن تقليداً محضاً كما هي الحال عندنا .
تأثرت آداب اوربا بأدبي اليونان والرومان ثم تأثرت روسيا باوربا فكان اثر التقليد
ابين في الادبين الفرنسي والانكليزي، لان عراقتهما في المدنية الثالثة ابعدهما عن
القطرة الخالصة فكانوا خاضعين للعرف والتقاليد اكثر من خضوعهم للطبع، فبانت
في ادبهم تلك الكلفة التي تدعو اليها النظم الاجتماعية المتواضع عليها . اما الادب
الروسي فابتعد عن هذا فلم نر مسحة التقليد على ثمار قرائح كتابه .

يريد عمر ان يكون الادب صورة كاملة للحياة، كما كان الادب العربي الاول
قبل ان يكافحه شرطي الاخلاق، فلم يبق منه الا اثر ضئيل لم تكشطه تلك
الايدي الطاهرة العفيفة . وهو يرى ان اول ادبنا خير من آخره لان ذاك صادق
وهذا كاذب . الجرأة مفقودة في ادب اليوم لانه تقليد ادب الامس، وسير على

(الطريق الموطأة الرود التي يتخبط فيها العميان من غير ادلة وعكاز) (٧٣)
 فافضل ما في ادبنا العربي نتاج طفولته فهو (كالهرم قاعدته ضخمة، دق ودق حتى
 صار رأسه كالمسلة، يضؤل ويضؤل حتى يضمحل) (٧٢) وسبب اصدار هذه
 البضاعة المتثاقلة هو ان (المواضع الاجتماعية والاخلاقية) تصدّ الادباء عن تصوير
 الحياة صورة صادقة . فادبنا لا يصور حياتنا الا كما تصور المرأة الصدئة المرأة
 المجلوة . اظنك ادركت الآن سر العنوان . فادبنا الحاضر - المرأة الصدئة -
 لا يصور المرأة الا مشوهة كالمرأة التي تمسخ الوجوه وتشوهها . فادباء اليوم لا
 يخرجون الا صور القدماء المعالومة (قد كالغصن، وجه كالبدن، ردف كالكتيب)
 وهلم جراً . وقصارى الكلام ان المرأة كما هي غير موجودة في شعرنا لان الجمال
 والحب لم يوصفا وصفاً خليقاً بهما، فما هناك الا عواري ينظمها الشعراء تحت كابوس
 الحلال والحرام، ولذلك لم يجرؤ شاعر او كاتب على وضع قصة (دلالة الهوى)
 واذا عتبا بين الناس .

وينخص عمر امرأ القيس بفصل ممتع فيترحم بقلب مقروح على قائد الشعراء الى
 النار، ويرى فيه شاعراً صادقاً كانت حياته شعراً، وشعره حياة، ويزعم ان القدماء
 ظلموا الأدب الجاهلي (فطمست المبالغة في الاشادة بحسان الدين الجديد على
 كثير من محاسن الوثنية، اذ صور ذلك العهد البائد بأشد الالوان سواداً ليطلع
 منها العهد المحدث بأشرق وجه واصبغه) (ص ٧٩) .

أجل، كذا كان نصيب الوثنية في كل دورة من دورات الزمان، فالتناس على
 الرائح، فبعد اندحارها في اروبا انحنى الكثيرون على قفاها بالسياط وشوها
 محاسنها الفنية التي كانت ارووع مواد الفن . . . ان لعمر شركاء في دم يوسف .
 فهذا اناتول فرانس وغوته وغيرهما من كتاب فرنسا قد قدسا الوثنية في معتقدهم
 - الفن للفن - اما في غير الفن للفن فعمر مسلم، والحمد لله، كما انا مسيحي بنعمة
 الله . انه لا يرى في الوثنية خيراً او اقل خير مما يراه في الدين القويم، وحسبك أن

تقرأ آراء شرقية في مسائل غربية لتعرف أي شيء هو عمر . ليس هذا عذراً
انتحل له فهو يقول دفاعاً عن قوله بفضائل الجاهلية ومحاسن الوثنية : (لا يذهب
الفكر الى القيم الدينية والاخلاقية ، وليس هنا موضع معارضة ذلك التقديم المائل
من الحجارة بهذا الجديد الحي في القلوب ، فاني قصرت الكلام على القيم الادبية
والفنية الصرف) (ص ٧٩) .

ما اجل انتصار عمر للشعر الجاهلي في زمان يزعم قراؤه الجهال بانوفهم اذ
يقابلونه بشعر غوت وهينغو وبيرون وبودلير وغيرهم . انهم يقيسون البداهة البكر
بالحضارة الارملة ، فهل من يفهم هؤلاء . ان الشاعر الجاهلي قد صور حياته فليصوروا
هم حياتهم مثله بلا كذب ولا نفاق فينتجوا ادباً يقرأ . اما يترك لهم كل صيف
آلاف الاطلال ومئات الدارات ؟ ختام يضيعون اللابن ! !

وينحش عمر ان يكون قد أدى بالمسافرين الى حيث لا يريد ان ينتهي بهم
فيعود الى شرح كلمة (لا اخلاقية) في الادب فيقول (لست اعني ما كان منافياً
للاخلاق المصطلح على انها فاضلة ، او ما كان داعياً الى نقيضها حاثاً عليه . كلا .
فانا اعني ما كان خلواً من الهوم الاخلاقية بمجرداً من نية الوعظ وقصد العبرة ،
واعني هذا ليس غير . قد تأتي العبرة الواعظة عفواً وقد تكون ابلغ كذلك ،
ولكنها اذا لم تأت فيا للقرء ! ! ليس هذا بضار الادب من جهة انه ادب
صرف) (٨٣) .

ما اكبر مصيبتك يا عمر ! يريد ان يسوق ويغامر ويشق الطريق ، ولكنه
يتذكر الاعمدة الهوادي المنتصبة كمردة الف ليلة وليلة ... وينحش ان يصطدم بها
في منعطفات بحثه فيزمر ويدور بهارة ، ولكنه في كل حال يدور ... ليس موقفه
اقل ارتباكاً من موقف سكست فيلسوف بورجه . يريد ان يدافع عن (تلميذه)
جوسلو فتعرضه عقبات لا يدري كيف يقطعها .

وينفذ عمر أخيراً في هذا المضيق بعدما دوّخه الطي والنشر فيقول : (كثيراً ما

سمعت اخواناً لي يتساءلون منكربين ما المغزى من هذا كله، وماذا يريد المؤلف ؟
واين العظة والعبرة ؟

قلت ان هؤلاء الذين يستعبدون الاضرار ليطحنوا أكلهم سألوني كذلك حين
قرأوا الباب المرصود فاجبتهم بكلمة عمر : في الفنون شي . غير القيم وغير الاحكام .
واني لعالم ان احكام عمر صريحة ولكن امثال هؤلاء لا تهضم معدهم الضعيفة الا
الاعشاب والالبان ...

لا انكر على عمر ان جلّ ادبنا (مرآة صدئة) كالمرآة التي جليت لبشار
بقضاء وقدر، ولو لم يسبق السيف العذل لما كان شي . من ذلك . أما هؤلاء فن
يحاوهم، لقد ذهبت ماويتهم ولم يبق الا زجاجة لا تنعكس عليها الاشباح .

وينقلنا عمر من دنيا الواقع في الفن وتصور الحياة بشحها ولحمها الى منزل آخر
من نظامه الشمسي حتى يبلغ بنا برج الحمل أي دارة الوحي والالهام . هذا البرج
الجديد هو فصل من كتاب الشيطان في الالهام الشعري . لا تعجب اذا سمعت
بكتاب الشيطان، فللشيطان مهمة لا بأس بها في الوجود، فالتوازن ضروري ليس
في السياسة فقط بل في كل شي . الخالق، عز وجل، خلق له خصماً لان الحياة
بلا خصوم ناقصة مملّة ...

قال عمر : الشاعر ليس له شيطان كالرجل لا ظل له . ثم يحدثك عن الوجود
وعدم الوجود، حتى يخيل اليه انه غير موجود . ثم يأسف بتلك الروح الساخرة
المسيطر على كتابه كله كيف صرنا لا نرى الجن والشياطين بعد ان كانوا على
اتصال دائم بآبائنا واجدادنا ... ويرينا بظرف يشبه الجد كيف كان لشعراء
العرب شياطين تطرقهم حاملة اليهم بدائع الفن وطرائفه، فهم ليسوا مثل صديقنا
السيد حلیم دموس، مثلاً، الذي لم يطرقه الجن مرة واحدة ولن يطرقوه، لا
اذا اوقد ناراً لطعامه، ولا اذا اشعل مصباحاً لتنظيم قصائده، فان المسألة مسألة
مزاج (٩٣) .

وبمناسبة ذكرى ابي النجم القائل :

اني وكل شاعر من البشر شيطانه انثى وشيطاني ذكر

يستطرد ايضاً ويعرج على الشاعر بشاره الحوري فيلكمه لكمة عابرة، ولكن
بقفاز تمرين محشو قطعاً (لا ننس من شعرائنا من يؤثر ان يكون شيطانه انثى،
بشاره الحوري مثلاً) . ثم يقول : ما اكثر الذين يسمون بالشعراء وهم في الحقيقة
طواحين الفاظ . ألك ايها الشاعر شيطان ؟ اذن قل ثم قل، والا فانقلب طاحوناً
على ضفاف العاصي (١٤) .

ويروي طائفة من اخبار شياطين شعراء العرب والمغنين وغيرهم، وينتقل الى
العرب فيرى اولئك القوم كالعرب في هذا الوهم ويستخلص اخيراً : (ان كل فاعلية
فنية او شعرية عظيمة - في الفنانين والشعراء المبكرين على الاخص - لها جذور
تستشري فيها وراء الادراك، اي في المنطقة اللاوجدانية من النفس الانسانية، ومن
هذا اللاوجداني مادة الابداع والاختراع) (١١٠) .

اذن الاستاذ عمر الفاخوري بشر بنظرية اللاوعي منذ سنة ١٩٢٦ ولكنه لم
يجع العلامة المسجلة ... (اقرأ كلام بول بورجه ص ١٠٩) .

بارك الله في عمر وأهاب بشياطينه ليأتوا الى نجدته من كل فج عميق، وسترى
ان لهذا الجني الف شيطان مريد، ان انجز (حنا الميت) .

الشاعر الشهيد، والشاعر السوق فصلان يطري فيهما صاحبه عمر حمد . قال في
هذا الصدد : كنت ادعوه « شاعري » ويدعوني « راويته » . ولكن عمر اصممي
اليوم لم يرو لنا بيتاً واحداً من شعر شاعره . حدثنا فقط ان ذلك الشعر كان يثير
في نفوس السامعين حماسة لا توصف واعجاباً ليس له حد، ولو مد الله في عمر الشاعر
لاصبح من خول شعرائنا (١١٦) . اننا لنؤمن على السماع برأي عمر في شاعره
ليكون أجربنا اعظم، وتم فينا كلمة السيد : طوبى لمن لا يراني ويؤمن ...

ولم يسلم العاملي من مداعبة الفاخوري فخصه بفصل عنوانه (ساعة مع العاملي) وفي ساعة فقط رأينا عمر ادهى من معاوية، ورأينا العاملي فاذا هو (رجل تعبت فيه الطبيعة كثيراً) حتى اخرجته (ولم ترجمه ارتجالاً كما يرتجل هو الشعر).

ان صاحبنا العاملي كغيره من الشعراء المدرسين يهجس بالأولية في الشعر العربي. واذا كان هنالك شيخ كار وشيخ شباب وشيخ خضرجية فكيف نبخل على الشعراء بأمير. العاملي في نظري انا شاعر مظلوم. فيه غفلة اذا جثته من صوب الحكومة والشعر، فيبته عورة ومدينته مفتوحة، وكل ما ترغب فيه يجوز عليه ويصدق. وقد يكون مشدوهاً كما قال اناقول فرانس عن نفسه، ومن هنا اتته العبقرية الشعرية. ففي الرجل مزايا عديدة منها ذاكركه العجيبة وقرينته السبالة حتى يكاد يكون قفلة. وله شعر، وان متفرقاً في قصائده الطويلة، يضعه حيث يضع هو نفسه. وقد يكون اصح الشعراء المدرسين المعاصرين لغة، اذا استثنينا الشاعر امين بك ناصر الدين الذي يضاهي العباسيين ديباجة. فالعاملي يطبع على غرار العرب، كما يريد اصحابنا الذين يرون خير الشعر ما كان كذلك.

اما الحديث عن الزهاوي تحت عنوان (الشعر والداما) فقل في طرافته ما شئت وليس من يؤاخذك، فهو خير فصول الكتاب في النقد الخاص. بلغ فيه عمر القمة في التهكم. نرى النقد في فصول الكتاب السابقة واللاحقة يكاد يكون عاماً او شبيهاً بالعام، اما في هذا الفصل الرائع فالنقد خاص يتجلى فيه كل اسلوب عمر الطريف وسخريته التي يثني فيها الماء تحتك ولا تحس... اطنب عمر ساخراً مكبراً اختراع الزهاوي لمئات من اشراك لعبة الداما. ثم استطرد الى رباعياته فقال: (واذا كان كثير الاختراع في الداما فهو قليل التوليد في الرباعيات. واذا كان للداما ان تخلد اسماً فهي التي ستخلد اسمه: صاحب المئة اختراع بعد الخمسة، وسيقال في ترجمته في ذلك الموضع: كان ايضاً ينظم الشعر).

تذكرني (في ذلك الموضع) كلمة احمد فارس الفارياب، وهي في محلها مثلها

وان اختلف الغرض ... واذا كان رسول الله (صلعم) نظر الى زهير بن ابي سلمى كما جاء في الباب المرصود وقال : اللهم اعذني من شيطانه ... فعندي ان يركض الزهاوي الى من على العرش استوى ويضرع الى ذي الجلال، فلعل عنده سفيراً داهية يوفده الى عمر فتحل المشكلة ويمحي هذا الفصل من الباب المرصود ... فهو وحده اشد من عذاب القبر على هذا الشاعر المسكين . ان مقال عمر اجتاح كل دنيا الزهاوي ولم يترك بها شيئاً حتى الأطم المشيد بالجنبدل . فميجنيق عمر يقذف بالكبيرة والصغيرة، واشهد انني عدلت عن الكتابة في موضوع الزهاوي بعد ما قرأت هذا الفصل الخطير .

ثم يعرض بفصلين لقصيدة اقتبسها المرحوم الشاعر الياس فياض ولم يذكر اسم شاعرها الاصيل سيلي بريدوم . وهذه خطة كثير من شعرائنا . فالشعر بحر، وما اكثر القرصان ...

لعمري في كتابه هذا خطأ دفاع : احدهما سيلي والآخر ايجاني . في احدها دفع عمر شاعراً معدوداً - الزهاوي - شاعراً فأقصاه الى ابعد حدود منطقة الشعر، وحسبه هذه البطولة في زمن - ١٩٢٤ - عدوا فيه الزهاوي شاعراً خطيراً وكانت تحتي بعقرته العواصم وتطبع بيروت رباعياته . وفي الثاني يكتشف - ومهمة الناقد الاصيل الاكتشاف - شاعراً جديداً هو يوسف غصوب في ديوانه القفص المهجور . يقدم عمر لهذا الديوان فيتحدث عن التجدد مبتدئاً بكلمة لرعي غورمون : كل تبديل يطرأ على ادب امة من الامم فلا بد ان يكون ناشئاً عن علة خارجية او اجنبية . ثم يستعرض النزاع القائم بين القديم والجديد لافظاً هذا الحكم القوي : واذا كان التبديل طارئاً على حياتنا في كل مظاهرها فإين نجعل ادبنا كي لا يناله تبديل . هو هذا الطوفان (ولا عاصم اليوم) (١٦٣) .

وتعجبه الوحدة الكاملة عند يوسف غصوب المتأثر بالادب الغربي، (حتى يصح القول ان مجموع القفص المهجور قصيدة واحدة) ثم (ولهذا نقول ان لشعر يوسف

غصوب دلالة انسانية بليغة عامة ، وهي اولى مزايا الشعر وسائر الفنون (١٦١)
ولكن تأثر غصوب بالآداب والثقافة العربية (ليس بضائر اسلوبه في شيء . فهو
اسلوب عربي مبين ، لا سمة للعجمة عليه (١٦٦) فالقفص المهجور حادث ادبي
ذو شأن : زهرة نضرة في هذه الايام الجديية ، في بيدا حياتنا الادبية . وزهرة
واحدة - في عالم الشعر - تكفي لان تملأ البادية أرجاء وطيباً ، وحسناً فاتناً ، وحياة
بهيجة . ان في هذا الديوان الفريد لغزاء لنا عن كثير من رزاينا لاسيا تلك القصائد
والدواوين التي نطعن بها في كل حين (١٦٧) .

وأخرج الشاعر يوسف غصوب (العوسجة الملتهبة) فضها الى القفص المهجور
فكان منهما ديوان طريف شعراً واخراجاً . فاعد له عارفو قدره مآدبة سنية اكادوا
وشربوا فيها على شرف عبقريته وفنه ، فكتب عمر فصلاً سماه (المآدبة) مجتهد فيها
الشاعر تمجيدهم يستحقه جهاده : ليس من فضل الله علينا ان يأتينا يوسف غصوب
داعياً ، كرة بعد كرة ، الى احدى المآدب الملكية التي يادبها الشعر لابنائنا - صفوة
الخلق - . انا اعني بعد القفص المهجور هذه العوسجة الملتهبة التي طلعت علينا
كمروس شقراء . كما جلستها يد الماشطة ، بل الطابعة (١٦٨) .

وما فرغ الاستاذ من كلمته للشاعر المختار حتى عاد فخلل نفسه هو فعثر فيها
على ثالث - طبعاً غير اقدس فالحقوق محفوظة - وهذه النفوس الثلاث فطست
واحدة تلو الواحدة ، وكان مدفنها جميعاً في شخصية صاحبها ، فاذا هو كلام المتمم
تحمّل في احسانها أجنّة موتى واليك قوله : (ويلوح لي ان في نفس كل امرئ ثلاث
جثث على الاقل : عنقرة عبس ، فسندباد الف ليلة وليلة ، فجنون ليلي ، في ثلاثة
اضرحة مكتوب على قبرياتها (هو الحلي الباقي) دون تاريخ (١٧٠) .

امد الله في حياة عمر ليدرك نفسه الاخرى ، نفس زهير بن ابي سلمى ...
فكتابه هذا خير اثر في بابه ، انه احدى ايادي دار المكشوف البيضاء على نهضتنا

الفتاة، وهو خير بائلة لهذه العروس . فليت المدارس تجعله في منهاج دراسة الصفوف العليا فيكون للنفس خير دليل لهم في متيعة الادب .

والخلاصة ان في هذا الكتاب مؤونة، وذخيرة وعتاداً . لغة ناصعة نقية حافلة برموز شتى، طوراً قرآنية واحياناً شعرية . مادة طريفة مستقاة من ثقافة عميقة واسعة . تسيطر على كل ما في الكتاب، شخصية قادرة لها اسلوبها الممتع فتجرف القارئ جرفاً . يستعين عمر على اخراج مقالاته بخيال خصب، ويؤثر الفصل على الوصل حتى تكاد تنفصم العرى احياناً . مولع بتعابير معلومة يرددها كثيراً . وياسر . حظ العصر ان لم يكن فيه عدة اخوة للباب المرصود .

هلم القلم والدواة يا عمر .

كرم ملحهم كرم والفيلة وسيلته

اطلت على الوجود منذ ست سنوات، وها هي اليوم في مطلع عامها السابع،
بالغة الرشد، مجتمع معظم أشدها، دارجة في حياتها على ناموس النشوء والارتقاء،
ولكن شريعة النمو كالشجرة المفروسة على مجاري المياه . ولو اتيح لمنشئها كرم
ملحم كرم ان يعيد النظر ولو مرة واحدة فيا يكتب لارانا عرائس فنه الروائي
البارعات الجمال أشد فتنة .

فالرواية اليوم هي كل الادب الحديث، رافقت الانسانية من المهد وستأشيعها
الى اللحد . كانت اسطورة حافلة بالجن والمغاريث والمردة، فاصبحت حقيقة، بل
صارت قطعة من الحياة، ان لم نقل الحياة بعينها، فاعظم بالروائي الخاذق مبدعاً،
يخلق عالماً لا يموت .

لا تستهوي الخطبة والمقالة الاطفال والصبيان والشباب، بل الرجال الذين
نسيهم بحق - مع اغوستينوس - اطفالاً كباراً، كما تستهويهم القصص الرائعة
التي تلقي على الحياة اشعة ناعمة تمزق ظلماتها ودياجيرها . ألم تر الى ابيك الشيخ كيف
يرى كل اللذة في ان يقص على الناس حكايات حياته وما فيها من مغامرات
تنبت من طبائعه ؟ ألم تر الى غضون وجهه كيف تتبلور حتى تمتلئ نوراً اذا رأى
في وجوه السامعين اصفاً وارتياحاً ؟

فالقصة حديث البشرية منذ تجمع الناس في الكهوف، بل الانسانية برمتها
قصة ابدية، كثيرة الالوان مشتبكة الخطوط، ابطالها عباقرتها . ومن تأملها رأى
جمالاً كثيراً حتى في اشد مشاهدتها قبحاً، وما هذه القصص (الدهرية)، ذلك
الميراث الخالد، الا فصول رائعة من هذه القصة الكبرى .

وكلما دنت القصة من (الواقع) قاربت الكمال الفني، فالروائيون مصورون
بغير الألوان، وكل رأينا الملهمين منهم يوحون الى نوابغ المصورين رسوماً والواحاً
خالدة . والمصورون كالروائيين ايضاً، خيرهم من دنا اكثر من تقليد الاشباح
والاظلال، فكأننا حسن التقليد قمة الفنون الجميلة . فهيناً لمن أوتي من الروائيين
سلامة ذوق ليختار من اللغة الواناً ويبعد من قاذج الغاظها الوان قوس قزح .

وهذا ما اخذت المسه في روايات كرم ملحم كرم منذ عام وبضعة اشهر .
اجل، لقد صار يحسن تقليد الطبيعة ومحاكاتها، ولم تكن اوليات رواياته في نظري
غير محاولات في هذا الفن الرفيع - وان كانت ناجحة - ومن يكبر هذا القول
فكأنه يتمتع اذا قلنا له : كنت طفلاً تحب، ثم غلاماً تعدو، فشاباً مكتمل
الرجولة . وأي لوم على كرم في فن هو اشبه بمفازة لا اعلام فيها، وقد كاد يكون
بلا اصول حتى في الادب الغربي .

فاكثر ما قرأنا قبل روايات كرم ملحم كرم مترجم الى العربية - ما خلا
تراً يسيراً يعوزه فن كثير - لا يحدثنا عن شؤوننا بشي، فتلك اذن روايات
غريبة عنا، زينا غير زيننا، وعاداتها غير عاداتنا، لا نلمح فيها شيئاً منا الا تقاطيع
الانسانية الشاملة، فلا نستلذ طعمها ولا يفتننا لونها، فكنا اشبه بشرقي في وليمة
غريبة .

اما التي ارضت الجمهور منها فلاكها المفاجآت والازمات وليست هذه كل
الرواية، فعهد المفاجآت والازمات مضى وراح، فالرواية العصرية ترمي الى غرض
اسمى من التسلية . هي درس عميق يخفيه الروائي اللبق تحت ستار القصص، ويدسه
في سياق الرواية دساً كما تدس العقاقير للاطفال في قرص الحلوى . فالروائي النبیه
يربك ما تراه كل يوم ولا تدركه، ويلقي روايته من بين يديه تهتر كأنها جان،
مزينه بالرسوم والمشاهد البانية فتلمح صورة المجتمع حية يحسها لك التمثيل وتجسدها
لك السينما متحركة ناطقة .

ولا اخطى اذا قلت ان الرواية اطروحة تقوم بنبالة اشخاصها ومموا اخلاقهم .
يلقيها الكاتب التزيه على الناس مصلحاً ، لا مفسداً ولا مخدراً للاعصاب . فاعتماد
الانسانية في نشدها المثل الأعلى اصبح يعتمد على نزاهة الروائي واخلاصه للاخلاق
والفن ، فخير الروائيين من شق بمقدم سفينة خياله عباب المفاصد متجهاً بقرائه الى
ميناء الفضيلة الحصين ، دون ان ينسى ان الرواية للتسلية قبل ان تكون للاوعظ
الجاف ، والتحليل العقيم المل .

قلنا اننا قبل روايات الف ليلة وليلة لم نقرأ روايات قومية تحدثنا بلغتنا ،
وتصور لنا عاداتنا اصدق تصوير ، ولكن يا للأسف ان معظم القراء لا تروقهم
الرواية الا اذا كانت حادة لاذعة ، غريبة كالاساطير ، ذات مفاجآت وازمات
كروايات البوليس السري ، والذين يقدرون ما يقرأون تزر عددهم . ولا اراني
مخطئاً اذا قلت انهم يقبلون على الف ليلة وليلة بقدر ما فيها من اكسير الشباب ،
لا بمقدار ما فيها من فن ، وان نقرأ غير قليل منهم يحسبها كقصة الزناتي ونجمة السحور .
فما كان اشد الملك يا كرم ، وما اعظم جهادك ، والله صبرك ، بيد انك رجحت
المعركة ، والله مع الصابرين .

اما كيف فاليك الحبر : حبيب الى الجمهور مطالعة قصصه الفصيحة ، ومال بهم
عن تلك السفاسف فرقى ميولهم وعلهم التفكير - وهذا اول دروس الحياة -
ورغبتهم في قراءة القصص المتصلة بحياتهم كل الاتصال ، وبسط لهم بمهارة الروائي
وحذقه الحوادث التي تلابسهم كل حين نخدم اللغة والفكر ، وأرانا فناً روائياً
عربياً ما رأينا مثله من قبل .

لم يسمع كرم ملحم كرم بمحادثة رائعة ، بل لم تقع حادثة ذات شأن في البلاد
الا انبرى لها يسبكها بقال روائي جذاب واظهرها بعد اسبوع في مجلته ، وهذه
لمعري جهود جبارة يقدرها لكرم الاديب الجسور كل من ادركته حرفة الادب .
فكأنني بكرم معمل روايات لا تقف دواليبه هنيهة حتى يستطيع كل هذا الانتاج

والإصدار . فأكثر الروائيين إنتاجاً اليوم لا يصدر في عامه نصف ما يصدره هذا الشاب المقدم الحصب الخيلة .

والذي يتراءى لي أن كرم لا يرسم لروايته هيكلاً فهو كالحاسبين عن ظهر قلبهم ، يجمعون ويطرحون ويضربون ويقسمون دون أن يلجأوا إلى القلم والورق . أن كرم لا يدبر الحطة اذن ، بل لا يراجع ما يكتب إلا ساعة تصليح المسودة وإذا صححها مرة صارت المبيضة ، هذا أن كان يكتب دائماً كما رأيته مرة . كان يسلم كلاً من منضدي الحروف قصاصة فيها بضعة أسطر حتى إذا نضدها رجع إليه . فالمنضدون إلى مكتبه رائحون جياؤون وهو يكتب ويقص ويسلم . حرب سجال بينه وبين منضدي الحروف ، لا هدنة ولا نزاع سلاح حتى يغشاهم الليل ، وعند الصباح يعودون كما بدأوا .

قوات له تسعاً من رواياته ، أولها (ماذا فعلت أيها المحترم) وآخرها (في قبضة الجبار) . قصص مختلفة البيئات والشؤون ، أكثرها واقعية ، فرأيت اللون المحلي حتى في البعيد الدار منها . وتتبع سياق الرواية السهل فإذا بي كلما دنوت من يومنا (هذا) ادنو من الجمال الفني في بروز الأشخاص التي تكاد تتحرك في سهولة القصص المترققة كالجدول الصافي ، في الألفاظ والتعابير التي ينطق بها أشخاصه ، وافرحتني تجنبه بث الآراء الشخصية كأنه يعلم أن القراء يستسمجون الرواية إذا كانت لمتها وسداها فلسفة وآراء .

فلو كان كرم يكتب لغير من يكتب أي للأدباء فقط لأرضى الفن أكثر ، بل لجاءت روايته قطعة فنية لا (لو) فيها حتى في نظر أكبر الروائيين ، أعلى حداثة الرواية في الأدب العربي ، وقلة البضاعة التي يحتاج إليها الروائي في لغتنا الغنية الفقيرة . ولكن هو الرأي العام عقبة في وجه كل متفنن ، فهناك تقاليد ونظريات تكبل الأديب فلا يفلس منها محاول ، وأنى لمن يتوكل على الرأي العام ، مثل كرم ، أن يفضيه .

ولو استطاع كرم ان يخصص لروايته حصة من الزمن لجارى رواثي الغرب
وكانت روايته التي اتمنى ان يتفرغ لها، رواية العام .

فما اذق نظره عندما يضع لك رواية لبنانية اذ لا يترك شاردة ولا واردة
يتطلبها الفن، فتبرز شخوص روايته ناثثة كأنها ناثيل ودمى من رخام كالبلور،
وهو الى ذلك كاللثك الرسامين المحترلين الذين يرونك سحنة اشخاصهم بخطوط
قليلة جداً .

اقرأ صفحة ٤ من العدد ٢٥٢ تتجلى لك شخصية بطل روايته، واقرأ صفحة ٩
من العدد عينه تعرف كيف يكون الحوار وأي الفاظ ينطق بها اشخاصه الروائي
الحاذق الموهوب، حتى اذا انتهيت من مطالعة الصفحة العاشرة قل معي : هذا ما
يتسناه لنفسه اوفر الروائيين حظاً من الفن، حقاً ان من الفن لسجراً .

ولفت نظري في كرم قلة تحامله على ابطال رواياته فكأن لا علاقة له بهم،
يسرد الحدث وينطقك غير مخير بالحكم الذي يريده حتى تحاله محدثاً او (شاهداً)
لا اكثر ولا اقل .

اما مواضعه فيستقيها كما قلنا من المحيط ويلتقطها عن طريق الحياة فلا تتغير
الا قليلاً حسب الحوادث . والاشخاص ومعظمها واقعية او كالواقعية، الا بعض
روايات غريبة الاشخاص مترجمة بتصرف واسع الحطة، - كما فعل تولستوي ببعض
روايات موبسأن - وغالباً ما يشرقها . ان العاطفة تظل السيدة المطلقة في كل ما
ينشر ويذيع .

واراه يعطي اشخاصه احياناً شوارع غريبة وفضائل نادرة كما في رواية (قاهر
الامير بشير) . فلو لم يكن في الغالب اسير اشخاصه كيفهم كما شاء، ولكن ما
الحيلة وهم احياء يعرفهم الناس، الا ان من يعرفهم يكاد يسمعهم يتكلمون،
وان كان كرم لا يعرفنا اليهم اكثر الاحيان .

واشهد انني تمثلت امام عيني الشيخ عقله القطامي - الذي عرفته في عمان -

كانه يحدثني في رواية (بعرضك يا باشا) كما سمعت الشيخ ابراهيم يتكلم في رواية (راهبة عبرين) والابتسامة الحائرة ملء فيه .

فلهذا اقول ان لغة الحوار او الحديث عند كرم لكانها الواقع، وهذا مشكل لم يفك حتى في روايات الغربيين الذين يكتبون كما يتكلمون، فكيف برواياتنا التي تكتب بلغتنا العربية ذات اللغتين الفصحى والعامية .

واسلوبه الانشائي من طراز (السهل المستنع) - حسب التعريف البالي - غير ان بعض فقرات تأتي من الطراز العالي، كأن كرمأ نسي اذ ذاك انه يكتب للجمهور، وما هي الا لحظة حتى ينقطع هدير الشلال وينساب جدولاً هامساً .

ولم اتمثله متى اقبل على نقض نقيصة يزأر المجرم بعينيه الحادتين وذلك الوجه العبوس الذي قلما يبتسم، وان تبسم فابتسامة غير كاملة، وهو في كل حال لا يريد الا ان يكون روائياً قصصياً لا كاتباً اجتماعياً يتوسل بالرواية الى نشر بعض اراء يلاً بها افواه اشخاصه والى اغراض يحشرها حشراً في سياق الرواية فتفتكك اجزاؤها، ولا يتعمد الشعر الطليق فيأتي في قصته كرقعة جديدة في ثوب بال، كما فعل ويفعل كثيرون من محاولي كتابة القصة، فيصعدون بك الى الاولمب ويهبطون الى وادي جيهنوم، كل ذلك في عشرات من السطور .

ان مهمة الروائي في الادب العربي شاقة جداً، فلو اراد ان يدقق في الوصف ككتاب الغرب لعازته الفاظ كثيرة وضعية، فالليب من روائيينا من هرب ما استطاع من المحيط الذي يقلد المدنية الغربية فيدرك بذلك غرضين : الاول وهو الالم انه يرسم صورة شرقية صحيحة وهذه مهمة الروائيين اليوم، والثاني انه يتخلص - اذا شاء ان يصف ككتاب الغرب - من وصف اشياء لم تعرب اسمائها بعد . فمسي ان يكفيننا المجمع العلمي المصري هذه المؤونة . وكيلا اكون حرجاً اقول ان كرمأ لا يستطيع الفرار من هذه المعركة، معركة الرواية الواقعية، وهو حامل علمها الاعلم .

وقصارى الكلام ان كرم ملحم ظل يجاهد حتى أرانا في مجلته (الف
ليلة وليلة) ، وخصوصاً في الفترة الاخيرة ، روايات قيّمة بارعة لو كان كاتبها غير
عربي لنعم بالشهرة والغنى .

(قدراً مدحراً)
فسر يا أخى ، بحراسة آلهة الفن وكفاك غفراً انك سدّدت ثلثة في جدران
الادب العربي ، وكأني اراك بعد سنوات تطبع فيها على هذا الغرار واقفاً على قة
الفن الروائي بين زعمائه العالميين .

ولي عود الى هذا الموضوع فإخص رواياته التي قرأتها بنقد وتقدير واذ ذاك
ننظر فيما لكرم الروائي وما عليه ، واظن ان من لا يرحم احداً حتى اغراضدقائه
في (عاصفته) التي تكتسح ابدأ بفرحه نقد غرضه التمجيص ورائده الاخلاص
للادب والفن لا للاشخاص .

وجذا الاديب هو لو مرحب فصولي العتيّدة فتتزل على الرحب والسعة في
(عاصفته) ، غفل التواضع يا كرم وقل اهلاً وسهلاً ، فالضيف خليك بالكرامة وانت
عربي لبناني ، فانا معك وعليك ، وهب انك قلت : يا ضيفنا ... فلك اقول :
شرط في الحقل ولا قتال على البيدر ، اريد نشر فصولي (بحروفها) .

اقول هذا خوفاً من نشر النقد وطبي التقدير ، وليس هذا بعدل .

وفاء الزمان - للريحاني

ألف الريحاني رواية (وفاء الزمان) في الفردوسي، وأخرج مخاضيل نعيمه كتاب (جبران خليل جبران)، فكان الأول مسرحياً، والثاني قصصياً وكلاهما لم يوفقا إلى الفن .

الريحاني ونعيمه تقضى شبابهما في بلاد الدولار، ونهلا من ينابيع الثقافة الأميركية الانكليزية، لها آثار واضحة في النهضة الحديثة لا ينقصها فقدانها بعض جدتها .

كان كتاب نعيمه اسبق ظهوراً فهو أولى بالتقديم، ولكن هذه القافلة الفردوسية السالكة طريق التجارة القديمة حاملة الى بلاد فارس مرأً ولباناً - كالجبوس من قبل - تحنى علينا آثارها اذا تباطأنا عن رسم خطاها . والحمد لله في كل حال لم يفتنا (الموسم) وقلنا في الفردوسي نثرأً وشعراً .

١. كنا لنعنى بنقد هذه المسرحية لو لم تكن للريحاني كبير كتابنا والزعيم الادبي الذي له في كل معركة غبار، وفي كل عرس قرص، ولولا ان ظهور المسرحيات في جونا الادبي كظهور مذنب هالي

للريحاني (الجديد) خطب ومقالات اجتماعية وسياسية حتى الصحية ... وله روايات وقصص وكتب رحلات عربية وانكليزية . وللريحاني (القديم) ترجمة نتف من لزوميات ابي العلاء، وله شعر انكليزي، وله كتاب (الحافلة الثلاثية في المملكة الحيوانية) الذي شهره فتحدث الناس به، وله ايضاً نبذة في الثورة الافرنسية، وقصة المكاري والكاهن التي اعاد طبعها هذا العام .

قلنا ان الريحاني لم يوفق لتكوين مسرحيته الفردوسية، وأتى يوفق من يصنع

صنباً... فالرواية فصلان في ست وثلاثين صفحة (قطع وسط حرف اول) يرفع فيها الستار اثنتي عشرة مرة فتأمل.

اما موضوعها فالاسطورة التي نسجتها عناكب التاريخ على شخصية الفردوسي، وتناقضاتها الصحف والمجلات بمناسبة ذكره الالفية. لم يزد الريحاني عليها شيئاً غير شخصية (الزمان) و (الجمال) الذي رافقه الفردوسي، فكان ابلغ من الشاعر والزمان، مع ان المثل يقول: ان لم تعلم ابنك فالزمان يعلمه.

واليك عرض الرواية:

في المشهد الاول يحلل الريحاني عقلية السلطان الروحية في حوار رائع مع الشاعر يكاد يدنو من الواقع. ويتدرج الى مجاملة الشاعر بلباقة وفن - وان ممأه الفردوسي قبل الاوان - اما حمل السلطان كلام الشاعر عنه وعن الرسول محل الظرف فهذا كثير، ولا يحدث مثله عندنا فكيف يكون منذ ألف عام!! واغرب منه ان يكره سلطان فارسي (المجاملة) ويعدّها تبذلاً غير خليق بالشاعر. ان بدعة التبجيل والتعظيم كان الفرس دعائهما بين العرب، فدنأ بها ولا تزال ترفع ونقوم في هيكلها الرميم...

فنحن - ولا غر - اذا لم نسلم على الكتّاب والشعراء بألقابهم (بنصها وفصها) عدونا ممن يبخسون الناس اشياءهم ولا ادري ماذا... وحماوا البريد الينا رسائلهم (اللقطة) النامة عن وجوههم العظيمة.

عفواً لقد شط القلم... وينجلي المشهد الاول عن تعهد السلطان للفردوسي بدينار عن كل بيت تدفع ألفاً بألف، اما الفردوسي فيرى ان يقبض المال جملة ويبني السد المزعوم الذي يتغنى به شعراؤنا...

ويرخي الستار ليرفع عن وزير يقاتح السلطان الكلام، وهذا لم يألفه الملوك القدماء، وتبتدى محنة الشاعر فيكيد له حسن واياز، ويغالط المؤلف نفسه فينسى ما قاله في المشهد الاول، فنخبر في هذا المشهد وما يليه ان الفردوسي ملحق ملحف.

وبعد المناقشة يخرج حسن واياز ويرخى الستار ليرفع عن المشهد الثالث فيظهر
السلطان وحده في المكان عينه، ليتكلم دقيقة او اقل، ويقول : ان الفردوسي
مثل سائر الشعراء مستوفد، لجوج، شتأم ...

لقد حيرني ارخاء الستار ورفعها هنا ولم افهم حكمة الريحاني فيه .

اما المشهد الرابع ففي طوس . الفردوسي بيته عاتب ساخط على السلطان،
يعجب كيف لا يأمر وزيره بقضاء حاجته فيقول : أأستدين ثم أأستدين ثم أأستدين ...
اطلب من اللقيم الجالس في باب الحزنة مائة دينار فيرسل اليّ عشرة دنانير ...

وفي آخر هذا المشهد ، وهو خاتمة الفصل الاول ، يوزع الريحاني (الملبس)
فيقول بلسان الشاعر : لولا الحاجة اليها - أي الدنانير - لوضعت كل دينار في
بكرة حمل وأرجعتها اليه .

الفصل الثاني : وهنا يبتدىء التقطع والتفكك، ففي المشهد الاول ، وهو
صفحة واحدة، يجتمع السلطان ببطانته ليقول لوزيره حسن : (ارسل الي الفردوسي
حمل فيل ذهباً ، ستين الف دينار) فيقنعه الوزير بارسال ستين الف درهم من
الفضة، ويرخى الستار .

اما كان يقدر الريحاني على قول هذا بلسان احدهم في المشهد الثاني، فيستريح
ويريح ويرضي الفن، رضي الله عنه !!

وفي المشهد الثالث يدخل (الزمان) على الشاعر في بيته . في هذا المشهد
روعة عظيمة لولا حدة في الشاعر تشبه الجنون ، فلو قللها امين لكانت اربع .
لعل له عذراً فربما نسي انه يتحدثنا عن الفردوسي . لعله تحيل شاعراً آخر في تلك
اللحظة فشوه الصورة .

وفي المشهد الرابع يهدر السلطان كالجمل الهائج ويسب الشعراء جميعاً . وضع
امين قصيدة الهجاء في يده ولم يبال بشكوك المؤرخين . يا ليته فعل هذا في كثير

من المواقف فأنقذ روايته من القحط والجلب . وماذا عليه حياة الفردوسي
اسطورة وشعره اساطير .

اما الطعن في الشعراء جميعاً، والنيل منهم كلهم بلسان هذا السلطان، فما
أشبهه بعمل يوسف وهبه في رواية (الدفاع) . افسد الرجل فنه وجعل المحكمة
المصرية ملهامة وملعباً ليغمر على اللبنانيين، اذ ابرز ذلك الشاهد العنصري الديابي
الهلامي الذي اخذ صورته عن (صندوق الدنيا) .

اما المشهد الخامس في الطريق، وعندني ان يجلس رفيقا السفر : الشاعر والجمال،
لان ما قولها اياه المؤلف يقصر دونه المسرح، مهما بعد مداه . وحديث كهذا
اخلق بالجلال منه بالمشاة . المشهد جميل ولا غرابة فيه الا ان هذا الجمال - قاطع
الطريق - كان يستجوب الفردوسي ويستنطقه كالمستجن ثم يقول له : اعد الرمي ...
ولم يكن ينقصه الا ان يربته ...

وفي المشهد السادس يندم السلطان، ويأمر رئيس الديوان بأن (يعبد)
ستين الف دينار ذهباً، واذا نقص شيء فليرسل بقيمته نيلاً ...

وفي المشهد السابع تمر جنازة الفردوسي، والجمال واقف مع رفيق له يتذكر
صحبته الشاعر منذ عشر سنوات . ويأتي رسول السلطان بالمال الخ ... ما شبت
هذا المشهد الا بما يمثله اولاد النصارى في القرى يوم (سبت العازار) واظن اميناً
يتذكر مثلي ذلك ولا ينساه .

هوذا اليابسة . قد بلغنا المشهد الثامن وهو الاخير، فتنفس معي ايها القارىء
الكريم، واستعد لتنظر (الاب نوبل) ثانية ... فهذا الزمان قد ظهر بعد الف سنة .
هنا تظهر شخصية الريحاني بكل خطوطها فيقول ما يريد ان يقول، ويقرر ما يريد
ان يقرر من (الحقائق)، بلا شك ولا تجهم . لا يحسب لتقلبات الزمان حساباً .
أفلا يرى معي امين ان زمانه خرف اذ يقول : المستقبل للعلم الذي فيه خير الناس
اجمعين وحرية الامم جمعا، لا للمال المستعبد للشعوب .

هل قضى على الشعوب المستضعفة واقض مضاجعها واستعبدها واحتلبها - فنياً -
غير هذا العلم الجشع الميت الضمير، أليس باسمه يعاني الضعيف ما يعاني .

كان على الاستاذ ان يأتينا بخير ما عنده من البضاعة الفنية، ولا يضع بغم
الزمان هذا المبتذل من الكلام، ولا يسمعنا هذه التطويبات والدعوات والتسجيلات
اي فكر الزمان يا ترى ان يفخر بما جعله الريحاني يفخر به ؟ لقد بذ امين المتنبي،
وابن هاني، وكل شاعر عربي .

وبجل الرأي في هذه المسرحية انها (كدرب الصليب) ولا ينقصها الا النشيد
واللازمة، وابشع عيوبها قلة الخطوط التي تميز الاشخاص، وهذا اهم ما يتطلبه الفن
من الروائي، فهو كالمثال . واشهد انني لولا قصة الفردوسي المعروفة ما عرفته في
رواية وفاء الزمان . انها لم تظهر لنا منه غير رجل متكالب على المال، اما مثله
الاعلى في الحياة فما فهمته من هذه الرواية، ولا من قصائد الشعراء .

الوزير هنا يصلح ان يكون وزيراً في الهند او الصين ولا بأس عليه، والشاعر
ككل الشعراء بل هو والجمال سواء، والبيئة ككل مصر من الامصار الاسلامية
المستعربة . ان انطاق اشخاص من الفرس كما كانوا ينطقون منذ عشرة اجيال لمهمة
شاقة لا يحققها الا درس عميق طويل . ولهذا تله الامين في صحراء الفن مع انه لم
يته في الدهناء

اما الحوار فكان يستقيم حيناً ويلتوي غالباً، وحديث الجمال - لولا تلك
الفلسفة العالية - كان خير الحوار، فكأنني بأمين تمثل مكارياً نبياً يرافقه فأجاد
- لولا التفاسيح .

والختام لم يكن فيه شيء من (المسك)، فالزمان كان كخطيب فاته الختام
البارع، فانقض كجلود امرئ القيس، يتكلم ولا يعلم كيف ومتى ينتهي .
لقد كان على الزمان ان يبقي شيئاً في نفسه، وان لم يفعل الزمان هذا فن يفعله !!
ان الزمان في المشهد الاخير كان محاضراً لا ممثلاً .

وبعد، فقد تصادف هذه الرواية استحسان الناس - كما قالت الصحف الغراء - ولكن الفن لا يقوم باستحسان الجمهور، فالناس يسرهم ويدهشهم شيخ كالزمان طويل اللاحية يدب على العصا، ولم تدهش اللحي الطويلة، فهي وحدها رواية .

فليت أميناً كتب قصة ولم يؤلف مسرحية نيئة جفة، ليته فكر طويلاً ليقطع بالحجة اولئك الذين ينعون على العرب قلة الابداع والاختراع، منذ ايام الجاحظ .

وقصارى الكلام ليس في هذه الرواية جهود فنية بارزة تنبئنا ان صاحبها انحرف في سلك جوقة تمثيلية اميركية . فما هي غير عرض حكاية لا عمل للخيال فيها، ومشاهد متعددة، مفككة اسرع من جنازة بشار . . . لا تؤلف مسرحية ولاسيا ان الريحاني كان كالملقن الاجش، صوته لا يمتحن، واكبر عيوب الرواية ظهور شخصية المؤلف في ابطاله .

اين اختفت شاعرية الريحاني، واين توارى خياله الحصب، هذا ما سألتنيه نفسي واحترت بماذا اجيبها .

انا اعلم ان الريحاني مغامر يكتب في كل باب - حتى قال الشعر الموزون مرة في زحلة - وهو يخرج كتبه بسرعة مدهشة، فما اظن الا اکتني بلقب الفيلسوف وما اليه، ولم يجني الاطراء الجراف على الادب والادباء . انني انصح له ان يتقن ويمحص، فالغد هدام زلزال .

اما تصحيح الاخطاء المطبعية فليته تركه فقد عرف شيئاً وغابت عنه اشياء . فالزمان نسأل ان يسدل على هذه المسرحية خصلة من لحية الطويلة، وقد كان على الريحاني قبل شحنها الى ايران ان يكتب عليها - سريعة العطب -

اللهم، انها شدة شديدة فاسترها .

أبو الهول و فنيانوس

الاستاذ شكري الحوري مجاهد لبناني، بل هو شيخ المجاهدين في البرازيل .
خدم وطنه بجريده (أبو الهول) فجعل اللبناني يفكر بالوطن الأم كلما وقعت عينه
على (الحرف) الذي كتب به جدوده معبرين عن افكارهم .

كان علينا ان نتحدث عن عدد (أبو الهول التاريخي) فور صدوره، لان
صاحبه الجليل اخرجه تاريخاً للهجرة اللبنانية الثانية، بعد مرور عشرات القرون على
الهجرة الاولى التي خططت المدن والعواصم عبر البحر المتوسط . اجل بذاك يقضي
علينا عرفان الجليل والاقرار بفضل الجهاد المشر، ولكن جاء من الطبل ما اسكت
الزمر، فتمنا عنه حتى الآن .

وبعد، فلسنا ننقد اثرأ ادبياً لنؤجله شهوراً، كما جرت العادة، ولهذا نقدمه
على ما عندنا من دواوين وقصص، وآثار ادبية مختلفة . لسنا نعني بهذا ان (عدد
أبو الهول التاريخي) ليس بالكتاب الادبي، ففي هذا الكتاب الطويل العريض
كثير من الآثار الادبية كالمقالات، والقصائد، والملح، وحسبه ان يشتمل على قصة
(فنيانوس) الخالدة ليكون كتاباً أي كتاب . فهي قصة فريدة، بل هي أم
الباب، كما يعبر اصحابنا النجاة، بل هي بكر الطباعة العربية في البرازيل ،
اندلس اليوم .

القصة مكتوبة باللغة العامية ولكن اشخاصها احياء حقاً، تقرأها فتخال انك
تحدثهم وتواكلهم وتشاربهم، وبكلمة طريفة ينقلك شكري الحوري الى المحيط
الذي يصوره لك فتظن انك فيه، وانك لا تقرأ فقط بل تسمع وتنتظر ايضاً،
وهذا هو الروائي، وليكتب بآية لهجة شا .

ما احلى اعتراف ام سككا عمة فنيانوس، بطل القصة ! وما اروع حمله لها حين قصرت على طريق مار عبدا المشتري، ورحم الله الياس الفران الشاعر العامي الذي قال مرة لزوار هذا القديس العظيم، رزقنا الله شفاعته :

ان كان مار عبدا مشتري داعيكم من غير شنتان

قد لا يكون شكري الحوري من رؤوس النجاة وعلماء اللغة، ولكنه دون شك ذو حظ كبير من الفن الذي ننشده، وهو ممن يكتبون بالقلب لا باللسان . يتوخى الابداع فيبدع، وله اسلوب شخصي ظريف خفيف . تقرأ القصيح منه في هذا العدد التاريخي تحت عنوان (كيف تأسست الصحافة العربية في الارختين) وشكري هو مؤسسها . وتقرأ العامي تحت عنوان : (فاكهة جديدة) فتبدو صورة ناطقة لاجتماع لبناني في دار الغربية . وفي المقالين تبدو لك شخصية شكري الحوري من بين السطور، مثل المليح يطل من شباك، فتتضال امامك اشباح كثيرة ممن هم عند انفسهم فيخول الفصحاء .

قد تعجب لهذا التقريب لرواية فنيانوس ولما يكتبه شكري الحوري، ولكن عجبك يزول حين تعلم ان رواية فنيانوس تدرس في المدارس العليا الاوربية للمتشرقين . ليس عندي ما يقال في هذه القصة الا ان ملكة الكاتب زجت عبارتين فصيحيتين في غير محيطهما . الاولى : يقوض الممالك ويثل العروش، والثانية : ولكن ايديهم مغولة .

وتطالع عدد ابو الهول التاريخي فتعرف جهود الرجل التي ينفقها فيما يجدي وينفع . فشكري الحوري فعّال اكثر منه قوال . ترى على جبين هذا الكتاب صورة الارز باللوانها، وشكري ثابت في عقيدته كالأرز، وفي صبره كالبي الهول، وفي عزمه كنسور لبنان .

لا احصي آثاره فاعدها، انها لكثيرة، ولكنني اقول انني ممت منذ نشأتي

برعيسين لبنانيين يتحدث عنها كل مهاجر، ويرى فيها نصيراً وملجأ في الشدة :
نعوم المكرزل في الولايات المتحدة، وشكري الحوري في البرازيل .

وتلي صورة الارز صورة ابتداعية رائعة تدل على بلاغة شكري وذوقه،
وتعني عن الف مجلد ضخم، فني شطر منها يرينا اللبناني اول فتحه البرازيل، يحمل
بضاعته على ظهره، والتاجر الكبير من اللبنانيين من يقني او يستكري حماراً...
وفي الثاني كيف اصبح يسكن القصور الشاهقة وفي ساحتها السيارات الطريفة .
وقد عرفنا بهذه الصورة اذ كتب تحتها : كيف كنا وكيف صرنا . وتضي في
الكتاب فتقرأ تاريخ الهجرة المجيد، الذي اصدره الاستاذ شكري الحوري في
البلايا والمحن، تمجيذاً لامته، فتأخذك هزة الكبرياء، ويستولي عليك عنفوان الفخر .
ولا ينتصف الكتاب حتى ترى صور المعامل اللبنانية فتخال انك تطل على مصانع
سنت اتيان، وناطحات السحاب، وترداد دهشة حين يريك شكري الحوري عمال
هذه المعامل بالارقام فاذا هي الوف مؤلفة .

ان من يقرأ هذا الكتاب يتعالى امام اسمي امم الارض، فما اوفى شكري
الحوري، واعظم خدماته التي يؤديها كل عام لهذا الوطن فيرفع قدره . وانما يتمجد
الوطن بابنائه البررة الحريين .

واليك الآن كلمة خالدة قالها شكري منذ نصف قرن في اللبناني، وقد نظمها
حافظ ابراهيم شعراً، فجاءت صورة رائعة : (والله، ثم والله، لو كان للقمر طريق
لكنت ترى لبنانياً حاملاً كسّته وصاعداً اليه، وترى لبنانياً آخر قد شكّ دواته
في زناره وسار لينشئ فيه جريدة او مدرسة) .

صدقت يا استاذ، وكتابك هذا بمقام الف شاهد، فحيا الله شعباً صغيراً ناهضاً
زرع لغته في تربة العالم اجمع، وليس في الارض من يسأل عنه، بينا مدارس رعايا
الدول الاجنبية تتقاضاها الملايين ولا تفعل بعض ما فعله اللبناني .

ان عدد ابو الهول التاريخي نشيد العصامية اللبنانية الصامت ، وفي كل سطر
منه غزوة تلقي درساً على الدنيا . جزى الله خيراً هذا السباق لكل مآثرة عبقرية .
وخير كلمة اختتم بها كلامي عن شكري الحوري هي ما قاله لي احد انسابي
المهاجرين : شكري الحوري لبنان في البرازيل .

ان من كان هكذا يستحق شكر لبنان سبع مرات ، فاذا كان لدى حكومتنا
مرة تغني عن سبع فلتفعل ، وهذا اقل شيء يستحقه هذا المجاهد القائد البطل .

فلئن غنى بنو اسرائيل مزاميرهم باكين في سبي بابل ، فنحن نسمع من وراء
البحار اهازيج المجد ، ونفخر بأن جاليتنا شيدت حيث حلت مجداً عظيماً كلبنان .

يوم الاونسكو

وقد تقول يا عزيزي، وما الاونسكو !!

اممت بحديث برج بابل ؟ ان اسطورة برج بابل تجسدت حقاً بمؤتمر الاونسكو .
فها هم ممثلو اربع واربعين دولة يجتمعون في لبنان، وهم يتكلمون باربع واربعين
لساناً، وما اظن اخوان برج بابل كانوا اكثر السنة .

ان هذا اليوم كان غرة في جبهة جواد الابد، لبنان . لبنان الذي رفعه رئيسه
الشيخ بشارة خليل الحوري الى مقام الدول العظمى، حتى اصبح قبلة اربعة اقطار
المسكونة بفضل ما البسه من حلل العمران، وبفضل مطاره الدولي العظيم الذي
ربط به اقطار الدنيا، شرقاً وغرباً، قبلةً وشمالاً .

وقد تقول يا اخي، وما علاقة الاونسكو بكتابك هذا، وأنا اقول لك :
اصبر عليّ قليلاً . خذني بجملك . الاونسكو مؤسسة ثقافية تربية تعنى بالكتاب
بوجه خاص حتى انه يمكننا ان نسميها مؤسسة الكتاب . وعن طريق الكتاب،
وهو منبع الآداب والعلوم، تريد ان تمهد طريق السلام والمحبة . اذن انا لم اخرج
عن موضوعي اذا تناولت اسبوع الاونسكو بمقال في هذا الكتاب لانني اعني فيه
بالكتاب لا بالبورصة ومسك الدفاتر . . .

رحم الله المتنبي الذي قال في وصف معركة الحدد الحمراء :

تجتمع فيه كل لسن وامة فما يفهم الحداث الا التراجم

خطب ومقالات منها ما هو مترجم، ومنها ما هو موضوع بلسان العرب،
ففاضت بها انهار المجلات والصحف اللبنانية، كما فاضت باعناق المطبي الاباطيح، أما
انا فصرت على حد قول الشاعر الآخر :

تكاثر الطلاب على خراش فما يدري خراش ما يصيد

اناس من كل لون وجنس يتوافدون على مدينة الاونسكو في بيروت، فكانت
جماهيرهم تتدفق على حد قول الفرزدق :

واذا الربائع جاءني دفأعها موجاً كأنهم الجراد المرسل

جاؤوا من كل فج عميق حقاً، وأي فج اعرق من الهند، والصين، والامريكتين !
فكنت اذا دخلت مدينة الاونسكو، في ذلك الاسبوع، مشيت، قبل ان تبلى
رتاجها، بين اربع واربعين سارية تحف فوق رؤوسها اعلام الدول الاربع والاربعين،
ولا بد لك من دعم رأسك بيديك الثنتين حتى تراها .

فهناك في ذلك القصر الخالد الذي اعده صاحب الفخامة الشيخ الرئيس بشاره
خليل الحوري، سليمان لبنان، لاستقبال ممثلي ثقافة دول الارض، لا ملكة التيمن،
قامت سوق عكاظ عالمية، فكانت الاذاعة اللبنانية تنقل الى اقاصي العالم اصوات
هذا وذاك، وتصريح هؤلاء واولئك . وكان أروع ما قيل في هذا المؤتمر المنقطع
النظير خطبة رئيسنا العظيم الشيخ بشاره الكلي الثقافية والحكمة، فرأى رؤوس
ادباء العالم ورجال الفكر ان في لبنان رأساً، وأي رأس . حدث العرب بلغته
كأنه غربي أصيل لساناً، وحدث الشرق بلسان ام اللغات فخلب الابواب وسحر
العقول . اما أهم ما جاء في تلك الرسالة العالمية السامية فهو هذه الفقرات الموجهة
الى مندوبي الدول أجمع . قال، ايده الله :

« لا يسوغ للانسان بأي حال، ان يلاوي بوجهه عن الصعوبات، ولا ان يتوارى
امام المضلات، بل يتوجب عليه ان يقتحمها، وخاصة عندما يكون متوقفاً على
مجابتها مصير السلام .

فعلیکم انتم ، ممثلي منظمة الامم المتحدة للتربية والعلم والثقافة ، ان تجاوبوا
القوة الموحدة، في عالم تدعي هي السيطرة على كل ما فيه، لدى اقفل غفلة من
الانسانية عن المبادئ الاساسية، التي يجب ان تحيا بها . »

ثم تسأل عن العلم ومهمته في الحياة فقال : « ان العلم - وهو سلاح ذو حدين،
واله ذو وجهين : احدهما للاعمال العمرانية السلمية، والثاني للاعمال التدميرية - قد
حسن حياة الانسان تحسناً بالغاً، وغير وجه البسيطة، ولكن هل تناول روح
الانسان بأي تغيير ؟ فالحب والبغض والغضب والحسد ما تزال هي المسيطرة علينا .
والاطماع والاحلام الحارقة التي انتابت الشعوب منذ اغرق الازمنة قدماً، هي نفسها
التي تنتابها اليوم، بحيث يبدو علم الانسان متوقفاً عند تعاليمه البدائية، بينما
تقدمت العلوم الطبيعية والكيميائية بخطوات جبارة الى الامام . »

ثم قال : « وسنعمل من جهتنا معكم، وعن طريقكم، على ايقاظ اخوة
العصور الكبرى بين الشرق والغرب، وتوثيق علاقات البلاد العربية وسائر بلدان
الشرق الاوسط مع بقية العالم، وتعزيز المعرفة، واثاء القوى المعنوية، واخيراً خدمة
الفكر وخدمة السلام . ولباوغ هذه الاهداف نطلب من جميع الذين يحلمون
بانسانية مثلى، اي من كل منكم ومن الاونسكو بكاملها، مساعدتنا في مهمتنا
وايلاًنا الثقة . »

ثم ختم رائعته بهذه الكلمة الجامعة كل النبل والسمو : « ان البغض عقم .
الحياة الحقيقية ينبوعها الروح . المحبة اقوى من الموت . »

قال رئيس لبنان لأمم الارض : ها نحن موجودون ومستعدون لخدمة الفكر
وخدمة السلام . ولم يقل قط كنا ...

قال : انا سنعمل على ايقاظ اخوة العصور الكبرى بين الشرق والغرب .
لقد لمح الى ذلك الماضي البعيد يوم كان لبنان رسول انشاء وعمران وسلام . انه
لم يصرح لانه يستطيع ان يقول : ها انا ذا، ولا ينكر عليه احد ما يقول .

اما كتابنا فيظهر انه ضاق معهم الحرف - كما يقول القوال اللبناني - فلم
يبق لهم ما يذكرونه في معرض الفخر والابتهار الا الحرف ... لا شك في ان
الابجدية هي اعظم اختراع بشري، كما قال فولتير، اما ان تصيح دائماً حديث

الادباء والمتأدبين منا فهذا كثير . اليس لنا في الميراث البشري الا الحرف ؟
الجواب نعم لنا . اذن فلماذا نزعج بذكره الناس هذا الازعاج المنكر ؟ لقد كدت
اقول ان البشرية كلها عبيد لنا ، نحن الذين اوجدنا الحرف ، اذا صحت الكلمة
العربية الماثورة : من علمني حرفاً كنت له عبداً !!

المن يشين العطاء، والافتخار بالماضي البعيد حجة يلجأ اليها المقصر في حاضره
وما نحن بالمقصرين، والحمد لله . لقد صارت قصة الحرف في حديثنا ، او في كل
معرض افتخار، مكروهة مملولة . وما اشبهها بقصة (دجاجة موسى) التي رواها
الامام الادبي الاعظم ابو عثمان الجاحظ . قال :

(كان ابو الهذيل أهدي الى موسى دجاجة . وكانت دجاجته التي أهداها
دون ما كان يتخذ لموسى ، ولكنه بكرمه وبجسن خلقه ، اظهر التعجب من
ممنها، وطيب لجمها، وكان يعرفه بالامساك الشديد . فقال : وكيف رأيت يا ابا
عران، تلك الدجاجة ؟

قال : كانت عجباً من العجب !

فيقول : وتدرى ما جنسها، وتدرى ما أسننها، فان الدجاجة اثنا تطيب بالجنس
والسن . وتدرى بأي شيء كنا نستننها ؟

فلا يزال ابو الهذيل في هذا، والآخر، أي موسى، يضحك ضحكاً نعرفه نحن
ولا يعرفه ابو الهذيل .

وكان ابو الهذيل أسلم الناس صدراً، واوسعهم خلقاً، واسهلهم سهولة، فان
ذكروا دجاجة، قال : اين كانت يا ابا عران، من تلك الدجاجة ؟ فان ذكروا
بطة او عناقاً او جزوراً، او بقرة قال : فاین كانت هذه الجزور من الجزر من
تلك الدجاجة في الدجاج ؟

وان استسمن ابو الهذيل شيئاً من الطير والبهائم، قال : لا والله ؟ ولا تلك
الدجاجة .

وان ذكروا عذوبة الشحم، قال : عذوبة الشحم في البقر، والبط، وبطون السمك، والدجاج، ولاسيا في ذلك الجنس من الدجاج .

وان ذكروا ميلاد شي، او قدوم انسان، قال : كان ذلك بعد ان اهديتها لك بسنة . وما كان بين قدوم فلان، وبين البعثة بتلك الدجاجة الا يوم .

وهكذا كانت تلك الدجاجة مثلاً في كل شي، وتاريخياً لكل شي
وهذه قصتنا مع الحرف والابجدية نفغل عن الشخص، ونلجأ الى الاساطير لنمن على الدنيا بالحرف .

يقولون عندنا : متى افلس الرجل رجع الى دفاتر جده العتاق . اما نحن فلم نفلس، وفي دفاترنا ارقام غير هذا الرقم .

فلندع الحرف . فللبنانيين في سبيل السلام العالمي اعمال اراها اجمل من الحرف، وهي تعني (الاونسكو) اكثر من اختراع الحرف ومنحه للبشرية هدية ثمينة . اما كان اللبنانيون قديماً همزة وصل ربطت الشرق بالغرب وهذه احدى غايات الاونسكو . اما هم الذين ضرب شرايعهم البحر المصغر خدعه فاستقامت اخادعه . اما هم الذين حملوا الى الغرب حضارتهم رغم انف الاعاصير، وخططوا فيه المدن والعواصم ؟ اما هم الذين البسوه الارجوان بعد ما كان يلبس الفراء والجلود ؟ ان وقت التاجر ثمين، وهذا ما دفعهم الى اختزال الابجديات، فكانت لهم هذه الابجدية التي تبتتها الدنيا . اما اذا قرأنا تاريخ حضارتهم بامعان فاننا نرى لهم في سبيل السلام وتعريف الناس بالناس ما هو اعظم من الحرف، فلندع الحرف لئلا يصبح الحديث عنه كدجاجة مويس .

كان اللبناني اداة حضارة ورسول انسانية، ولم يكن يوماً جبار حرب، لا في فتوحاته المدنية، ولا في اقامته حول هذا الشط اللازوردي . اللبناني كان تاجراً، والتاجر مسالم طبعاً، فهو لم يفتح الدنيا عنوة بل دخلها سلباً يحمل اليها مدنية وحضارة، وثقافة وسلاماً، وهذا ما تريده او تسعى اليه دول العالم اليوم تحت اسم الاونسكو .

فاللبناني، بله الحرف، اونسكي منذ وجد . فهو رسول سلام قديماً وحديثاً،
ورجل علم وثقافة وتجارة يصل بين قارة وقارة، وبين شعب وشعب ولذلك قال
الرئيس الخالد : « وسنعمل على ايقاظ اخوة العصور الكبرى بين الشرق والغرب »
أي كما بدأنا هذا الامر نعيده .

اذن لماذا نذكر الاساطير التي ينكرها الناس ولا نقدم من حاضرتنا ما يثبت
مساهمتنا في تأييد السلام والدعوة اليه . فلندع حرمش بن ميصور، وقدموس زارع
المعرفة مع انياب ذاك الغول الذي قتله ... فلسنا والحمد لله ، رجال ماضٍ
بلا حاضِر .

فأهلاً بالاونسكو، أهلاً بحجامة نوح الحاملة غصن الزيتون، أهلاً بالآتية الينا
بسم الكتاب، فنحن الذين كنا قبلها من محبيه، ونحن الذين ملأنا به مكاتب
الغرب . ان الاديبي، منفرداً، يسبق الدول، مجتمعة، ويسبقها قروناً او قرناً الى
تأييد السلام، وكل من كتب مناً حرفاً لم يدع الا الى السلام .

لم يكن لبنان الازل محارباً، بل كان دائماً وابدأ يقابل الغزاة الفاتحين قائلاً :
حمل وخذ ما تحتاج اليه، ورح عنا . دعنا في نعيمنا السلامي . هكذا كان يعمل
احفاد حرمش بن ميصور مخترع الحرف .

عفواً لقد عدنا الى التبجح بالحرف، بل عدنا الى العصر القديم القاتم، عصر
الاساطير، فلنعد الى زماننا ولنقل اللبني اونسكي طبعاً ومولداً، لانه ابن بلد
ضيق يكاد يكون اقل من ميليستر بالنسبة الى المسكونة، ولذلك عمل سكانه
على تجنب الحروب، وانصرفوا الى صناعتهم وتجارتهم التي كانت اداة تقدمين
وتحضير وثقيف . وهذا الميل الى العلم والثقافة توارثه الاحفاد عن الآباء والاجداد .

تحلم، اول ما تحلم، المرأة اللبنانية، حين يتحرك الجنين في بطنها، بالوسائل
التي تمكنها من تعليم الصبي العتيق، حتى اذا جاء اخذت تنتظر الساعة التي يدب
فيها، فتتخلله ذاهباً الى مدرسة تحت السنديانة، وتحت ابطه كراسه . ثم يبتعد
نظرها الى الغد فتراه شاكاً الدواة في زناره، وقد اصبح كاتباً قارئاً ... ثم تراه

بعين غدها ينسخ الكتب او يعلم في المدرسة ، فتتنفض لهذه الاحلام اللذيذة -
كما انتفض العصفور بلله القطر .

فالدواة النحاسية والقلم الغزار هما حلية اللبناني وشعار مجده في ساحة الفخار،
فما لنا وحرمش بن ميصور وقدموس وزوجته هرمونية واخته اورب ... واذا
كانت غاية الاونسكو تعريف بعض الانسانية ببعض فهذا ما عمله لبنان يوم
افتتح الدنيا قبل كولب، ويوم خطط المدن وراء البحار .

واذا كانت غاية الاونسكو تعزيز التبادل الفكري بتعزيز الكتاب، فصيانه
الكتاب ونقل الثقافة من دنيا الى دنيا تلك كانت مهمتنا . كان الكتاب ولا
يزال حبيب قلبنا، فحنونا عليه في كهوف اوديتنا حنو المرضعات على الفطيم . ونحن
الذين نقلناه الى مكاتب اوربا العظمى ولولانا لقضى نجبه . فبأناملنا ولدناه .
وبأيدينا حملناه، وما زلنا ننقله من بلاد الى بلاد، ومن قارة الى قارة . قد نقلنا
الثقافة الشرقية عامة، والعربية خاصة، الى اقطار المسكونة كلها، وفي كل ذلك
كان اللبنانيون مسلمين، ولم يشهروا سيفاً . واذا كانت غاية (الاونسكو)
تعريف الشعوب ببعضها، فاي شعب لم نعرف، واية امة من امم الارض لم نخاط .
ان ما تسعى له الدول مجتمعة قد عمله لبنان منفرداً، وكان اميناً في حمل رسالة
الثقافة فكانت في طليعة موكبنا الذي لم يقف في طريق الزمن .

ان مدارسنا، منذ اقدم العصور حتى عصرنا هذا، لا تزال موارد تربية وثقافة
وعلم . نقلنا ثقافة الغرب الى الشرق، وترجمنا الى لغات العالم نفائس كتبنا العربية،
وعلمنا الناس عبر البحار لسان العرب المبين، فتشرقوا وعرفوا ان للفتنة العربية
ابيض يد على صيانة وانماء التراث الثقافي العالمي . ان لنا حاضراً جليلاً كما كان
لنا ماضٍ مجيد، ان لنا هذا البحر الابيض فلماذا نلجأ الى بحر الظلمات .

لقد كنا رسل سلام في كل آن وكل اوان، وسنظل كذلك الى دهر الداهرين .
اذا مات منا سيد قام رجل الساعة .

مرآة الضمير والمغذبون - طه حسين

نقول طه حسين كما يقولون جورج ديهامل وغيره من اعظم الكتاب، فقد اصبح في غنى عن جميع الالقاب، وان منح مؤخراً لقب باشا . اما هذا الكتاب فمجموعة مقالات أخرجها الاديب العظيم في صورة رسائل، وجميعها تنضح بالالم المر . يشبه هذا الكتاب أخاً له من قبل اسمه (جنة الشوك)، وفي هذا وهناك أشواك حادة يستحقها كل قماش عاق، نأكر للجميل . صدرت هذه المجموعة باربع رسائل كتب الدكتور تعريفاً بها هو هذا : رسائل تنسب الى الجاحظ، واراها محمولة عليه، لان تكلف التقليد فيها ظاهراً . واني اشايحه في هذا الرأي، فقد رمى فأصمى لان التقليد مستحيل . فكما لا يستطيع احد ان يقلد طه حسين وغيره، كذلك لا يستطيع طه حسين تقليد الجاحظ وغيره من سادة القلم . وهب اننا قلدنا الجاحظ في تعبيره وتفكيره فمن أين نجني . بشخصيته التي هي ملاك اسلوبه وبها تحيا كتابته .

رحم الله الطغراني، فقد سبق الى ما يحيننا به اليوم الدكتور طه، اما قال ذاك :

غاض الوفاء، وفاض الغدر وانفرجت مسافة الخلف بين القول والعمل

ودكتورنا الجليل يقول في اصحابه الذين عقوا، وكفروا وما شكروا : (قد اقاموا حياتهم على الكذب، وأجروا سيرتهم على الرياء، فهم لا يستطيعون ان يعيشوا بانفسهم ، وانما يستمدون حياتهم من المنعمين عليهم، ومن المغترين بهم، يرقون على اعناق سادتهم الذين احسنوا اليهم وبرّوا بهم وغروهم بالمعروف) .

وما اجل ما يصف لنا نموذجاً من الناس نتعثر بوجهه في اغلب الاوقات

فيقول له : « انما انت رجل محصن ، لا يبلغه العدو ، ولا يصل اليه الصديق ، واكاد اعتقد ان ليس لك عدو ولا صديق . شغلت بنفسك حتى ينس الناس منك فلم يطعم فيك طامع ، ولو قد فعل لما نال منك شيئاً » . وهذا هو اليأس المريح الذي رأيناه عند الخطيئة . ثم يقول لهذا : « انت شريكهم في العيش الرخي والحياة المقبلة ، وانت ابعد الناس عنهم حين يغالظ العيش ويعظم اليأس وتدبر الحياة » . ثم ينتقل الى وصف قلب هذا الصديق الصخري فيصفه وصفاً وافياً شافياً كشأنه حين يريد ان يصف شيئاً فيطمره حتى يكاد يغطسه بتلك التعابير المتشاكلة المتشابهة . واخيراً يتحول الى نصحه ووعظه فيقول له : « صدقني ان من الخير الكثير لك ولغيرك ان تصدع قلبك قبل ان تصدعه الاحداث ، وان تفتح قلبك قبل ان تفتح الخطوب ، وان تشعر من حولك من الناس بانك تجد بعض ما يجدون ، وتعتقد مثل ما يعتقدون . انك مثلهم خلقت من تراب وستعود الى التراب » .

ويستولي الأديب على أمد الألم واليأس فيقول : « حية وكاب وديك ، هولاء هم اصدقاؤنا القدماء . فابك ان كنت خيراً واضحك ان كنت شريراً ، وثق على كل حال بان اصدقاؤنا هولاء لم ينفردوا بما كتب عليهم من المسخ ، وانما هي محنة عامة يتمتع بها هذا الوطن البائس في كثير من بنيه » .

ان في مرآة الضمير الحديث صوراً بشعة ، وكتبه الغد ما شا . ان يرينا غير هذه البشاعة التي نراها في كل مكان وزمان ، فنغمض عيوننا ، ولكن اين يهرب قايين من عين الله ؟ فهذه العين كما صورها هيغو تحترق الجبال النحاسية لا الاسوار . اصلح الله الحال ، وعلى اديبنا المفجوع بآمانيه ، ان يصبر متمسلاً بقول الطغرائي :
والشمس رأد الضحى كالشمس في الطفل ...

المعذوبون في الارض

وهذا كتاب آخر عنوانه (المعذوبون في الارض) كتبه مؤلفه في فترات مختلفة .

في صدره فصول كتبت على غرار القصص . يريد الدكتور ان تكون هذه الفصول قصصاً، وهو يعلم انه ما هكذا تكتب القصص فيقطع الدرب على قارئه وناقده، يتغداه قبل ان يتعشا كما يقول المثل . قال في المقال الاول وعنوانه (صالح) : « لا اضع قصة فاخضعها لاصول الفن، ولو كنت اضع قصة لما التزمت اخضاعها لهذه الاصول، لاني لا أؤمن بها ولا اذعن لها، ولا اعترف بان للنقاد، مهما يكونوا، ان يرسموا لي القواعد والقوانين مهما تكن . ولا اقبل من القارئ مهما ترتفع منزلته ان يدخل بيني وبين ما احب ان اسوق من الحديث، وانما هو كلام يخطر لي فامليه ثم اذيعه . فمن شاء ان يقرأه فليقرأه، ومن ضاق بقراءته فليصرف عنه . »

ليس المعذبون في الارض الا مآسي بؤساء تنضح بالويل والعذاب، فهي كمبرات المنفلوطي شقاء، ولكن بينها يوناً شاسعاً في الفن، فطه يعرف من اين تؤكل الكتف، ولولا تمردة الجميل الذي بسطته لك، وجبه دغدغة قارئه ومداعبته والثرثرة معه - كما يعبر الفرنج - لكانت المعذبون في الارض قصصاً فنية طريفة . ولكنه يسود مثلاً سبع صفحات ليخبرنا بها عما يريد ان يحدثنا به عن المعتلة، وامّ تام . فطه وقارئه في نضال مستمر وجهد جهيد، فلا يترك ذاك القارئ حتى يعود اليه . لقد اجاد في (المعذبون في الارض) لانه اتخذ حوادثه وابطاله من شؤون يحسها ويعرفها مثل : وصف الكتائب والتعليم فيها، وطه ادري البشر بسيدنا والعريف، وهو يعلم كيف كانوا يختمون الاولاد ليحولوا دون خطر السباحة الذي كان يتهدد حياتهم . . . وقد اجاد كل الاجادة في وصف الام الضاربة بنتها الشاردة . . .

وفي هذه القصص شي كثير من العنصر الشعري الذي هو جوهر القصة . وهي تمتاز باللون المحلي الصارخ وهذا ايضاً من عناصرها ومميزاتها، وهناك تعابير طريفة يوفق اليها الدكتور فتغطي عيباً لا يستطيع التخلص منه مثل قوله مثلاً : وكان دنو امراته من الشيخوخة او دنو الشيخوخة من امراته .

ويعجبني من اديبنا العظيم في (المعذبون في الارض) تركه التنطس القديم،
ولجوه الى الفاظ تؤذي معناه وان كانت ليست من كلام العرب كقوله : خبز
خاف، بدلاً من قولهم قفار، وصينية وغيرها .

ان شخوص هذه الاقاصيص تحمل في اوراق هويتها علاماتها الفارقة، وهذا
ما لا بد منه في كتابة القصص .

في (المعذبون في الارض) ستة فصول في ثوب قصصي، وخمسة من نوع المقالة،
وفي هذه كلها يسود عنصر القص، لان طه، ايننا كتب، لا يفارق عمود القص،
فهو دائماً يحدث، واننا نسأل له طول العمر ليظل يحدث .

الوعي القومي - للدكتور زريق

الجامعة الامبركية وفومبتنا

كما يرث الفتى عن أسرته غراثر شتى كذلك يرث عن مدرسته اشباه الغرائز
فالمدرسة الرشيدة صيقل يحلو العقول المرفهة، وأم تدرب بنيتها وتسيرهم في اتجاهات
عند غايتها الخير للفرد والمجموع .

يذكرنا الدكتور قسطنطين زريق بالبلد الطيب الذي أخرج نباهه باذن ربه، فهو
ابن محيط أنبت ديك الجن في القدماء، وكرامه والجندي في فجر نهضتنا . فالدكتور
اذن عريق النسب في دنيا العلم . لست اقول دنيا الادب لان قسطنطين كما يشتم
من كتابه (الوعي القومي) راغب عن هذه الاسرة الثائرة، وان كان منها في
الصميم اسلوباً وتعبيراً . ففي كتابه هذا بروق ادبية ورعود بيانية لا بد لنا في نهاية
هذا المقال من ان نضع اصبع الدكتور عليها ليؤمن توما انه يجري في تيار الادب
الجارف من حيث لا يدري .

قلنا ان للمدرسة الاثر الثاني بل الثالث في تكوين الشخصية، والجامعة الاميركية
بيت العلم العتيق في ربوعنا، يحج اليه المؤمنون بالثقافة ومعجزاتها . كانت هذه
المؤسسة ولا تزال منبتاً للرجال، ومزرعة تغرس فيها فسائل العقول الحرة، فتصبح
الحبة شجرة انجيلية تأوي طيور السماء الى اغصانها . وقد أجاد الدكتور فياض حين
اشار الى هذا المعهد الرفيع العماد بقوله :

هذي منارة رأس بيروت وذا علم الهدى

يغبط المرء وتستولي عليه عاطفة الاكبار والاجلال حين تقع عينه على تلك
المدينة العلمية المنتثرة بيوتهما على رأس بيروت كأنها الجناث المعلقة . ولا عجب ان

رأينا كتاب (الوعي القومي) يطل علينا من بوابتها فهي منذ ست وسبعين سنة
تتاجر بهذه الوزنات . . . فالى ربيبة فنديك المستعرب أصدق التحيات واطيب
التمنيات، والى روح فنديك الذي أحب العرب ولغة العرب اسمى الاحترام وابلغ
التقدير بمناسبة مرور قرن كامل على مجيئه الينا - ١٨٤٠ - .

تمشرق الدكتور فنديك قلباً وقالباً حتى اذا نظرت الى رسمه المشهور تحالك
بحضرة شيخ من بني تميم، لا اميركي صميم . فالعرسة الاولى في حقل القومية العربية
منشأها الجامعة الاميركية وبستانيتها فنديك . والجامعة اول معهد شرقي غربي اعتمد
التأليف العلمي في لغة العرب، ودرس الطب وما يتبعه من فروع علمية باللسان العربي
المبين . ولا تزال طبعاتها العلمية القديمة في كل فن تحدث الناس بفضلها . وقد
ضمت الى تليدها ذاك طارفاً مجيداً اعني (سلسلة العلوم الشرقية) وقد اربت حلقاتها
على الاثنتي عشرة، لصاحب الوعي القومي خمس منها : تاريخ ابن الفرات ٣ اجزاء،
وامراء غسان، واليزيدية قديماً وحديثاً .

فالجامعة، ولا شك، هي اول مدرسة اجنبية عنيت بشؤون العرب وثققت شبابهم
ثقافة حرة متينة اقرب الى قوميتهم منها الى جنسيتها . وهؤلاء تلامذتها هم دعاثم
الثقافة الحرة في جميع الاقطار . واذا عدنا الى الماضي رأينا ان من بين حيطانها قد
خرج ذلك الديك الفصيح الشاعر الياس صالح، ومن على منبرها صاح في عهد الظلمة
والاستبداد - ١٨٨٨ - .

لست عبداً انا ولا أنت مولى أيها اللابس الحلى الذهبي

ثم سمعنا بعده الشاعر الآخر سليم عازر يمثل لنا مبادئ امه وتربيتها بقوله :
لا خير فيمن ليس ذا ثقة من نفسه اممعت يا نفسي !

كل هذه بذور صالحة ألقتها الجامعة الاميركية في حقل قوميتنا فحنت عليها
راية النجوم تقيها لفحة الرمضاء . لا يستطيع ان اقتش عنها كلها في هذا المقال
ولكنني اقول ان خواص هذه الذرية الطيبة تجمعت اليوم وتكتلت في كتاب الوعي

القومي الذي اخرجته الى العالم العربي استاذ - لا نغالي اذا قلنا انه نموذج الشباب الراقي - .

فكتابه هذا وليد بضع عشرات سنين تناوبت على الجامعة الاميركية في اطوارها العديدة، من مدرسة تبشيرية، الى كلية انجيلية، الى جامعة اميركية، وحسبها بهذا الاسم شرفاً ومجداً . فهو اذن عصارة فكرة موجات متعددة حبلت بها الازدهان فانتجها الدكتور زريق سفيراً جليلاً أتى بها الى العالم العربي في نهضة موافقة، فاستقبله بالحفاوة التي تليق به كما تستقبل كل رسالة سامية . فنحن اليوم احوج الى الوعي القومي من كل شيء . لاننا امة بلا وعي . او قل وعينا قليل جداً، فاتحادنا نشأ عن فتوحات جبرية ألغت مجموعتنا الموقت، فكان سريع الانحلال لانه لم يكتسب الروح القومية .

قد تظنني استحلت بين ليلة وضحاها عالماً اجتماعياً، لا يا مولاي، فما انا منهم . هذا رأي لغوستاف لبيون في تكون الجماعات فذار ان تنسبه لي . واسمح لي بالعود الى موضوعي لا قول بلا تحفظ : ان الجامعة الاميركية كانت اول موقظ للوعي القومي وما برحت . والوعي القومي لا يكون في ناحية واحدة من نواحي الثقافة، وهذه النواحي كلها ابرزها للعالم تلامذة الجامعة الاميركية من الشيل الى صروف وغر وزيدان وغيرهم . فبارك الله في قسطنطين الذي فتح لنا هذه البوابة لنطل منها على مدينة العلم، ونعرف الناس، وهم يعرفون، باسماء رجالها الذين كانوا قدوة حسنة، والقدوة كبيرة معلمي الوعي القومي .

لا اظن ان مدرسة اخرى من مدارسنا اجنبية ووطنية عنيت بالتاريخ عناية الجامعة الاميركية به . فله فيها اساتذة اختصاصيون لا عمل لهم الا درس تاريخنا والتأليف فيه، لا نذكر لك الا واحداً منهم هو الدكتور رستم الذي يستحق لقب الاستاذ في هذا الفن لتأليفه بل لاستنباطه كتابه الرائع (مصطلح التاريخ) الذي نحدثك عنه فيما بعد . اما الآن فنحن مع الدكتور زريق زميل رستم اليوم في تعليم التاريخ وتلميذه الأنبة امس . ما جرتي الى ذكر التاريخ الا كتاب الوعي القومي

الذي لا يستطيع ان يصدره على حقه غير استاذ في التاريخ ، واستاذ مفكر
 كقسطنطين . فدرس التاريخ ابعد اثر في تكوين الامة والشعوب ، وفي تعلمه
 وتعليمه عبر وفوائد وتقويم اعوجاج وسد خلل . . . هذا اذا كان مدرسه كحتم
 ورسم وزريق فلا يعتمدون على الرواية والنقل : (حيث يلتقي البطالان كأنهم جبالان
 ويتنازل الفرسان اثنين اثنين ويحوم على رؤوسهم غراب البين) .
 فدرس التاريخ النبى لا بد له من ان ينتهي الى فلسفة اجتماعية كما انتهى
 الدكتور زريق في (الوعي القومي) .

(الوعي القومي) كتاب اخرجته دار المكشوف فيا اخرجت من طرف ونفائس ،
 فرحب به العالم العربي فنقدت طبعته الاولى فور صدوره واعيد طبعه بعد بضعة
 اشهر واظنه نقد ايضاً .

ان للكلمات حياة وموتاً . فكلمة الوعي واللاوعي قلقة مرحة ، وهي تسيل
 اليوم على اقلامنا كثرأ عذباً . رحم الله اسقف نجران القائل : ايها الناس اسمعوا
 (وعوا) . . . وبعد اجيال تترى تحلح هذه الكلمة اكفانها وتنبعث فنجبها ونعشقها .
 كثيراً ما اسمع الناس يقولون هذا حكي بلا وعي ، وكأني بقسطنطين قد رأى هذه
 الامة تحكي بلا وعي فانبرى يعلمها كيف يجب ان تعتمد على عقلها الواعي فلا
 تسقط من على الجدران حيث تمشي بلا وعي . . .

فلندع هذا الى الفصل الآتي ، اما الآن فلننظر في صيغة الكتاب الفنية :

الكتاب كالرجل يستدل بصورته الخارجية على خفايا نفسه ومطاميه ، وكتاب
 الوعي القومي ان لم يكن اثرأ فنياً بالقصد فهو اثر فني برغم صاحبه الذي لم يردده
 كذلك . وهذا الاستاذ على ثقافته الغربية العميقة ، وعلى تخرجه من جامعات
 اجنبية يلوح لي من اسلوبه في الوعي القومي انه ليس من رعايا الاجانب في ادبه
 وبيانه ، ولا يدفع الجزية لا لاميروكا ولا للندن ، بل هو عربي تفكيراً وتعبيراً ،

أي انه غير مديون بشيء، تقريباً، للغة التي توسل بها الى احراز درجاته العلمية الرفيعة . ولا خوف علي ان ذهبت الى ابعد من ذلك وقلت : انه غير مديون الا بمقدار التعابير العربية المعروفة، ولا لتلك القوالب المألوفة، فكثيراً ما اراه يتخلص منها مع انها في متناوله اذا شاء، ولكنه يؤثر ان يعبر كما يحكي ونعم العمل عمله، فقد اراحنا من تلك الصور الهرمة الكثرية .

يشور قسطنطين اذ يرى محصولنا الادبي يطغى على اسواقنا، فيواجه التيار ليصده، ولكن عبقريته الادبية ترفع رأسها عندما يضطرم وجدان صاحبها فيتفجر حديثه تفجراً فنياً ليس في التعبير فقط، بل في الاخراج ايضاً، وهالك المثل :

(في موقع ممتاز من الكرة الارضية، وعلى ملتقى الطرق بين الشرق والغرب، وفي وسط مجاري الثقافة والمدنية، تحيا امة قد كسرت عصارة ماضيها، وتقبلت وحي تاريخها وادركت كنه حاضرها، وعرفت جوهر العالم الذي فيها والذي حولها، وتطلعت الى مستقبلها بنظر ممدود ابدأ الى الامام، وقوة مستمدة من هدف منصوب وخطة مرسومة . امة قد نالت الاستقلال فعرفت معنى الاستقلال واحزت الوحدة فادركت معنى غاية الوحدة . امة قد اخترقها اشعة الحرية فلم تقف عند المادة والجسد، بل اضاءت العقول واثارت الارواح . امة قد علمت ان السيادة الحققة هي سيادتها على نفسها الصادرة عن فهمها سبب وجودها وماهية كيانها . امة قد امتلأت قلوب افرادها بايمان كل حبة منه تنقل الجبال، وعلى جبين رجالها ونسائها ضياء كل قبس منه يهدي الاجيال . امة يكفيننا في وصفها ان نقول : قد سرى في نفسها الوعي القومي الكامل . هذا ما يزيد الامة العربية ان تكون . بل هذا ما سوف تكون) (الوعي القومي ص ٥٩) .

واليك نموذجاً آخر، وما اكثرها في الوعي القومي، فعند كل طغيان وجداني يقف الدكتور هذه المواقف الجياشة، يهيب بامته لتستيقظ :

(هذا الارتباط الوثيق بمثل اعلى، هذه القوة التي تؤلف مدارك النفس ومشاعرها

وتوجهها جميعاً الى غاية واحدة، وتظهر كل ما ينبعث فيها من اهواء ورغبات في بوتقة الرغبة الوحيدة الكاملة التي لا تبدل ولا تتزعزع، هذه هي : العقيدة .
أرأيت رجلاً يزدرى ميوله الشخصية واهواءه الفردية في سبيل ما يعتقد انه الحق ؟
اممعت برجل يضحي بماله وراحته - بل بحياته - لنشر لواء الحرية والعدل ،
أدهشك شخص يحتقر جميع نعم الدنيا للعمل في خدمة بلاده ونهضة امته ؟ هذا
وذاك، وذلك، هم رجال العقيدة . هم قومة الله على ارضه واوصياؤه على شعبه .
هم قبس النور العلوي يشع على الناس لينير الظلمات التي تكتنفهم ويهديهم سواء
السبيل) (ص ٢٢٦) .

هذه شذرة من فصل (ازمة الروح) التي يبلغ فيها قسطنطين ذروة عالية
جداً من ذرى الاخلاص، واخلال وجدانه فيها وجدان نبي . فرج الله ازمتنا
وازمتك يا قسطنطين .

ومع ان الدكتور هو اخو البيان الرائع الذي رأيتُه يقول في (ص ٤٩) احد
فصول كتابه : « وان كنت اخشى شيئاً فهو هذا الطغيان الادبي الذي يسود حياتنا
العقلية . »

اما انا فاقول : كان الوعي القومي عندنا قصائد حماسية نطجن بها العالم
طحناً . . . ! فصار مع قسطنطين حكمة رائعة ، وفلسفة مطمئنة ، وثورة هادئة
جارفة كنهز العاصي الذي اثر في ربيه فطبعه بهذا الطابع الرصين . وكيفما دارت
الحال بكتابه (الوعي القومي) فهو اثر ادبي رفيع يبحث في الاجتماع . وان نعى
قسطنطين على قومه تفكيرهم المفكك المتقطع ، فهو في اثره هذا لا يعدو ان
يكون ادبياً اصيلاً ، ولكن (تفكيره منظم) .

فالدكتور زريق اديب رغماً عنه، كطبيب مولير وشتان ما بين اليزيديين في
الندى . . .

الوعي القومي في المتن وعلى الهامش

ادبل العرب من الفرس وانطفأت النار من ايوانهم فاستعربوا مكرهين .
واول ما عملوه في عهد عربتهم تاريخ ايامهم واجادهم ليفاخوا بها اسيادهم العرب .
ثم انتفض شاعرهم (الجاموس) يخور على شط العرب :

الا ايها السائي، جاهداً، ليعرفني، أنا انف الكرم
نمت في الكرام بني عامر فروعي، واصلي قریش العجم
ثم انتفج في مقام آخر فاسمعنا :

وربّ ذي تاج كريم الجد كآل كسرى وكآل برد
هذا اول (وعي قومي) تنبه في ذلك الفرد فست العدوى الى الجماعة .
ثم اتمعنا شاعر آخر :

ومن تميم، ومن قيس ولفهما ليس الاعارب عند الله من احد
وهكذا استحال وعي الشعوبية عتاً يأكل حواشي البساط العربي، ثم ما انفك
يقرضه حتى أتى عليه كله . لم ينفعنا الفتك بابي مسلم، ولا استئصال البرامكة،
ولا القضاء على ابن سهل، لان وعي تلك الدول المقهورة استيقظ بعد الكبت،
ففكك عرى ملك العرب وتفتق بجادهم .

ان التاريخ معلم الشعوب ومن هذه الزاوية يطل الدكتور زريق على الوعي
القومي، فهو استاذ التاريخ لحقبة في تاريخ الشرق كانت اشد الازم . فكان كل
ما كتبه واذاعه هذا الاستاذ من تاريخ ابن الفرات الى تلك النبذة الطيبة (امراء
غسان) حتى كتاب اليزيدية، رسالة نبيلة هدفها بعث روح القومية فينا، وتوجيهها
في الطريق الأسد، وتكوينها تكويناً علمياً بحيث تنطبق النتائج على المقدمات .

يرى الدكتور (اننا لا نزال مقصرين في حق الرسالة الفكرية واننا لم نتعود بعد ان نغذي عملنا الفكري بدم القلب وعصارة الروح) (٨) . وبكل اتضاع واثقان يعد كتابه هذا (فصولاً متفرقة لا تستوعب جميع المسائل الاساسية التي تتصل بهذا الموضوع الخطير) (١٠) . وككل امين من افراد هذه الأمة آله ما رأى (من تشتت في الآراء والفكر، ومن تصادم في النزعات والاهواء : فكل منا يسير في وجهة، وكل يتكلم بلسان، وليس لنا موقف ثابت او رأي موحد ازاء هذا الاضطراب الهائل الذي يثور في العالم) (١٢) . وعنده : (ان حياتنا كلها تتوقف على ما نصيب من رأي جامع، وفكرة قوية واضحة لا تبقى في اذهاننا فحسب، بل تتعمق الى صميم نفوسنا) (١٣) . وآقتنا : (ان حفظنا من الثقافة لا يزال في غاية الضالة) (١٤) فنحن في ازمتين اقتصادية وثقافية) . ونحن اشد حاجة الى (وجوب الاسراع في معالجة مشكلتنا القومية، والانصباب على البحث المنظم في مسائل حياتنا الاساسية لنصل بهما الى العقيدة الموحدة الواضحة التي عليها - وعليها وحدها - يقام العمل المنظم لبناء الامة وانهاض البلاد) (١٥) . فكل ما ينشده الدكتور في الوعي القومي هو العقيدة، ويرى في العقيدة، اللهم الصادقة، كل خير وبرة لهذه الامة .

وما هذه العقيدة يا ترى ؟ اني ارى اسم (الهدف) أبقى بها فتكون اقرب الى افهامنا جميعاً، ثم لا تلتبس بغيرها . . .

هذا ما يعنيه الدكتور، وآقتنا نحن العرب، ان لكل معشر منها هدفاً، ومتى تعددت الاهداف تفرقت القوى المنصبة عليها فلا يدرك واحد منها ، وهذا بلاؤنا الاكبر .

ولخص المؤلف، في مقدمة الطبعة الاولى، اركان كتابه، فاذا هي هذا المثلث : الفلسفة القومية، والعقيدة القومية، والتنظيم . وقد حدّده بقوله : (وانما هي نظرات القيتها على حياتنا القومية، ثم ملمستها وجمعتها بين دفتي كتاب) (٢٧) .

انها كذلك، ولكنها نظرات نافذة لا تقصر عن اشعة اكس الا قليلاً...
فن هذه المقالة وتلك وهاتيك تتألف وحدة تامة، فتداعي المعاني وتسلسلها وتربطها
بؤهل مقالاته هذه لتحمل بكل جدارة اسم كتاب، بل قل (كتاب الامة) لمن
يقرأ ويعي . ففيها (التفكير المنظم) والتناسق اللذان هما ضالة اديبنا المفكر
التي ينشدها لامته، ليستقيم وعيها القومي الذي هو : (فهم صحيح لماضي الامة
الذي تحدرت منه شخصيتها، وتقدير متزن لقوى الحاضر وعوامله، وإيمان متين
بهدف الغد ورسالة المستقبل) (٥٦) .

ويصور الدكتور رسالتنا الماضية الكبرى، ثم يعتقد ان ستكون مثلها رسالة
العرب المستقبلية، اي : (ان يتشربوا علم الغرب ويجمعوا اليه العناصر المختلفة التي
تنشأ في الغرب والشرق كرد فعل له، ويؤلفوا بينها كلها في وحدة جديدة تكون
عنوان الحياة المقبلة ويفيض بها العرب على العالم كما فاضوا عليه بمدنيتهم الباهرة في
القرون الماضية) (٥٥) .

قلت : وبالله نستعين، قد عودنا جلّ جلاله ان يكون معنا، فلنسأله، كروزفلت،
ظهراً قوياً . غير أنني اميل الى كلمة الاستاذ التي تليها وهي : (فحسبنا ان نعتقد
ان لنا رسالة ما) (٥٥)

ولا يحصر المؤلف ايقاظ الوعي القومي بفئة دون أخرى، فليس هو من اختصاص
قادة السياسة وارباب الحكم فجال العمل مفتوح لكل فرد، وبخاصة المرأة .
ولكن الدكتور يقف عند باب خدر المرأة العربية ولا يدخله تأديباً... فيبحث
تقصيرها في هذا الحقل بكل تودة، كأنه يخاف ان تفلت منه كلمة، فلا يلتام ما
جرح اللسان...

ذكرني وقوفي عند فصل (المرأة العربية في الحياة القومية) بصديقي ا. ل .
اراد ان يكتب تاريخ الدولة العثمانية . قلت له : وكيف تتخلص يا بك من
انكساراتها ومن ومن... فقال سأجعل عنوان تاريخي : انتصارات الدولة، ثم
فعل، ولكن خاتمة الحرب الاولى خنقت ذلك الطفل في المهد .

وعالج الدكتور (التربية القومية) فأبدى آراء طيبة لا تستقيم لنا قومية بدونها
وانحى على التربية الطائفية ذلك البرص الذي لا بر منه معتمداً على قول شارل
مريام الذي يرى التربية القومية اجل اعمال القادة والعلماء الذين يبنون امم المستقبل .

وبحث الدكتور موضوع (القومية والجنس) بحثاً علمياً يكاد يكون بكتريولوجياً،
فاظهر ان العرب والفينيقيين هم سلالة واحدة . وقد جعل (على هامش الدعوة
الفينيقية في لبنان) عنواناً صغيراً لمقاله هذا . فعجبت جداً لاهتمام الدكتور بما لا
يدرك ، ودهشت لحُصه لبنان العربي بهذه الدعوة التي حلم بها نفر يزمرون للجالس
سعيداً، ويكسرون الحجرة خلف المولي ... فاین هم دعاء الفينيقية في لبنان ،
وهل للفينيقية عندنا من اثر الا في شعر من تغزلوا بالزهرة وادونيس كما فعل
شكسبير ولافونتين قبلهم . واذا كان فينا نفر ممن غنوا هذا (الموأل) أيعني هذا
ان لبنان يتخلى عن عروبه، وله فيها ذلك المقام المرموق والتراث الذي يفاخر به
كل ناطق بالضاد !! ان نظر بعضنا الى ماضي فينيقية فكمن ينظر الى قلعة قديمة
في قريته، ولكن داره التي يعيش فيها هي غير تلك . ولماذا اختار الدكتور
فينيقية لبنان ولم يذكر فرعونية مصر، مع ان لتلك انصاراً اعظم خطراً . ان
المتفينيقيين مناً لا يفهمون ما الدم، ولا الجنس، ولا الرأس المستطيل والمدور والمسطح
والمقعر . هم فينا كأولئك الذين لا يسون الرجل عربياً الا اذا استوعب جميع
المقومات التي يفرضونها . اما اذا كان قد استعرب منذ الف سنة ولم تجتمع فيه
شروطهم فهو غير عربي . مع ان النبي العظيم الذي هو مجدنا وخرننا من العرب
المستعربة ... فهو لا . واولئك عندي هم الذين جنوا ويجنون على قوميتنا .

ان من يقيم في اميركا خمس سنين يتأمرك ويصير منتخباً ومنتخباً، اما عندنا
فيظل غير عربي الى ما شاء الله . وهذه جنایة كبرى نرتكبها ونحسب اننا لم
نأتِ أمراً فرياً . وهذا التفريق الذي رافق العقلية منذ عهد بني امية هو الذي
فسخ جسم هذه الامة . والعرب والمستعربون - لا المتفينيقيون - يعرفون ان كلمة

الشعبوية كانت اول شق في جدار الامة العربية . فبعض العرب هم الذين دانوا بهذه الفكرة فأثموا وجنوا، في حين ان الدين سوى بين الجميع . وهم لو ضحكوا على ذقون المستعربين لضوهم اليهم راضين . فما كان ضرهم لو خلعوا عليهم العروبة واجتذبوهم الى صفوفهم .

ان ما بنته الاجيال لا نستطيع نحن ان نهدمه . فالعربي، - وكلنا ذاك الرجل - يعتقد ان دمه صنع خصيصاً له دون سواه من البشر . اسمع كلام الجاحظ : « واشد سرفاً منه قول ابي بكر الشيباني قال : كنت اسيراً مع بني عم لي من بني شيبان - وفينا من مواليها جماعة - في ايدي التغالبة . فضربوا اعناق بني عمي واعناق الموالي على وهدة من الارض فكنت، والذي لا اله الا هو، ارى دم العربي يناز من دم الموالي حتى ارى بياض الارض بينهما . فاذا كان هجيناً قام فوقه ولم يعتزل » (كتاب العصا ص ٣٠) .

الى امثال هذا فلتسد النوائح . فاللبناني يفاخر بلغته وقد حملها الى هجرته العالمية واذاها في جميع بلاد الله . ونحن، بعد، غير مسؤولين عن البدع .

ويتمشى الدكتور فيعرج على (العمل القومي والمشاريع الاجتماعية) فيحدثنا عن مشروع انعاش القرى الذي نهض باعبائه فريق من شباب الجامعة الاميركية المثقف، فربط بين الشباب وبين الناس على اختلاف الملل والنحل . وينتقل الى القومية العربية والدين، فالى التراث الثقافي العربي، وما يجب علينا لحفظه وحياته، ويبحث الناس على حفظ المخطوطات القديمة، ولكن بعد ذهاب الوقت وتسربها الى مكاتب العالم هنا وهناك، فكل ما كان في ديورتنا اصبح في غير حوزتنا، حتى حجارة كنائسنا الاثرية وعتبات ابوابها التاريخية سُلخت من بنيانها منذ عشرات السنين .

وفي (احياء ثقافتنا) يبحث الاستاذ ادباءنا الملهمين (لينقلوها الى ابناء العربية بلغة هذا العصر واسلوبه وطريقة تفكيره) وهذا في نظري تقويت لا احياء . كما فعلت فئة من ادباء مصر وغيرهم فلسخوا ومسحوا وشوهوا .

وفي فصل (ضالة ثقافتنا العلمية) يرى الاستاذ، ورأيه حق، ان ثقافتنا العلمية ضئيلة، ويهيب بنا لنقبل عليها . ولكنني ألفت فأرى سلسلة العلوم الشرقية التي اصدرتها الجامعة الاميركية اكثرها ادبي . وعلى الضد كان الامر في عهد فنديك أي في فجر حياة الجامعة عندنا . وما حدثت تلك الثورة الشهيرة وانتهت بتخلي فنديك عن منصبه الا لهذا السبب . اما اقبالنا على الادب وأكلنا منه حتى البشم فكما وصفه الدكتور، وهذا بعض ما قال :

(فلا يكاد يخرج الطالب الادبي من مدرسته حتى يهرع الى الصحف والمجلات يتحفها ببينات افكاره الفجة، فتنتشرها له هذه المجلات وتزيد بذلك غروره، وغرور امثاله من الذين يعتقدون ان الادب مطية سهلة، وان مجال البحث متسع لمن شاء، هذا مع ان الابحاث الادبية هي في الحق اشد دقة ويجب ان تكون ابعد مثالا من الابحاث العلمية) (راجع الكتاب ص ١٦٧) .

وينتقل بنا الاستاذ الى فصل (الادب التوجيهي وحاجتنا اليه) وقد ظن بعض من نظروا في كتاب الوعي القومي ان الادب التوجيهي شيء لم يكن من قبل، مع ان اسلافنا في اواخر القرن الماضي واولئل هذا القرن كانت كتاباتهم من هذا النوع - ادب المقالات - ولم يسموها بهذا الاسم .

الا يشبه هذا ذاك الشامي - بلغة المصريين - الذي قرأ في بيان مطعم بالقاهرة :
بطاطا بقميص النوم، فاعجبه الاسم، اما المستى فكان مأكوله اليومي : بطاطا مسلوقة .

غير ان قسطنطين يريد، وهذا شعاره في الوعي القومي، ان تكون جميع ابحاث ادبنا التوجيهي عميقة منظمة، وهذا ما ينتقنا في كل فن ومطلب، وما اجمل قوله :
(ان عصرنا عصر ازمة فكرية وضيق عقلي . وكما انه لا يسمح للناس في زمن الازمة المالية ان يبذروا اموالهم في سبيل شهواتهم الخاصة، وامورهم التافهة، كذلك يجب

ان لا يسمح لقادة الفكر في عصر الضيق العقلي والازمة الفكرية ان يبددوا قواهم في المسائل الطفيفة والابحاث الجزئية (١٧٧) .
قلت وهذه « اعاشة » جديدة يفرضها الدكتور في الفنون، اراحنا الله من التقنين المادي والعقلي .

اما فصل (الثقافة الصحيحة وعناصرها) فجدير بأن نقرأه جميعنا ونتعلم منه درساً مفيداً . والدكتور يريد الثقافة للحق والخير والجمال، ويشمل بقول الغزالي: طلبنا العلم لغير الله، فأبى ان يكون الا لله .

وعلى ذكر الغزالي اقول اني لمحت في الوعي القومي عنصراً فلسفياً عربياً في التعبير كالاشراف والفيض وغير ذلك فلا غرو ان اراد الثقافة للحق والخير، فاخلاصه لما يكتب ويعلم يحيز لنا ان نلقبه برجل العقيدة . وحسبك ان تقرأ (ازمة الروح) لتعلم انك تجاه رجل العقيدة و (الجهاد الاكبر) المتقد ايماناً واخلاصاً وصدقاً حتى يبلغ في (القومية) ما بلغ الصوفيون في حب الله . فيقول : (والرجل الامثل هو الذي يشمل عالمه الكون بأسره والبشر بكاملهم) (٢٢١) .

انا لا افكر تفكيراً منظماً ولا فلسفياً، ومع ذلك يجوز لي ان اقول ان هذا الشمول ينافي الوعي القومي، ويحق لنا ان نسميه وعياً عالمياً . والدكتور في (ازمة الروح) طيب روحاني ينتج بالايجاء . فلا تنتهي من قراءة مقاله هذا الا وانت بريء من جميع العاهات القومية، والامراض العارضة، وقد رصعه بكلمة رسول الامم : ان كنت اتكلم بالسنة الناس والملائكة ولكن ليس لي محبة فقد صرت نجاساً يطن او صنجاناً يرن (٢٢٩) .

الكلام لبولس ولا ادري لماذا لم ينسبه الدكتور اليه بل قال : وقدماً قيل في الكتب . ومثل هذا فعل خين اخذ : تعرفون الحق والحق يحوركم .

اسمع قوله في ختام ازمة الروح :

(ما اكثر من سئلو شفاههم ابتسامة الشك والهزء عند قراءتهم هذا الفصل ومتابعتهم حديث (الازمة الروحية) لاعتقادهم ان معضلة امتهم الكبرى هي المشكلة السياسية او الازمة الاقتصادية، وان المادة هي اساس الحياة وان الحديث عن النفس والروح ضرب من العبث او نوع من الهراء.) (٢٣٠) .

لا والله، ما يقول ذلك الا السطحيون منا . فالمسيح ومحمد كانا فقيرين، وكل عباقرة العالم كذلك، فقل ما شئت في ازمة الروح . انما نحن بلاء . انفسنا لانسانا ناس بلا محبة . الويل لكتابك يا اخي من الذين لا يقرأون ما بين السطور، فـ (ازمة الروح) فصلاً او مقالاً ان هي الا « سفر » بمعناه المعروف في الكتاب المقدس .

وفي فصل (الجهاد الاكبر) تظهر لنا خصائص هذا الاديب الكبير المبنية على علم النفس وهو ايضاً فصل نفيس يبحث الاخلاق بحثاً جليلاً، وان اراد الاستاذ فيه الرجل العربي كالساعة تؤدة بينا هو مخلوق كالعاصفة .

وبكلمة واحدة ان الدكتور زريق ينشد (التفكير المنظم) والتفكير المنظم قوام كتابه هذا . ولا اسرف ان قلت انه خير كتاب ينفع الامة ولله الحجز الاول في هذا البنيان، وكيف لا يخرج اثر نفيس كهذا من بين يدي اديب مثقف وكاتب هادئ تجمعت في شخصيته الفذة قوى المنطق وعلم النفس والفلسفة، فانتظم تفكيره واتسق، وتساوت فيه قوى المرء الثلاث : العقل والوجدان والارادة .

ولقد طلب منا في (مقال ازمة الروح) ما طلبه يسوع فلا بأس عليه . ليت الامم تعلم، كما قال فولتير : ان هذه الفوارق التي لا تنظر لا يجب ان تكون سبب البغض والجور .

مُصْطَلَحُ التَّارِيخِ - لِرَسْمِ

منذ بضع عشرة سنة رأيت الدكتور اسد رسم اول مرة . كان ذلك في (عبرة) التي فوق صيدا، وكانت شهرة رسم في اول هبوبها، فقلت عند التعارف تلك العبارة المبتذلة : اشهر من ان يعرف . فبادهني بقوله : ان سوريا مجوفة . وكان حديث لم يخل من الملح البريئة .

هيكل رسم الركين ينم عن خصال مؤهلة للتجسس العنيف، وفي حديثه نبرات كتلك التي يعبر بها المطرب عن فنه الرفيع . واذا كان النبوغ يحتاج الى صبر وجلد، بله الذكا. وبعد النظر، فقد أبدى رسم كل هذا فيا حقق ونشر من (اصول تاريخية). اما كتابه مصطلح التاريخ فيجعله بحق استاذ التاريخ العلمي عند العرب، وقد تجاوز صداه سوريا المجوفة فلا الامصار الاخرى .

مصطلح التاريخ او علم الميثودولوجيا علم وضع للتثبت من الحقائق التاريخية وايضاها وعرضها . استنبطه العلامة برنهام المؤرخ الالماني في النصف الثاني من القرن المنصرم . ثم سار على خطاه العلامة لانجوا وسنيوبوس الفرنسيان، وعلى هذين اعتمد رسم، ولم يشر الى هذا . اما الذين ألفوا في هذا العلم بأمركا وانكلترا فقد قدموا كتبهم لذكرى برنهام ابي الميثودولوجيا .

ان للعربية الفخر بظهور زميل لهؤلاء النوابغ فيها . اننا لم نقصر في مضمار التاريخ القديم وما نحن اليوم نجول في حلبة التاريخ الحديث بلسان عربي مبين .

وهذه مناسبة ثالثة او رابعة نحملنا على تجميع كيل الثناء للجامعة الاميركية التي اظلت الدكتور رسم وكشفت عن عبقريته، ففيها درس هذا العلم على احدث اساليبه، وفيها يتبوأ اليوم كرسي علم الميثودولوجيا الذي ألف فيه كتابه هذا،

فجاء شرقياً غريباً أحل صاحبه في التاريخ محل سيويه من النجاة . فقبل ان يخرج رسم كتاب مصطلح التاريخ مطبوعاً على الورق طبعه في اذهان شباب سيكونون من مفاخر الاقطار العربية . وهذا فضل آخر نسجله للجامعة التي لا يجاريها معهد في هذا المضمار .

حدثني صديقي الاستاذ يوسف صوراتي استاذ اللغة الانكليزية والتاريخ عندنا، ان استاذة الدكتور رسم يؤمن بالاختصاص، وخصوصاً الضيق النطاق، وهو من الحاضين عليه، ولهذا جعل همه درس دور تاريخي خطير من ادوار تاريخ سوريا - دور الفتح المصري للبلاد الشامية - انها حقبة قصيرة من الزمن ولكن اخرج (الاصول العربية لتاريخ سوريا على عهد محمد علي باشا) في خمسة مجلدات، اقتضى الاستاذ ألف مرحلة فلم تبق في القطرين مكتبة، خاصة او عامة، كبرى او صغرى، لم يشق رسم غبارها .

لقد نشر الدكتور رسم اكثر مما ألف، والاحجام عن التأليف التاريخي قبل توفر الاصول وتحريها هو من الفضائل النادرة بين المؤرخين وخص الشرقيين منهم .

من مطالعة توطئة مصطلح التاريخ يبدو لنا ان تخيلة المؤلف حبلت بهذا الطفل الميمون مئة وثلاثة وخمسين شهراً . ثم خشي ان يجي . طرْحاً فتريث في الامر (فبدأ بتدريس هذا الموضوع بلغة اجنبية ربما تتوفر لديه الامثلة التاريخية المحلية والاصطلاحات العربية الفنية فاضطر الى ان يرجع الى مصطلح الحديث الشريف لسبين : اولها الاستعانة باصطلاحات المحدثين، والثاني ربط ما يضعه لأول مرة في اللغة العربية بما سبق تأليفه في عصور المحدثين) .

لا يدعي رسم انه مبدع هذا العلم كما رأيت، اما نحن فندعي ان هذا المؤرخ الكبير ابداع كل الابداع بوصله حاضرننا باضيننا، فأرانا ان علماء الحديث نهجوا نهج برنهام ومدرسته . نبش عن منتوجات تلك الادمغة التي كان يحدها الايمان ويزجيها اليقين، مطابقاً بين العاملين بما توج به كتابه النفيس : الحديث علم ودراية،

والتاريخ علم ودراية . ففي كتاب رستم جدة وابداع : جدة اذ وضع لنا اصول علم طريف، والابداع في احياء فن عرفه علماءنا القدماء قبل علماء التاريخ المعاصرين . ناهيك بما في الكتاب من امثلة محلية كثيرة جعلها الاستاذ الكبير كتمانين للمؤرخ المستجد . ولو كان رستم يؤثر الراحة على الافادة والاتقان لاكتفى بترجمة الامثلة التاريخية الواردة في الكتب التي يعلمها حتى حفظها كالماء الجاري .

تعودنا ان نلخص ما ننقد حتى القصص فكيف بنا ونحن ندرس كتاباً هو الاول من طرازه بل من نوعه في مكتبتنا العربية ، هو الابن البكر للتاريخ الحديث . ففي كلمة المؤلف يلجح الى قصر باع اكثر مؤرخينا الشرقيين في هذا العلم، والى زعمهم الخاطي* (ان كتابة التاريخ لا تتعدى نقل الرواية والامام بقواعد اللغة) .

قلت هكذا علمتهم مدارسهم التي تؤثر دائماً الفصاحة على العلم، فتعهد بتدريس التاريخ وغيره الى المتفقيمين وذوي الامام . كنت اتقي على المؤلف ان يكتب لنا تاريخ علم المتودولوجيا وآثار اقطابه العالمين الذين اصبح هو احدهم بكل غفر، ولكنه تنصل من هذه التبعة زاعماً ان كتابه هذا رسالة . وكما اضاع تواضع العلماء من فائدة . فهم يشكرو كتابه ؟ ان صفحاته فوق المثنيين من القطع الوسط الكبير .

فبناءً على ما يعلمنا رستم لا بد للمؤرخ ان يلجح احد عشر باباً اولها : التقميش : والتقميش كلمة من اصطلاح المحدثين قالها ابو الحاتم الرازي ومعناها جمع المواد . قلت لم يكن الله سبحانه وتعالى اول من قمش، من قرأ الفصل الاول من سفر التكوين يعلم انه، جل وعلا، فكر في خلق شيء على صورته ومثاله، واذ لم يكن له ما يقمسه قال للمواد كوني فكانت، ثم ابدعه من اتقه ما خلق، من التراب ...

فالتقميش جمع الاصول التاريخية كلها (واذا ضاعت الاصول ضاع التاريخ

معها . والحقيقة هي الحقيقة كلها، ومن هذا الباب يطل رستم على العالم العربي فيبحث على التقيش ليس في العلوم التاريخية وحدها بل في كل فن ومطلب . فهل لادبائنا الذين يعيننا امرهم ان يقمشوا ليزفوا الى دنيا الفن عرائس مزينة ؟

العلوم الموصلة: وهي ما على المؤرخ ان يعرفه ليحقق الاصول والمصادر ويفهمها . اولها اللغة او اللغات، وخصوصاً معاني الكلمات التي تتحول معانيها على العصور من معنى الى معنى، ثم اعادة قراءة الخطوط والخطبة بأنواع الحبر والورق وما اليه، ليستطيع نقد الاصول والمصادر ويميز زيفها من جيدها .

نقد الاصول: لا تثق (بالاصول) ثقة عمياء، ولا تركز اليها، لا تثق بكل احد ولا تصدق كل ما تقرأ، وقد ضرب للقارى مثلاً تحقيقه (الوثيقة الذذارية) ثم بحث تحقيق الاصول بحثاً علمياً وأشار بما يجب عمله اذا ضاع الاصل وبقيت نسخة واحدة او نسخ متعددة .

تنظيم العمل: يصف الاستاذ افضل الحُطط لاستخلاص المعلومات من الاصول، وذلك بتدوين النص او ملخصه على اوراق متفرقة لا على دفاتر ايزيد عليها ما شاء، وترتب ترتيباً أبجدياً ليرجع اليها بسهولة .

تفسير النص: يشير باتباع الطرق التي اتبعها علماء التفسير، وهي التي يتبعها اليوم المؤرخون المعاصرون، (ان يعتمد الى تفسير القرآن بالقرآن، فان أعياء ذلك فعليه بالسنة، فاذا لم يجد التفسير في احدهما فعليه ان يرجع في ذلك الى اقوال الصحابة) أي ان يعتمد المؤرخ المستجد الى تفسير النص بالنص عينه، وان اعياه ذلك فعليه بكتب المؤلف والا فليعد الى اقوال زملائه المعاصرين .

العدالة والضبط: ان امانة المؤلف وتجرده عن الهوى لا يكفيان للاخذ بروايته، فان كان شاهداً عياناً فقد تخدعه حواسه . ثم ضرب مثلاً على خداع الحواس، حادثة طريفة جرت، او اجريت في الصف عند ما كان يدرس علم النفس، فكانت حواس جميع التلاميذ مخدوعة . وهناك امور كثيرة لا بد منها سنناقش بعضها في آخر هذا المقال .

الحقائق المفردة : أنقبل رواية الراوي بعد التثبت من عدالته وضبطه،
الجواب لا . يحذر المؤلف من اعتبار رواية انفراد بها راو واحد مهما بلغ من
العدالة والامانة، ومهما توفرت لديه شروط المشاهدة العلمية، وقد تتوافق الروايات
فلا يطمئن اليها المؤلف، ويمثل على ذلك بتزوير الحط (حيث ينطبق امضاء معترض
عليه، من جميع نواحيه وفي جميع دقائقه، على امضاء معترف به، يرجح وقوع التزوير) .

الربط والتأليف : هنا تنتهي مرحلة الجمع والنقد ويبدأ التأليف . افتتح
المؤلف هذا الفصل بالمقابلة بين حقائق التاريخ وحقائق العلوم الطبيعية . حقائق
التاريخ مبنية غالباً على رواية الآخرين، وحقائق علم الطبيعة تقوم على الملاحظة
المباشرة . الحقائق العلمية متجانسة متألّفة يسهل ربطها وتأليفها، وبضد ذلك حقائق
التاريخ . الحقائق العلمية ذات صفة عامة، وهي لا تختص بزمان ومكان معين
ويستطاع اجزاؤها في المختبر بينما الحقائق التاريخية تتعلق بزمان ومكان معينين
يصعب ارجاعها . لا دوافع نفسية في العلوم الطبيعية وهي ذات شأن عظيم في
المسائل الاجتماعية . هنا منبع العقبات التي تعترض طريق المؤرخ الى الربط والتأليف،
فيشير بالتمسك بالحقائق المفردة على اساس علاقتها بالحاضر . فما يعيننا على فهم
الحاضر هو اهم بكثير من غيره، اذ القصد من درس التاريخ انما هو فهم الحاضر
واعداد العدة للمستقبل .

ثم يشير الى تأثير فلسفة المؤرخ في انتقائه للحقائق اذ يختارها مستنداً بفلسفته
في الحياة، ولو كان الدكتور يتحدثنا بغير لغة العلماء لقال حسب ميله وهواه . . .

الاجتهاد : قد تتوفر الحقائق المفردة في ناحية من نواحي الماضي، وتعدم
من الناحية الاخرى فيتلافى المؤرخ باجتهاده ما قد يقع من فراغ . وفي هذا الفصل
يعرف المؤلف الاجتهاد ويجعله قسین : الاجتهاد السلبي - او السكوت حجة -
والاجتهاد الايجابي . وبعد وصفها بدلي بمثل على الاجتهاد السلبي فعله هو : يقال
ان المتوكل على الله آخر الخلفاء تنازل عن حقوقه للسلطان سليم . اثارت هذه

القضية اهتمام الدكتور رستم. على اثر خلع آل عثمان وعلان الجمهورية التركية، فراجع التواريخ العربية والروايات التركية عن الفتح العثماني لمصر فلم يجد لهذا التخلي أثراً. وهنا يتساءل المؤلف هل لنا ان ننفي تحلي الخليفة العباسي عن الخلافة متخذين سكوت الاصول التاريخية حجة على ذلك؟

قلت: ولعلها اول مرة ينفي فيها رأياً من اراء علماء الحديث.

التعليل والايضاح: يقول المؤلف انه اذا علل المؤرخ ووضح اسباب ما يروي تخطى من التاريخ الى فلسفته، وعليه هنا ان يتبع طريقة علماء الطبيعة، فيوضح بعض الحقائق بحقائق اخرى. ثم لا بد من الالتجاء الى الفلسفة اذا ما اردنا ان نقف على اسرار الحياة البشرية في الماضي. ومؤرخ من هذا الطراز لا بد له من اتقان الفلسفة والعلوم الاجتماعية والجغرافية وعلم النفس، ليوضح ويعمل على هدى.

قلت: وهل لنا ان تزيد درس الارض التي تقلنا وتغذيها فالانسان وليد وطنه، وهذا مذهب ميشله في الاسباب الطبيعية التي تكون الانسان.

العرض: اما عرض ما قشسه المؤرخ وجمعه بعدما حله وحققه ونسقه ونظمه وعلاه ووضحه فله طريقتان: خاصة وعامة. فحين يكتب للخاصة أي للزوايا، فلتكن رسالته وحدة تامة المعنى مرتبطة الاجزاء، جيدة الكتابة. اما ما يكتب للجمهور فهو كما يكتب للخاصة من حيث صحة القول وسلامة الاستنتاج، والفرق بينهما ان هذه تعرض عرضاً واضحاً جداً لتقرب من افهامهم. ويبحث على العرض بصورة جذابة ترغب القارئ في الاستطلاع، ويخلص الاسلوب الشائق بالثناء مندداً ببعض المحدثين من العلماء الذين كادوا يذهبون الى ان شروط الطريقة العلمية في البحث ان لا يعيد المؤلف الى الاساليب الشيقة في عرض الحقائق، كأنهم يزعمون ان العلم يتنافى معها. والواقع انه بامكان العالم ان يكون دقيقاً في كلامه واستنتاجه، وجذاباً في اسلوبه وعرضه في آن واحد (ومن يدري فلعل الدافع عند

هؤلاء الى مثل هذه الاحكام هو ضعفهم في الاداء وعدم تمكنهم من ناصية اللغة، وقصورهم عن ايجاد التعابير الشيقة .

قلت : مثل الذين اوما اليهم الدكتور من المؤرخين مثل بعض الشعراء الذين يفرضون على الناس اصولاً تنطبق على اساليبهم . قصر العقاد مثلاً في الاسلوب، فاخذ والمازني يؤلهان ابن الرومي وشاعريته .

ثم قال : (فواجب المؤرخ اذن ان يجيد اللغة التي يصطنعها لتدوين حقائقه وعرضها بحيث لا تعوزه معرفة قواعد اللغة وفرداتها وبيانها واساليبها، وعليه ان يتقن فن الرواية، وقص القصص في اللغة التي يكتب بها حتى اذا قص اخباره وقعت موقعاً حسناً في قلوب القراء) .

فرحمي والفرحى لاستاذ التاريخ الحديث في العالم العربي، ويا لها دعوة سامية لتطور التاريخ الجاف . اني أؤيد فكرته هذه، وهل عاب الاصبهاني اسلوبه البديع، وهل قدحت فصاحته في صحة روايته ؟

هذا ما يتسناه على المؤرخ (المؤلف)، واما المؤرخ (الناشر) فيقول له (خفيث يظفر المؤرخ بالاصل بخط واضعه، او بتصديقه، عليه ان يبقيه كما هو بحروفه وغلطاته . فكهم وكم من الاصطلاحات العامة تفقد قوتها او ضعفها عندما تبدل بما يفتكره الناشر مقابلها باللغة الفصحى) (ص ٤٧) . انه يشير بترك التاريخ المنشور كالعاديات لا صقل ولا جلاء، وهكذا فعل الدكتور زريق حين نشر تاريخ ابن الفرات ، واليزيدية قديماً وحديثاً .

(ان التاريخ علم في تحريره الحقيقة، وكعلم يطلب الحقيقة كما هي لا كما يجب ان تكون) وان قال بجمله قصة طلية مشوقة، فهو يريد تلك القصة كما وقعت، لا كما يكونها القصصي تكويناً فنياً .

اما الفلسفة فيعدها من العلوم الموصلة في التأليف لا في النشر، وقد اغلى في اطرائها حتى نقل عبارة المؤرخ الطلياني : التاريخ هو الفلسفة والفلسفة هي التاريخ .

هذا عرض كتاب (مصطلح التاريخ) وان صدقنا فلنقل مسخه . الكتاب طريف حقاً بل هو نجمة الصبح في فجر هذه النهضة، استنارت يديه ثلاث عواصم بيروت والقاهرة وبغداد . ولو كانت لغة العرب عالمية كغيرها لقلنا فيه مقال المتنبى في اميره الحمداني : وتفتخر الدنيا به لا العواصم . اما اسلوب الكتاب فناصع لا غبار عليه، ولا تضيره بضع عبارات جرت على قلم الدكتور اقتباساً من الوف الوثائق التاريخية المكتوبة في القرن المنصرم، كقوله : ويتضح مما تقدم ذكره اعلاه، وكقوله : تجاه امر واقع . وكقوله ايضاً : من حيث النوع او الموضوع، او (الاثنين) . معاً .

اما من حيث التأليف فلا نستدرك عليه الا الافاضة في اخبار علماء الحديث افاضة نشعر معها اننا ضلنا السبيل، فهو يقص علينا مثل : (وقد شرط في العدالة التوقي عن بعض المباحات القادحة في المروءة نحو الاكل في الطريق، والبول في الشارع، وصحبة الارذال، والافراط في المزاج) (١٠٤) . لست اظن ترك هذا التزم يقدر اليوم في مروءة احد، فشعار اليوم : الوقت ذهب، واضحك يضحك لك العالم . ان قوة تداعي المعاني، وهي عند علماء النفس من سمات النبوغ، ملموسة عند رسم، وبهذه الخاصة وصل قديمنا بجديد عصرنا الطريف، اخذ هذين البيتين :

فما كتب التاريخ في كل ما روت قرائها الا حديث ملفق
نظرنا لامر الحاضر من فراينا فكيف بامر الغابر ينصدق

ثم دار حول هذا الشاعر الهازي فاحال سخريته حقيقة علمية اذ قال : وقد قال علماء التاريخ : شك المؤرخ رائد حكمته . وقالوا : الاصل في التاريخ الاتهام لا براءة الذمة (ص ٨٧) رحم الله ديكارت .

وفي باب العدالة والضبط ايضاً، وهو اضخم ابواب الكتاب، سرد قواعد جليلة بعضها مبني على علم النفس . وفي هذا المعترك الحامي تكثر الشروط، فلمؤلف منها ستة يجتهد بهذه العبارة (فكلمنا ازداد الراوي ابداعاً في اسلوبه الادبي ازددنا شكاً في عدله وقل اطمئناننا اليه) (ص ٩٤) .

لست اخال هذا ينتقض ما دعا اليه في آخر كتابه، أي الى الاسلوب الجذاب .
فرب شاهد بالزور تمسكن لتقبل شهادته، ورب رجل طعنت فصاحته في صدقه
وهو لم يقل الا الحق .

وتلي شروط المؤلف في العدالة والضبط شروط اخرى عديدة وضعها المؤرخ
الفرنسي لالنجلو، ثم يعقبها صفحات من آراء علماء الحديث واطولها ما قاله ابن الصلاح .
ويختتم هذا الباب بتمحيص ابن خلدون لروايات غيره من المؤرخين كالمسعودي عن
بنا الاسكندرية، ومثال الزرور الذي برومة، ومدينة النحاس، والمدينة ذات
الابواب التي روى خبرها البكري .

لقد اصاب ابن خلدون فيما ضبط وحقق هنا، ولكني اسأل الدكتور : هل
نهج في تاريخه هذا النهج، وهل محص كل ما كتب ! وما قول استاذنا الكبير في
حجج ابن خلدون مدافعاً عن هارون واخوته العباسية ؟ ! ان الدكتور لم يقف امام
ابن خلدون موقف المشاغل، او المؤمن المشدود كما يقف غيره، بل ذكرنا بموقف
الجاحظ من صاحب المنطق .

وبعد، فقد ترك رسم في سوريا المحوفة دويماً متنبئياً، فهل للاستاذ الجليل وهو
يعيش في حقبة خطيرة جداً ان يضع لنا تاريخها ليكون لنا تاريخ ؟ اننا في حاجة
الى اكثر من تحقيق وثائق وضبط تواريخ قديمة . ليس لنا تاريخ يركن اليه، تاريخ
يدرس هذا الشعب وطباعه وما نهض به من اعباء احلته المحل الاول في تاريخ العالم .
ان العظمة الكبرى لا تخرج من دائرة النواميس الطبيعية، كما زعم ميشيله، حين
درس جاندرك، فهل لرسم ان يكون ميشيله العرب فيستنطق جميع ما تركوه من
دين وأدب وتاريخ وفن مشيداً تاريخنا العظيم على هذه الآثار ومسبباتها - كالارض
وطبيعتها، فالناس للارض اتباع... كما قال فيلسوف المعرفة .

اني اقترح عليه وعلى تلميذه بالامس، ورفيق سفرته اليوم الدكتور زريق تأليف
هذا التاريخ . العمل خطير جداً ولكني ازعم ان كليهما كفؤ له، ونحن احوج
ما نكون الى تاريخ كهذا .

الأدب العربي في آثاره علامته

العصر الجاهلي والاموي

يا سبحان الله، كأننا جعل هذا البلد باراً بلفقه في كل دور، فهو كالبحر لا يهدأ حتى يجيش . كان الاحتلال فالانتداب فغال الناس ان العجبة ستكتسح لبنان لوفرة المدارس الاجنبية فيه، فاذا بنهاج البكالوريا يطل علينا فكان شأننا غير ما توهموا، فتنافست المدارس اجنبية ووطنية في تعليم لساننا، والمنافسة تحم الروثوس، والحمى يصنعها اطباء اليوم ليقتلوا بها ميكروبات جمّة .

تدور على لسان قلبي كلمة واحاول الاتجسد، فيأبى الحق الا الظهور، فنعمة عهدنا الجديد التي نتحدث بها هي نهضة لغتنا، فتقاليدنا وعاداتنا قد اندثرت، وغرقنا حتى الآذان في حمأة المدنية، فارتخت النفوس وفرغت الجيوب . كثيرون منّا يعزّون هذا الى التعليم، فيقولون ان نفقاته استنزفت جيوبنا وصيرتنا رقيتي الحال .

قد يكون، ولكن اذا كان العلم شراً فهو شر لا بد منه، او انه اهون الشرين، فلتحذف حكومتنا وتشطب من كل ميزانية الا ميزانية المعارف، فلو اتسعت مدارس الحكومة لاولادنا لكانت علينا الضرائب .

هذا موضوع قائم برأسه فما لنا وله الآن، نحن في صدد كتاب جديد من مآثر وزارة المعارف، لقد اخرجت كتاباً جديداً اشبه بكتب القوم (يرجع اليه الاستاذ والطالب سواء بسواء) كما جاء في مقدمته التي اعربت عن نية جامعيه الاساتذة بارودي وبستاني وتقي الدين . استغفر الله كيف اقول جامعيه فما هو الا تأليف... واذا بدا سهلاً كالحرب على النظارة فهو عمل خطير شاق يعرفه من يعانيه .

فالانتقاء والتدقيق وما اليها مهمة مضيئة، ولا سيما في نهضة لا تزال صبية،
(والروايات عدّ شعر الرأس) فما قولك بلجنة تحقق وتدقق وتؤرخ في وقت واحد،
ولكل شي. من هذا، حيث اينع الادب، اناس مختصون به، اما عندنا فعلى كل
واحد ان يكون دائرة معارف، وهذا ما يحصل في فجر كل انبعاث .

لقد جاء كتاب «الادب العربي في آثار اعلامه»، كما أرى، جامعاً لثلاث : دقة
في النصوص، ونقاية حسنة، وخلقة جميلة . فالدقة والنقاية لا تستغربان من ثلاثة
كلهم اديب، وكلهم أوتي حظاً كبيراً من الثقافة وتمتع بشي. كثير من الذوق الفني .
اما جمال المظهر فقد أطراه امامي مستشار المعارف المسيو كوانته الذي يخدم معارفنا
باخلاص تزيه وجهاد يستحق خير تقدير . ولا بدع ان يكون مظهر الكتاب رائعاً
فقطبة الآباء اليسوعيين لا تخرج الا تحفاً وطرفاً .

انني اغبط المؤلفين بما احرزوا من نجاح في كتابهم واهنتهم به، فقد اجتمعت
ازاهر شتى دلت على الروض وابدوا فيما انتقوا عناصر تألفت منها شخصية الشاعر،
وخصوصاً في المثلث الاموي، فكأن كل شاعر مرسوم امامك ترى صورته في ابناؤه،
والابن سر ابيه . ما قلت بنات افكاره كما تعودنا ان نعبّر، لانه ليس لقصائد هؤلاء
حياة بنات العرب .

اما قصيدة الفرزدق في زين العابدين فتعلمنا ان الشعر متى جاش به الصدر
انبتق كالينبوع وثاباً براقاً وتسلسل كالجداول رقراقاً صافياً، وهي رد على اولئك
الذين يشكون في الشعر الجاهلي اذا لم يكن جافياً غليظاً، كأنه فاتهم ان الشاعر
يوق ويخشن حتى في القصيدة الواحدة تجذبه الى ذلك الاغراض والمعاني .

اما في اصحاب المعلقات فتقيد المؤلفون بما دل عليه المنهاج، فما ذكروا الا
المعلقات . وان جاء بعضها مقضوباً فلأن الكتاب طبع الآباء اليسوعيين ، فهم لا
يطبعون الا ما يماشي دستورهم، ولهذا جاء عمر بن ابي ربيعة مفلوجاً ... وان
قضي على (رائيته) فهكذا يفعل الفالج، انه اذا استأثر بعضو اجهز عليه...

لست اباحياً، ولي بنون وبنات اذن باخلاصهم ان يتسرب اليها الفساد، ومع هذا اقول ان رائية عمر لم تعد خطراً يتقى، فني كل ساعة تقع عيون ابنائنا على ما هو اشد خطراً منها : في الكتب، والمراسخ، وقارة الطريق، والسينا .

مسكين عمر، لو كان اليوم لعد تقياً ورعاً مهذباً حياً، وبكلمة مختصرة رجل اخلاق ... فهل عندنا مثل ميمه عمر بن عبد العزيز ليطرده عن بابه .

اما الحجاج فقد اسمعونا خير ما قال، ومن تأمل رآه كأنه يزأر بعينه ويتهدد بجمع يديه ظامناً الى الدماء، ثم يرى جبروته يتضال امام الموت، وفي نفسه أمل من لقاء ربه :

اذا ما لقيت الله عني راضياً فان سرور النفس فيما هنالك

فما اوسع عفو الله ... وكلنا يرجوه حتى ابو نواس والحجاج .

وبعد، فلا بد من كلمة وان بدت كالتعنت، (فالقنان) جبل بني اسد، ما دعا الى تشديد نونه الاولى في معلقة امرئ القيس^(١) . فان كان لانقاذه من جهنم العروض فماذا نفعل بصاحبنا زهير^(٢) وهو مؤمن بالله واليوم الآخر ... انا ارجح ان القنان جمع قنة، ومهما يكن من شيء فلا تختلف على حرف، ولكنها سائغة بدرت فما كتبناها .

اما هذا البيت من قصيدة امرئ القيس :

فيا لك من ليل كأن نجومه بامراس كتان الى صم جندل

فلي فيه رأي غير ما ارتأوا . لا خلاف في صدره، اما عجزه فأوثر ان يكون : بكل مغار القتل شدت يذبيل .

فامراس كتان فيها ضعف وقلة ورائحة حضارة قوية . والى صم جندل حذف

(١) فر على القنان من نفيانه فارتل منه العمم من كل منزل

(٢) جعلن القنان عن عين وحزنه وكم بالقنان من محل ومحرم

فيها متعلق الجار وهو كون مقيد، وكلمة جندل، بله ضعفها، واردة في القصيدة،
ولا أطأ الا مشيداً بجندل .

اما الرواية الثانية : بكل مغار القتل شدت يذبيل، فافضلها لاسباب عدة
اسردها و اترحم على (ستنا) الحنساء : فكل اداة العموم ، ومغار اليق بعربي
جاهلي لانها من الغارة، والقتل فيها متانة وقوة يتطلبها الشاعر ومعناه، ويذبيل
تدل على (لون محلي) لا اثر له في صم جندل، التي تصلح لكل مكان، وفي
تركها النجاء من تكرير القافية، وبكلمة وجيزة ارى الصورة الثانية جاهلية لفظاً
ومعنى، ولا نحوجنا الى تقدير وخروج .

بيد ان كل هذه هنات لا تنقص ذرة من قدر الكتاب الذي نعهده بحق
ذخيرة ادبية، لا شك فيها ولا ريب، فلهولفيه اطيب الثناء . على هذه الجهود الطيبة،
فحسن اختيارهم في مصنفهم دلنا عليهم كما تدل الصورة الرائعة على نفسية المصور
الحاذق، وما في خياله من عرائس فاتنة، لولا ريشته ما اجتليناها .

فليت الحكومة تعضد بكل قواها مديرية المعارف التي تعمل صامتة، واذا
تقدم مئات لامتحان وظائف ضئيلة فهذا (لا يحزن) . المحزن الا نجد اكفاء يظلمون
بابعاء الوظائف . المحزن ان نضع في المناصب من لا يصلحون لها . والمحزن جداً
ان يشغل واحد عدة مناصب بيننا الاكفاء ينشدون الرغيف وهي تركض امامهم
ولا يلحقونها : اراه غباري ثم قال له الحق ...

والمضحك والمبكي معاً ان يشقى هؤلاء المتبارون، وحائر قصب السبق معروف .
هذا اذا صح ما يقولون . اما انا فلا اعلم شيئاً عن دواخل هذه الدولة .

الحب أقوى - رثيف الحوري

للاستاذ رثيف الحوري آثار عديدة طيبة، شعراً ونثراً، وربما كان رثيف أكثر لداته إنتاجاً، أما الآن فلا يعنيننا مما خطه قلمه الحصب إلا رواية (الحب أقوى) .
الحكاية من عند الشيخ داود الانطاكي مؤلف كتاب (تزيين الاسواق بتفصيل اشواق العشاق) وقد صباها الأستاذ رثيف في بوتقة الفن القصصي الحديث لجاءت طرفة نفيسة رغم سرعة سير رثيف، وفبركته لما يكتب . قال في مقدمتها، متكللاً على ذمة الشيخ الانطاكي، انها تاريخية (تدور في فلك من العصر الاموي على عهد الخليفة معاوية ابن ابي سفيان)، ثم انذرنا كمرسى حين سئل عن عصاه فاجاب : ولي فيها مآرب أخرى ...

الحكاية دوغما شك صغيرة، ولكن بخيلة القصاص البارع بسطتها وكبرتها لجاءت كتاباً يملأ العين والقلب . فرثيف قصاص موهوب نعمة الافاضة في الكلام، ثم يبقى هذا الكلام، على غزارته، حلواً عذباً تلذ للقارئ مطالعته، ولهذا جاءت روايته (الحب أقوى) سهلة التعبير حافلة بالصور والتعابير الشخصية، تمشي الموهبة لا ريث ولا عجل، رغم انف موضوع الحب المبذل . وان سألتني وكيف يستحلى الموضوع المبذل، اجبتك ان الطاهي الفنان يعطيك من المواد التي يستعملها غيره لونهاً جديداً من الطعام غير ذاك بما يخرج من ابراره وبهاره .

نفخ رثيف من روحه المرححة في بطليه نصر وسعاد فتشلا لنا جبارين عنيدين . فبعد ان كان البطل نصر صعلوكاً بانساً خرج من بين فكي القلم مناضلاً عنيفاً يغامر في حب مروم، ولا يقنع بما دون النجوم، حتى بز معاوية وواليه ابن ام الحكم ... ليست الرواية تاريخية، ولكنها بنت الواقع او مما يمكن وقوعه،

وإذا فقدت هذه الخاصة فكأنها لم تحسر شيئاً، فالرواية التاريخية حقاً تصبح كالوطواط لا هو في الطير ولا في الحيوان . ان التاريخ حجر عثرة في طريق الفن القصصي اذ لا بدري القارئ ماذا يصدق وماذا يكذب فيضيع بين البينين .

في رثيف الكاتب القصصي خصلة حلوة وهي تفتيشه دائماً عن الطريف الطريف وتوافقه عليه . شعر، وهو العارف باصول الفن، انه لا يحس محيط قصته الا في الكتب، والكتب، وحدها، لا تكفي، فلجأ الى وصف الخواج وتحليل نفسية شخصياته، وتصوير مظاهرها بتعابير طريفة، فارانا في ام سعاد تلك المرأة المستكلبة، ومن ابني سعاد رجلاً إمعة، ومن الوالي ابن ام الحكم مخاوفاً كبطل المقامة المكفوفية : حزقة كالقروني .

لقد اغنى هذا الوصف والتحليل عن الاطار وما يتطلبه من اسلوب شعري، ولكن الاطار وما يقتضيه من تصوير عنصر متمم للرواية، فأثني لنا هذا ونحن لا نعرف المكان الا من الكتب وهي لا تغني عن العيان . فكتأب القصة اليوم يحاولون ان يعيشوا ولو حيناً ما يكتبون، او يروا المحيط على الاقل، لان الكاتب كالنحلة يحني أولاً ثم يمج، وبدون هذا لا يكون العسل المشتى .

اما الحوار العربي الاصيل فهو عقدة العقد، وهذا لا يستطيعه احد منا، لا رثيف ولا غيره، فمن اين لنا نحن ان نتكلم بلسان اعرابية منذ ثلاثة عشر قرناً . خذ مثلاً : قالت ام سعاد لبنتها : لئن رأيتك بعد اليوم تخرجين او تعودين مع هذا الصعلوك المنتوف فلاعاقبتك اقصى عقاب .

ان كلمة (المنتوف) لا بأس بها - مجازاً - اذا جرت على لسان لبنانية واما ان تقولها اعرابية فهذا بعيد . وفي الصفحة عينها يستعمل رثيف كلمة (بانخة) بمعناها العامي . ان مثل هذه الالفاظ، وفي الرواية عدد غير قليل منها، تشوه قصة كتبت بلسان عرب الحاق .

فالحوار واللون المحلي هما اقوى عناصر القصة، فعلى الكاتب، اذا لم يضمهما،

ان يفتش عن موضوع يلائمه . ولكن المؤلف اعاضنا عنها بشي . آخر هو حلالة
تعابيره الخاصة ووصفه الطريف وسرعة جري قصته وحسن سياقتها واتجاهها المستقيم
نحو الهدف . وهنا لا بد لي من الاشارة الى اشياء تتعلق بالاصول ، اذ لا يسوغ
لكاتب مجيد كالأستاذ رثيف ان يجاري (المهملين) منا فيشوه اثرأ فنياً كروايته
هذه . قال : حدق فيها ، والوجه حدق اليها . واراد ان يخرج على المؤلف فاستعمل
الفاظاً كرتيب وغيرها قبل ان يستوثق منها . وسعاد الا يعرف الأستاذ انها ممنوعة
من الصرف ، فلماذا يقول سعاداً ، بينما طبيعة الحوار تقتضي ان يقول : سعاد .

وبينا اراه يقول وحل الماء . ولا يبالي اذا بي اقرأ يتقصف مكتوبة بين هلالين .
ثم يقول : وقفت تظلل عينيها بكفها من الشمس . ان هذه الجملة الطويلة العريضة
تعنيه عنها لفظة واحدة : تستشرف او تستكشف . ولو شئت التتطلس والتقعمر
لقلت له : لماذا تقول ابيماً تبيمانني ، ولا تدع الجملة تمشي على الهينة فتصيب عصفورين
بمحجر واحد : طبيعة الحوار وسلامة التأليف . ثم ما الداعي الى القول : كاد يحن
هو الآخر ، فاية حاجة الى هو الآخر . ثم القول : اذا امسى المساء . الرجل يمي
اما المساء فلا . ومن هذا النوع : بطلحا سلمان ارضاً ، ومقدد ارضاً ، واثرودها
زاداً الخ ...

والضرف وهو يعرف فصيحها فما الداعي الى استعمالها ؟ فلو جاءت على لسان
شخص من شخوص قصته لكان الامر ولكنها من كلام المؤلف . والأستاذ يكثر
جداً من وزن فعيل حتى يقول : بصوت خفيض ، والمعنى الذي يقصده انما يجي .
من الخفض ، ناهيك ان كلمة خفيض قبيحة كيفما دارت بها الحال ، وقد ادرك
ذلك ابن الاثير منذ اجيال . اني اكاد اقول ان رغبة المؤلف في هذا الوزن ناشئة
عن اسمه ، ولهذا اكثر منه من حيث لا يدري ...

لقد نزلت مني رواية (الحب اقوى) بمنزلة الحب المكرم فاستقبلتها بهذا النقد .
رأيت عند مؤلفها نفساً طويلاً يمكنه من كتابة الرواية ، فدونت ما دونت مرة

واحدة لآعينه على الرواية الآتية : (وان كنت عني ذا غنى فاغن وا زد) .
اما في الفن فالاستاذ رثيف يمسك الحيط ولا يفلته، وهذه اولى صفات الروائي .
انه لا يحول النظر عن اهدافه، بل يسير اليها ابطاله توأ، فلا يتعثرون بشي . .
ولكن الاستاذ طماع طامح يحب ان يستأثر بكل حكاية تعجبه، ولهذا علق في
ذيل رواية (الحب اقوى) حكاية اخرى استحلها فاستأثر بها قبل ان يهبشها غيره،
حجاء استطراده اليها شنيعاً . مماها خاتمة فكانت كلالا عارة والتأجير في لغة الحرب
الماضية، فضاعت طائرته في سما. الخاتمة ولم تعد الى قواعد سالمة . فما كان احلى
خاتمة قصتك يا رثيف، لو ظلت بدون خاتمة .

الحب أقوى عود على برد

١

حيثك غرة بعد الحج وانصرفت فخي، ويحك، من حياك يا جل عزيزي الاستاذ ...

اظن، وسوء الظن اثم، ان محلك من المقال الذي وجهته الى مارون عبود محل المدير المسؤول من الجريدة، او محل المذيع بالنيابة، وهذا التشبيه الاخير اقرب الى حالك . اني ارى على حفا في القفة (اذنين) بل آذاناً تلوح وتحتني كبرق امرئ القيس ... نجأنا الله من الطوفان .

اخشى يا اخي ان تكونوا طلبتم الريادة فوقعتم في النقصان، كما يقول المثل . يقول زهير :

سألنا واعطيتم، وعدنا فعدتم ومن اكثر التسأل يوماً سيحرم

هاكم الجواب على ما فاتكم وان لم تكن فصول النقد مدرسة نحو وصرف ولغة . فالمقال النقدي يفرض كاتبه انه يوجهه الى من لا يفوته ما فيه، اما صاحبنا فهو اماً غير فاهم، واما متجاهل مباحك . تمثل صاحب التوقيع بقول المتنبي : وهاد اليه الجيش أهدي وما هدى . فاحوجني الى تذكيره بقول المتنبي ايضاً : ومن البلية عدل ... الخ .

فلنبداً بكلمة (منتوف وبانحة) واخواتها . فهذه الالفاظ العامة المحلية، لا تصح ان تكون مادة لرواية اعرابية، فالرواية عمل فني قبل كل شيء، وهي ليست دون الشعر شأنًا . ليست الرواية مقالاً في صحيفة يعالج الشؤون اليومية، ولا قصيدة

تقال في مناسبة ما . انها لأجل خطراً، ومتى كانت (تاريخية) ومن العصر الاموي
عظمت المسؤولية وصار على كاتبها ان يظهرها من رجس الركاكة والرطانة، والا
فليكتب روايات شعبية يتلغى بها العوام، ولا حرج عليه اذ ذاك . فلو عرفنا ان
صديقنا رثيف خوري يكتب لهؤلاء ما كنا اعرنا قصته هذا الاهتمام، لاننا لا ننتقد
الا من يرجى منه خير ادبي جزيل كـرثيف خوري .

وما وصلت الى كلمة (التمع) حتى رأيتك تنقض ما قلت أولاً . قلت ان
غاية رثيف (افهام القراء) أي كانوا بأسهل الاساليب والوسائل (فأني اسهل يا ترى،
افعل لمع ام فعل التمع ؟ فن من قرائنا يقول التمع !! يظهر انك تنسى حالاً ما
تقول . فالتمع ليست بمعنى لمع وان كانت مشتقة منها، كما انك انت لست اباك
وان كنت مشتقاً منه . وبما انك تحب الاستشهاد بقول المتنبي فهو يقول في هذا :
فإن في الحمر معنى ليس في العنب . اذن على كاتب كبير كـرثيف خوري ان يدقق .

واراك ذكرت ابن الاثير بمناسبة رتيب وخفيض و(التمع) وغيرها مما عند
رثيف من هذه البضاعة . فابن الاثير قال : الا ترى انك تقول : قعدت الى فلان
احدته، ولا تقول : اقتعدت اليه . وكذلك تقول : اقتعدت غارب الجمل، ولا
تقول : قعدت على غارب الجمل، وان جاز ذلك . ولهذا اقول انا : ان (رتيب
وخفيض) ليس لهما جمال اسم صديقي رثيف وان كانتا من وزنه . واذا قلت انت :
ما لنا ولابن الاثير، اجبتك : ان ابن الاثير ختم كلامه بقوله : وهذا لا يحكم
فيه غير الذوق السليم . . .

أماً (سعاداً) فجاءت بضع عشرة مرة ان لم يكن عشرين وثلاثين، وما هكذا
تكون غلطة الطبع . اما (وحل الماء) فهي مثل قوله (امسى المساء)، فكما
يقال امسى الرجل أي دخل في المساء كذلك يقال وحل الرجل أي وقع في الوحل
— كما وقعنا نحن في وحل الرد عليك، مثلاً — لا يقال وحل الماء لان التراب يصير
وحلاً، ومتى خالط الماء شي من الطين يقال : عكر الماء لا وحل الماء .

اما ما اردت قوله حول (يتقصّف)، فهو اننا عندما نرى لفظة موضوعة بين هلالين نفهم انها غير فصيحة، في حين ان يتقصّف فصيحة بنت فصيحة، ولا حاجة الى جعلها بين قوسين . كان اخرى بالمؤلف ان يعلم بانثقة وغيرها من الالفاظ بمثل هذه العلامة . اما الغريب فهو ان تذكرني (ان البيانين اجازوا دخول الواو على استواء في كل مني مع الجملة المضارعية الواقعة حالاً) فما خطب الواو حتى تذكر ذلك هنا !!

وقد اضحكتني حين حمت حول كلمة (تستشرف) فقلت ان هذه اللفظة ذات معنيين ومتى كانت اللفظة ذات معنيين حصل الالتباس والالتواء . اليس هذا عجباً غريباً !! اما اذا كانت لفظة تستشرف لم تعجبكم فعندكم لفظة (تستكف) وهي مشتقة من الكف، وربما كانت لازمة اكثر في هذا المقام لان لا التباس فيها ولا التواء . . .

قلت : ساحبك الله ، اني (اعود بكم وباللغة الى عهد الانحطاط، عهد الاهتمام باللفظة دون المعنى) مع اني لم ارشدكم الا الى وضع المعنى في لفظة تؤديه كاملاً غير منقوص، وترى بكم من غش الكلام ونفشه . . . فلا يكون البيان خبصاً في خبص . وهنا لا بد لي من ان اسألك : بمن تعلمت هذه الامانة في البحث حين نقلت عن المعجم هذه العبارة : (استشرف الشيء . رفع بصره لينظر اليه) لماذا اكلت ما بقي من الجملة وهو : (باسطاً كفه فوق حاجبه) - المنجد ص ٣٩٥ العمود الثالث، السطر ١١، طبعة ١٩٣٧ - افعلت ذلك لتوهم الناس اني اخطأت، فانا اخطى دائماً، ولا ادعي العصمة .

ليس النقد مزحاً يا عزيزي، انه عين الجدد، وان البسناه حيناً ثوب الفكاهة . وسألتني عن (ابيما تبيعاني) ما بالها ؟ اسمع يا عزيزي، انها، اولاً، ليست لغة الحوار الطبيعية، وهي، ثانياً، خطأ نحوي، لان المصدر المؤكد لعامله بمثابة النعت، والنعت لا يقدم على المنعوت . ولهذا قلت : لو قال اتبعاني يبعاً لاصاب عصفورين

بجبر واحد، اي سلامة التعبير وواقع الحوار... انه لم يخطر ببالي ابدأ انني محتاج الى ملقعة... اسألني ايضاً ما معنى قولك هذا؟ أي لأزقكم كما ترق العصفورة فراخها، او بلغة العوام : نشرقكم بالملقعة .

أما (كاد يحن هو الآخر) فلا داعي فيها الى (هو الآخر) وهالك الجملة : وشاع في الحبي ان سعاداً جنت، وانتهى النبأ الى نصر فكاد يحن هو الآخر، واسرع الى خيمة عمه مستفسراً . فقله هو الآخر من بضاعة العوام، وهي زيادة لا خير فيها، تخالف ما وضع السلف من قواعد لأفعال المقاربة، اي ان خبر هذه الافعال يكون فعلاً مضارعاً متضمناً ضميراً يعود الى اسمها . وهناك مشكلة ثانية هي مشكلة الاعراب - اقول هذا لثلاث توضيحي ثاني مرة . وأنا، كما لا تعلم، وقتي ضيق جداً - فكيف نعرب هو الآخر؟ فاذا قلنا هو فاعل يحن، او توكيد الفاعل المستتر، فما يكون محل الآخر من الاعراب؟ فاذا قلت نمت فالضمير لا ينعى ولا ينعى به . انها تعبير عامي وان جرت على اقلام الكتاب .

اما قولك لي : (وخلاصة القول، انك يا استاذ مارون حللت الرواية تحليلاً نفسياً واقعياً رائعاً، ليتك اكتفيت به...) .

ان كلمتك هذه لم تردني معرفة بالمؤلفين، فارون عبود ناقد عظيم جداً متى احرق على مذبح أنانيتهم الند والعنبر، وخصوصاً اذا طاف بجمرته حولهم وحواليهم . اما حين اصوب انبوب الصائغ لاحرق خبث الحديد، فأنا أكون حينذاك متعنتاً أرد البشر الى عصر الانحطاط .

فأما وانت تريد ان تنسلي، او ان تعمل بشرة الاعارة والتأجير في الحرب الادبية، فخذ بعض ما بقي من رواية اخينا رثيف لترد عليه، ولكن ثق انك لن تفوز بجواب، لان الحصاد كثير والفعلة قليلون .

وجاء في رواية الحب اقوى : تقاعست ان تخف (ص ٨) وفعل تقاعس هنا يتعدى بعن . قال الشاعر :

تبهنس اذ تقاعس عنه مهري محاذرة، فقلت عقرت مهرا

وقال : تشاجع الزوج عم نصر (ص ٢٨) ثم قال : يتقاوى امام اهل المجلس (ص ١٤٢) . ان المزيد من الافعال مماعي لا قياسي، والمدار فيه على كتب اللغة . ونحن لا نزال نقول - عامياً - كما كانوا يقولون : تشجع وتقوى ، والكلمتان فصيحتان تؤديان الغرض، فأي داع، اذن، للقول : تشاجع وتقاوى ؟ فالاولى منهما لم تسمع، والثانية لم تقل بالمعنى الذي اراده الاستاذ رثيف .

ان كلمة مماعي لا تبعد كثيراً عن كلمة استعمال، والاستعمال ينعم الالفاظ ويملسها، فلماذا تعود الى المقالع !!

وقال : الفت ان تسير عليها كل يوم، ذهاب واياب (٨) والصواب ذهاباً واياباً.

وقال : نحت وبر شاربين اسوداً ولم يكادا (ص ١٤) انني لم افهم كيف اسودا ثم لم يكادا ؟ فاما ان يقال : لم يكادا يسودان، واما اسودا او كادا .

وقال : يولم الناس على لحم شاة (ص ٣٠) وهذا تعبير غريب . قال عبد الرحمن بن عوف للنبي : تزوجت انصارية . فقال، عليه السلام، بارك الله لك . أولم ولو بشاة . ان (أولم) فعل لازم، فالوليصة لا تكون لغير البشر . . . وهو يتعدى بالباء . لا بعلى، وحسبنا كلام افصح العرب حجة .

وقال : ابينك شي . وهذا الفتى (٣٢) والصواب : ابينك وبين هذا الفتى شي . كما تشكلم اليوم .

وقال : لا شغل لهم الاله (٥٩) وهذا خطأ . قد عابوا على صاحبنا المتنبى قوله :

ليس الاك يا علي همام سيفه دون عرضه مسلول

ومتى امتنع هذا في الشعر فكيف بالثر . وقال : انبطح على اضلاع صدره (٦٣) . ان معنى انبطح انطرح على وجهه ، فأني حاجة ، بعد ، الى اضلاع صدره . هل فينا من يقول : انبطح على اضلاع ظهره ليميز بين الانبطاحين ! فقولنا انبطح واستلقى يعبر عن القصد ، ولكن اذا كان الاستاذ يريد ان يفهم من ما لا يفهمون ، كما ادعى الاستاذ ز . . . فالجرح جبار ، كما قال بديع الزمان لاستاذ ابن فارس .

وقال : هل ما زال فاتك على حراسة الخيم (٦٣) وفصيحتها : اما زال ، او الا يزال فاتك . . . فن يقول : هل ما درس فلان . ان الهزئة تستعمل في كل موضع ، اما هل فلا .

وقال ايضاً في هذه الصفحة : أترى يكون هذا الشيخ فاتكاً هو اياه ؟ علينا هنا اما ان نحذف هو اياه ، او ان نكرر الاستفهام فنقول : أيبكون هو اياه . وما أرى المؤلف الا متأثراً بقول العوام (هو ي ايه) ، وهذه من نوع هو الآخر ، اي (هو ي آخر) ، وما كل كلام العوام يعرب .

وقال : وقد طاف الفرسان بالحي شارعين سيوفهم (٦٥) والرماح تشرع لا السيوف .

وقال : لانها رأت سدى ان تستشير (٧٣) . لا ادري اذا كان احد القراء يستشيرها ، اما انا فلا . ومن طراز هذه قوله ايضاً : ثم خالت الصباح سيحبل اليها فرجاً (٧٥) .

وقال : فغص بها حلقه واسترخت حنكه (١٠٢) كما قال بعد ذلك : واسترخت حنكا العجوز (١١٨) . وكأني بالاستاذ قد ترجم هذه ايضاً عن العامة (رخي حنكو . رخي نيمو) . فالحنك مذكر ، وهما فكان لا حنكان . واذا كان لا بد

من هذا التعبير فاللفظة التي تستعمل هنا هي فكاه او لياه . فالحنك هو سقف
الغم، وقد جاء في الزبور : ويلتصق لساني بحنكي .

ولست ادري لماذا أحب التأنيث هذا الحب الجارف حتى قال ايضاً : وحيته
ترقص ارتقاصاً مع سفلى فكيه (١١٧) .

وقال : وافق ان يحملها في مطبخه (١١٨)، وعليه ان يقول : وافق على
ان ... ثم عاد الى (أرضاً) التي اكثر منها في روايته فقال : فوجدناها منكبة
ارضاً على وجهها (٣٧) ترى هل تنكب سما . ؟ أهى صاروخ ! ! ناهيك ان
انكب لا تناسب، والفصيح : مغفرة وجهها في التراب . أنجز هذا التعبير يا ز . ؟
أم تراه محتاجاً الى (قاموس) ! ! وقال الاستاذ : قاموس الشتائم (٦٦) وكاتب
محترم كرثيف لا يعبر بكلمة قاموس عن المعجم . ان القاموس عنوان معجم بعينه
وليس من مرادفاته كما نتوهم .

وقال : قهرته على ارادته (٤٠) وهذا الفعل يتعدى بنفسه . لعلمها قيسيت على
قولهم : غلبه على امره، ولكن هذه غير تلك، وفي قهرته غنى عن على ارادته .
وقال : ان يلقاه رجالك فيركبوا عليه ذنباً تأخذه به فتسجنه، (٧١) ان (يركبوا
عليه ذنباً) عامية سوقية، ولكنها من البضاعة التي يريدونها . ليفهم الناس عن
الكاتب دون ان (يهديهم - الصواب : يهدي اليهم يا استاذ ز . - مع كل
نسخة من روايته قاموساً مدرسياً) . وقال : فعلام بقيت ثيابه القديمة هي اياها
(١٤٨) أهى قضية استحلا. أم هي قضية اصول ! ! فالصواب : هي هي .

وقال : لقد مست القدر باطراف اصابعها ثم مسحت على وجهها (٣٧) فلا
يقال هنا مسحت على وجهها ولا مسحت وجهها، فمسحت على وجهها كلام عامي
غير فصيح، ومسحت وجهها يراد بها التنظيف، فعليه اذن ان يقول : ثم مسحت
بها وجهها، او ثم مسحت بالحم وجهها . ان الاستاذ يعرف بيت الاخطل :

بني كل دسما. الثياب كائنا طلاها بنو العجلان من حمم القدر

وكاني اسمع الاستاذ ز . حين قرأ هذا البيت، يقول : اسمعوا يا بشر !! يريد ان
 نقول كلاخطل ! نعم يا ز . ان كاتباً موهوباً كرثيف يطلب منه صحيح الكلام
 كلاخطل . وبعد اسطر من هذه الصفحة يقول : تشد ثيابها تريد تمزيقها (٣٧) .
 وهو يريد قول العوام تشد بثيابها . فيا ليتة عبر هنا مثلهم فقولهم اقرب الى الصحيح .
 وقال : وينفق بذخاً واني ابذخ (١٤٣) وفي هذه العبارة ضعف من جهتين :
 الاولى ان فعل بذخ ليس بمعنى الاسراف، والثانية انه لا يقال ينفق اسرافاً ليقول
 رثيف : ينفق بذخاً . وقال : كان خنجراً طعنه في صدره (١٠٧) وهذه ايضاً
 تعريب تعبير العامة : (كان خنجر طعني في صدري) الخنجر يا سيدي، يطعن به
 ولا يطعن هو . اما اذا كان قد استحدث خناجر او توما تكية من هذا النوع ولم
 اسمع بها . . . فيكون الكلام صحيحاً .

وقال : فك هذا الوثاق عن يدي ضيفنا (٨٣) والصحيح فك وثاق، اما عامياً
 فيقولون (فك عتو) .

وبعد هذا الكر والفر في رواية (الحب اقوى) اقول انه بدا لي اليوم ما لم يبد
 لي من قبل، وهو ان تعبير الصديق رثيف متأثر جداً بالتعابير العامية، وهذا لا
 يفعل الا بجذر شديد، فعليه ان يتدارك ذلك في قابل . ولعلي اكون في نقدي هذا
 له، قد أدبت خدمة جأى اذا اكنشفت في أدبه شيئاً لم يكن يظهر لولا التمهيص .
 رحم الله من قال : مذاكرة الرجال لقاح الالباب .

هذا ما حضرنى - الآن - يا ز .، ولو كنت تعرف، يا أخا الاذاعة،
 خصائص لغة العرب لما استغربت انتقادي ذلك الاستغراب، بل لو كنت تعرف ما
 تولده حروف الزيادة من زيادة ما قلت اني اعود بكم الى عصر الانحطاط . ان
 العود الى عصر الانحطاط حقاً يكون حين لا نكتب صحيحاً بلغتنا، فيصح فينا
 قول المتنبي : قد افسد القول حتى احمد الصمم .

ان لغتنا لغة ايجاز، بل قل لغة اختزال، فاعليتنا الا ان نتبحر، ونقرأ كلام

الفصحاء لتصح عبارتنا . ان من لا يكتب صحيحاً ليس بكاتب، ولو نطق بحكمة
سليمان وفلسفة توما وابن رشد .

كنت اردت، اولاً، ان اجعلها (من الجواب) ولما وجدتني محتاجاً الى عدل
وضعتها في محلها هذا . واعدكم، منذ الآن، بان اكون اكثر وضوحاً بعد اليوم،
فلا احوج احداً منكم الى الاستفسار والاستيضاح . . . ان للغة اصولاً وقواعد
يجب ان تحترم، وان اولى الكتب بالنقد الصارم اثر فني كرواية (الحب اقوى) .
واني لا اعتذر للصديق العزيز الاستاذ رثيف اذا كان يعد عملي هذا اساءة . ان من
يعطى كثيراً يطلب منه كثير . ورثيف ادبيتنا المرجى فليدقق قليلاً . اما صاحبنا
ز . . فاشكره جداً لانه اثار هذا الصيد . . .

حاشية - كتب الي (قارى) - لا ادري لماذا استجى باسمه - يقول : اذن
كيف نعبّر اذا اردنا القول : وكاد يجن هو الآخر .

الجواب : وكاد يجن هو ايضاً . ان ايضاً لم تخلق الا لمثل هذا المحل .

شفتان بخيلتان - لرياض طه

عندما اصدرت دار العلم للملايين مجموعة الاستاذ رياض طه القصصية - شفتان بخيلتان - جاءني تحتال كما قال ابن الرومي : خيلا الفتاة في الابرار .

يحق لرياض طه ان يتيه ويعجب بعرائسه الحسان، ولكن ليس له ان يحملهن في جيوبهن بطاقة حافلة بالابتهاار فيجر سلاحه على (مارون عبود) . ظن رياض، كما ظن غيره ايضاً، اني شئخت فاتسع صدري، وصرت حليماً، كما قال مرة صديقنا الاديب محمد النقاش، حين ممعني انني من محطة الشرق الادنى على بعض الكتب ولا انتقد الانتقاد المر .

اما ما كتبه الي صديقي رياض فما بدأت بقراءته حتى انتفضت كالصفيور بلله القطر، وركبني شعور لا اقدر ان اجد له نعتاً . خلت ان الرجل ينعي الي نفسي، حين ابتدا هكذا :

«لؤمن خلا كان المؤلفون يرهبون مارون عبود، فيترددون لدى نشر كتبهم متهيئين الوقعة ...»

«اما انا فلم اتهمب، بل اسرعت الى نشر هذا الكتاب بكل جرأة وتحذير ... وذلك لان ابا محمد التي سلاحه على ما يبدو ... ولاني لست من اولئك (الغطاحل) الذين كان مارون عبود يعترضهم ليفرك مناخيرهم ...»
«مع احترام وتقدير رياض طه . ١٩٥٠/٤/٢٤» .

والله العظيم، ما آلني الا عبارتان : لؤمن خلا . وكان مارون عبود . لم تكن تهمني لفظة (كان) لما كانت لبطني تهذ الحيط، اما اليوم فكل فعل ماض،

وخصوصاً كان وخلا وما اشبههما، يصح بي ان اقول عند مماتها : ميمت باذني رثة
السهم في قلبي .

ليس . فلندخل الموضوع . قرأت تلك الاقاصيص الرياضية وفي نيتي ان اتناول
(المهداة) ولكنني رأيت امامي بناء طريفاً، وكاتباً في عز طلعه يرجى خيره، قد
اعرب في محاولته الاولى عن مقدرة فنية في اكثر اقاصيصه . وهذي خطتي مع
الثنيان، اما السدس من الكباش وما فوق، فالأجدي - . حتى اساء - ان يجعل
عبرة وعظة للطري عودهم . اقول هذا لئلا يغتر احد ان شباني ولي، ثم هل يطلب
منا ان نخطم بحق، وبغير حق !! لا والله .

اظن انه حان لنا الآن ان ننقل ما كتبناه بالحرف عن (شفتان بجيلتان)، بتاريخ
١٤/٦/١٥٠٠، واذيع في وقته من محطة الشرق الادنى، ولا تزال نسخته محفوظة
عندها كما ان الاصل عندي وهذا هو :

« شفتان بجيلتان عنوان اقصوصة جملة مؤلفها الاديب رياض طه عنواناً لمجموعة
اقاصيص طريفة . قدم لهذه المجموعة القصصي الشهير الاستاذ محمود تيمور، واثني
عليها بالتي هي امله . فاقاصيص رياض ذات لون محلي صارخ، وبعبارة قصصية حقاً .
تمشي القصة على رسالها حيث لا يتكلف رياض طه الخلق، اما حين يحاوله فتبدو
الغرابة، ويقع المستحيل الممكن . . . وكثيراً ما تنتهي هذه القصص بلا اطلاع
على نبال في جريدة، ولا بدع فرياض بمن مارسوا الصحافة ونبه فيها شأنهم .

الحوار عند قصصنا الموهوب طبيعي لو لم يكن يفسده غالباً بكلمات لا ينطق
بها الناس عادة في المحاوراة مثل : لقد، وان، وامثال هاتين .

اما البدعة الجديدة التي لم أرَ مثلها من قبل، فهي ان الاستاذ رياض طه يعارض
من قدم لكتابه باقوال غيره فيه . فاذا قال تيمور برفق : (وكأن هذا كله قد أهلك
شيئاً ما عن عنصر له مكانته في الفن القصصي، ذلك هو التحليل النفسي للمشاعر
والمواقف والشخصيات) علق رياض حاشية تنقض هذا القول وهي :

نشر الاستاذ صلاح الاسير مقالاً في نقد هذه المجموعة قال فيه : (ولقد استوقفتني قصة (بعد خيانتها) لانها تنبض بالتحليل النفسي العميق، دون تكلف له او تصنع) .

وهناك حاشية اخرى يدحض فيها ايضاً كلام صاحب المقدمة . قال تيمور : (ان الحياة على اختلاف ألوانها تهتف بنا ان نوليها حقها من الوصف والعرض والتصوير، فلا تفلتتنا عاطفة الحب وحدها) فكانت حاشية اخرى للاسير ناقد هذه القصص، وهذا ما احتاج اليه منها : (ان عنايته - أي رياض - بالحب في جميع قصصه تصبح حدثاً عارضاً في سياق الحياة الخافقة بألف لون ولون . ومن اجل ذلك يجتني الحب في قصصه ساعة ينبغي له الا يكون فليس الحب عنده - والله الحمد - ضرورة قصصية . . .) (المقدمة ص ٧) .

اما الذي لاحظته انا فهو ان القصتين اللتين كتبنا عام ٤٩ هما دون اخواتهما، ولعلهما كتبنا على عجل، او لتكبير الحجم، وان كنت اعلم حق العلم ان دار العلم للملايين ليست في هذا على رأي احمد فارس . . .

رأيت رياض طه في القصص التي تلاثم عمره ابرع منه في سواها، فقصه (بعد خيانتها) تجري على هينتها، وهذا السير السريع المطمئن من مقومات القصة الفنية، وهو يدلنا على ان ما ينبع من النفس تسهل تأديته .

قد اجاد صاحب (شفتان بجيلتان) سلمت يده .

هذا ما اذيع بحروفه من محطة الشرق الادنى، لم ازد عليه مدحاً ولا قدحاً . وانما زدت حواشي الاسير وكلام تيمور لان المجال في الاذاعة لم ينفسح لذلك، والآن بما انا نشر النقد في جريدة صاحب (شفتان بجيلتان) فلا بد لنا من زيادة ولو قليلة .

قصة (قلب من حجر) جميلة بدايتها ولكنها قصرت عن مستواها في النهاية

ولاسيما حين تكلف رياض خلق الفاجعة التي اوحاها اليه ممك بلده النادر الوجود
- الهرملاني .

سخي ف طلب تلك الانسة التي علمتها عمتها المقهورة تلك التعاليم التي يقطر منها
كيد النساء : عذتي الرجال يا هيفا ، حطمي قلوبهم ... الخ . طبعي جداً كان
مطلع هذه الاقصوصة ، ولو ظل السياق مطرداً لكانت من اروع الاقاصيص .
ومع ذلك اقول : في الدنيا سخف كثير ، فقد توجد واحدة تتنعم وتتأني كهيفا .
ثم تطلب اخيراً السمك الهرملاني ... ولكن وفاء هيفا . لصاحبها يستر عليها .

اما ملاحظاتي على الاسلوب فأرى ان فيه بعض عبارات مدرسية ولغوية يزجها
رياض زجاً فتشوه انشاء القصص الجميل مثلاً : تغذ في سيرها ، وكزتها بأظافرها ،
ثم الفينة المنفلوطية . فقله تغذ اشبه بقول الشاعر صلاح لبكي امس ، في ذكرى
الريحاني :

وامة طارت بهاليلها بأجنح الصقر وعزم البزاة

لماذا أثر صلاح بهاليلها ولم يقل ، مثلاً ، مغاويرها ؟ من يدري ، وللناس فيما
يعشقون مذاهب ... وكذلك لا يعلم احد اي شأن لرياض في تغذ . فليفعل ما
شاء . ولكنني ارجو منه ان يترك السين وسوف في الحوار ، وان لا يكثر من
استعمال (إن) فهي اكثر مما يلزم . ولينفر من العبارات المملوكة وليكثر من
مثل هذا التعبير : الثغر الممتلئ* الثائر . اما قوله : احتواها المقعد ، وان قالها شوقي
- همت الفلك واحتواها الماء - اضطراراً ، فهي لا تحلو لحسنائه ولا لقصي
من طرازه .

واذا قلت يا رياض رأيت سامياً ، مثلاً ، فهذا كلام صحيح لا غبار عليه ،
ولكن لأي سبب تقول : وما دمت اهوى نوالاً . قل اهوى نوال ، لانه صحيح
وطبعي في وقت معاً . ان نوال ممنوعة من الصرف لانها اسم علم مؤنث . فلو

كان زيد اسم علم لامرأة منع من الصرف، كما قال ابن مالك : او زيد اسم امرأة لا اسم ذكر .

وفي الحوار الذي تهنا عليه احر التهنئة اسمح لي ان افصل ما اجملت، حين كتبت لمحنة الشرق الادنى، تقول في قصة (يوم افتراقا) : لقد طالت غيبتك جداً يا استاذ، اين انت في هذه الايام ؟

طيب ! ولكن ألا ترى (لقد) هنا مثل عقدة في قضيب خيزران ؟ ثم جواب الاستاذ : والله، لقد كنت مشغولاً . ألا ترى لقد هنا ابشع وابشع ! ! ناهيك ان اصول البلاغة لا تدعونا الى استعمال لقد . فبعد القسم بالله لا يحتاج اليها . أنسيت قول النابغة حين حلف للنعمان وقال : وليس وراء الله للمرء مذهب .

نسيت ان اقول شيئاً، وهو ان شخصك كأنها ذات وجود، نستطيع ان نغيزها ونشعر كأننا نعيشها، اي ان بعضها يحمل هوية - تذكرة نفوس - فيها علاماته الفارقة، كما ان القارى ينتقل معك الى حيث تنقله حين يقرأ قصصك، ولا سيما حين تحدد الاماكن ضمن اطار معين .

اهنتك ثاني مرة .

حاشية : أرأيت اني لم ارحمك، فارجو منك ان تعذرنى ان كنت لم ارحم غيوك . . .

مذكرات الأرقش - لمخائيل نعيمة

مikhail نعيمة اديب مسكوني، ولا القبه بالاستاذ لانه لقب عم حتى خم .
ولا اميمه فيلسوفاً لانه اديب قبل كل شيء، وتظل صبغته الادبية ثابتة مها
غسلها وطهرها بزوفى الفلسفة . وهذه المذكرات الارقشية، بدأ بها الاديب الكبير،
في جُزه الادبي، وقد قرأت منها فصولاً منذ ثلاثين سنة، وما هو قد أتمها لتخرج
سفرأ صغيراً في حجم اوراقه ولكنه كبير بما يحتوي عليه من الفلسفة النعيمية التي
احبها قولاً واکرهها فعلاً .

على (الجندي المجهول)، و (مذكرات الارقش) و (العاقر) و (الغربال)
اسس ميخائيل نعيمة صرح شهرته القلمية ، ولنا نقول بدءاً اذا ما قلنا ان
مذكرات الارقش - لولا حوادثها - هي مذكرات الاستاذ نعيمة، انها مذكرات
اديبنا في مبادئها العامة لا في حوادثها الخاصة، ولا غرو في ذلك فكل ما يكتبه
الفنان من خيال او واقع هو الفنان نفسه . فالتحفة حين تجني ما تجنيه من الزهر
لا يكون أرياً حين تمتصه، ولكنه يصير حين تتمثله وتمجسه عسلاً شهياً فيه دواء
نافع للناس .

لا استطيع تلخيص فلسفة نعيمة بمناسبة الكلام عن كتابه هذا، فهي متنوعة
الالوان تتناول اكثر شؤون الحياة، وتنظر اليها أحياناً نظرة لا تتفق مع نظرة البشر
العاديين مثلنا !! فالموت في نظر المؤلف اكمال الناقصين ، والناس اولاد الذين لم
يدركوا رشدهم . ان الصوفية والمحبة ومقابلة الشر بالخير هي قوام الفلسفة النعيمية،
ولعل هذه النزعة جاءت الاستاذ من الروسية التي تعلم في مدارسها وقرأ كتابها
العظام . ولكن لماذا نبعد، بل لماذا نفتش عن جذورها في الغرب ؟ فهذه الفلسفة
فلسفة التعااضي والغفران لبنانية توحى بها وادي الجاهم وذرى صنين . فالموت

أكمال الناقصين عقيدة لبنانية تعتقدها فئة غير قليلة في لبنان . . . وكذلك الافكار
الخيالية التي يناعجى فيها البحر بلسان الارقش :

(يا بحر يا قلبي وقلب الاله . يا نائماً لا يستيقظ، ومستيقظاً لا ينام .
ابديتك لمحمة، ولحمتك ابدية . احبك ايها البحر . احب سكونك الشائر ،
وثرتك الساكنة، فثورتك ثورتي، وسكونك سكوني . فنحن مجران ايها البحر،
ولكن الارقش هو البحر الأوسع الاعمق والابقى . فأنت يأتيك يوم تنقلص فيه
وتنضب وتنضب، اما الارقش فلا يتقلص الا لينتشر ، ولا ينضب الا ليمتلئ بما
لا ينضب) .

شؤون وشجون شتى يعالجها الكاتب بلسان الارقش، وانت تشعر حين تقرأها
انك التقيت بها في مكان ما . اجل انها فوق ادراك الشخصية التي اختارها
المؤلف لبث مثل هذه الفلسفة العربية . انها افكار مثالية كالتي تعود ان يعالجها
ميخائيل وان لم يكن من الصوفية في هذا المؤلف، فهي لا تطفئ هنا كما تطفئ
في مؤلفاته الاخرى . فهذا هو ينحدر من كهفه ويرى الناس وخصوصاً العمال،
فيخصهم بفصل شائق . كأنني به قد رأى بعينه نقاوة اليد العاملة في قريته بسكنتا
حيث تحرث الايدي الحشنة وتنقي وتشذب، وتداوي تلك الجئات الزهراء فتفيض
على البلدة خيراً وبركة فقال بلسان ارقشه :

(اليوم عيد - عيد العمل - والارقش عامل، ولكن العيد ليس عيده . وأي
يوم هو عيدك يا ارقش ؟

انت وحدك بين كل ما في الارض من آدميين لا عيد لك . وهل العيد الا
ان تستمتع ولو بنعمة واحدة من نعم الوجود ؟ ! اما نعم الوجود جميعها فمن ذا
يستطيع ان يستوعبها في يوم واحد، او عام واحد، او عمر واحد، بل في الف
عمر وعمر .

واعياد الناس مع ذلك هي اعياد عيون، وآذان وانوف، وجيوب، وبطون).

ثم يعدّد نعم العمل حتى يقول :

(يا نعمة تلجم البرق فتجعله مطية للفكر وسراجاً للعين، يا نعمة العمل الخلاق
يا اكبر نعمة . بماذا اكفى الذين زرعوا وحصدوا فأكلت، والذين نسجوا وخاطوا
فأكنسيت، والذين خلقوا الحروف والمطابع والورق فتعلمت وقرأت وكتبتي .
وقبل ختام مذكرات الارقش نسمع لغة انبياء التوراة ولهجتهم وتقريعمهم كما
في الصفحة ١٢٦ .

وبعد، فقد نسيت ان اعرفك بالارقش . الارقش خادم في قهوة لا نعرف من
أمره، في اول الكتاب، غير ان له مذكرات عثر عليها بعد اختفائه . اما في الختام
فنعلم انه رجل ذبح عروسه ليلة الزفاف، وترك قرب سريرهما هذه العبارة :
« ذبحت حيبي بيدي لانه فوق ما يتحملة جسدي ودون ما كشتاقه روحي » .

اراد الاستاذ ان يجعل من هذه المذكرات قصة، فنعمت القصة كانت لو لم
تظهر شخصية نعيمة فيها ظهوراً علنياً . اما مبادئها فلست افاقشها لان الآراء لا
تفرض فرضاً، ولكنني اتعرض قليلاً، وقليلاً جداً، للعبارة، فالذي حمل الاديب
الرصين على القول : كلني اليوم اضطراب . فلو كانت (كلني) من العامي الفصيح
كغيرها مما استعمله لاستعملناها ولكنها ليست كذلك . فنون الوقاية لم تخلق
لتقي الامماء من الكسر، لان الكسر من خصائصها . ثم قوله بعد ذلك قوقعة
الدوايب، وصوابها القمعة اذا كان يريد هذا، ثم قوله في مكان آخر : تحديق
بي من خلف اهداياها، وحققا ان تكون تحديق الي، ثم قوله : لا تنح يا اباه، فيا
اباه غير مألوفة قبالة يا اماء . واذا كان استحلى الندبة فما كان عليه الا ان يقول :
يا ابتاه .

ان كاتباً عظيماً كخائيل نعيمة يطلب منه الكثير لانه قدوة للناشئين، فاذا
ما تجاوز حدود اللغة شهراً اجتاحت اولئك حدودها وتحومها .

خمسة ايام في ربيع الشام

١

كنّا ننتظر من (معلم المعلمين واستاذ المربين ١١) فؤاد افرام البستاني كتاباً أجلاً من هذا شأناً، ف (خمسة ايام في ربيع الشام) عنوان مغرٍ، يومهم سامعه، قبل ان يقرأه، انه مقبل على قراءة وصف لما شاهد استاذ الجيل ١١ في هذه (الشطحة) اللطيفة . ولكن الامل يخيب حين تقع العين على هذه العناوين المضحكة المبكية . وكأن المؤلف، حفظه الله، ونفع لبنان بعلمه، قد شعر مثلي بما في هذه العناوين من سخف، فأراح القارى من رؤيتها مجمعة في فهرست، وحسنأ فعل .

واما وقد شوقناك اليها فهالك، او لا نغزجاً منها ولعله ابرعها ١١ : رحلة الموزاييك في سيارة بويك . وهذا الفصل هو فاتحة الكتاب، فقل معي احسن الله الخاتمة .
افتحه الاستاذ بقوله :

خمسة ايام في ربيع الشام !

وما دمنا على التقليد الجاري في تسجيع العناوين فلم لا نقول : (احاديث السندباد في جزيرة ارواد، او العود المأنوس الى ساحل طرطوس) . ثم حقق الاستاذ القول ومشى على مهل يقص على هذا الهنداز ويقول : نسج المغاريت في مغازل عمريت، وبيوت وقباب من طين وتراب، وشجر وماء في حلب الشهباء، ومن راميتا القينيين الى عاصمة العاويين، وانعطاف الطريق الى قبر الزنديق، عفواً، نسيت : الراحة والايناس في حمامات بانياس الخ. . .

(١) خمسة ايام ص ٣

لقد حرت في امر هذه العناوين ولم ادر على ما تدل، ففؤاد كما عهدته من ذوي الذوق السليم، وظللت احسبه يهزل في سبجه هذا حتى بلغت آخر كتابه وقرأت : (وفي رواية الامير المؤرخ - يريد المير حيدر - نكهة عتيقة، وسجع ابتدائي، لطيف'. فأيقنت اذ ذاك ان الامر منه هو الجلد، فهو اذن يحب السجع ويريد ان يبدعه (ثنائياً) لا ابتدائياً... ألسنا في عصر القنابل !! فلماذا لا نصنع من السجع قنابل ذرية، نبيد بها من نشا....

وشاء الاستاذ الكبير ان يضم كل شاردة وواردة في كتاب (خمسة ايام) فشرع يعدد لنا في فصل (رحلة الموزاييك) كل ما مر به هو وتلاميذه وتلميذاته من مدن الشط اللبناني، اممع كيف قال : (هذه قهاوي نهر الكلب... وهذه جونية... وهذه طبرجا... وهذا نهر ابرهيم... وهذه جبيل... وهذا ساحل البترون... وهذه طرابلس... وهذه بركة البداوي... وهذا النهر الكبير...)

ثم يعود الى مثل هذا الاسلوب الرائع الجميل مبارياً السيارة البويكية، ولا عجب في هذا ألسنا في عصر السرعة !! لقد ذكرتني هذه الهذه وهذه وهذه بما كنت اسمعه، حين كنت صبياً، من صاحب صندوق الفرجة - صندوق الدنيا بلغة مصر - . تفرج يا حبيبي وشوف، تما تفرج يا سلام، هيدي عبلا بالتأم، وهيدا عنتر الدرغام . هيدي عندك سطمبول، هيدي لندن يا سلام . . .

وبعد، أليست الطرافة من مقومات كتب الرحلات، فأين هي يا ترى في هذه الرحلة البستانية الجديدة !! أفى ما شاهده الاستاذ في (سراقب) من اسلوب جديد للاستسقا. لا يعرفه، ففهم حين وقعت عينه عليه، الصورة الشعرية في قول عنتر :
يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بئر في لبان الادهم

اما كيف، فاممع استاذنا يخبرك : (يوكب احد الولدان حماراً او بغلاً يشد

في جلاله جبل الدلو، ثم يسوقه مبتعداً عن البئر فتصعد الدلو حتى الحافة فيتناولها
أحد المستقين ويفرغها في دسوت النساء المزدحمات على الدرج . ويعود الحمار ادراجه
فتنحدر الدلو على مهل^(١) .

حقاً انها ساعة فيض، اذا كان لاساتذة الادب ساعات فيض وحقاً ان
الغربة تلقح الازدهان الثاقبة فتنتج لنا غلماً خيراً من غلمان زهير والا فكيف
نفهم بيت عنقرة لو لم ير الاستاذ فؤاد حمار سراقب ! !

ان كتاباً مثل هذا يا معلم اسرائيل، يكتب دون تجشم أخطار ارواد التي
نجاك الله منها، فأنت فيه تحاول التأريخ لا الوصف المطاوب من السواح . انه سياحة
في الكتب لا في دنيا الله الواسعة، والأولى ان تسميه (خمس ايام في كتب الانام) .
قد يقول غيري : هذا ما يسوونه الاسلوب العلمي، اما انا فاشهد انه يدق على
فكري، وأرى، وقد اكون على ضلال، ان من يعجزون عن الاسلوب الشخصي
هم الذين يتحصنون في قلاع الاسلوب العلمي المنيع . . .

اعجبني ما قرأته في هذا الكتاب عن شاعر الطبيح الحمصي، فهو وان يكن
منقولاً كغيره من تاريخ المدن، ففيه فضل انقاذ قارى هذه الرحلة من الاختناق
في هذا المحيط التاريخي المعتم . . .

وشاء الاستاذ ان يتطرق فتغلغل، كماداته، في أنفاق الكتب القديمة مجعاً من
هنا وهناك ما ذكر عن المحصين من نوادر المغفلين، وقد نسبها الى اصحابها ابراء
لذمة البحث العلمي . . . وكأنه فطن الى ان ما ذكره من هذه الاخبار قد جاء
فاضلاً على الكفاية فحاول ان يجبر خاطر المحصين بذكر بعض النوابع فقال : ان
(اسرة اليازجي حمصية الاصل وان تكن لبنانية المقام، وكذلك القول عن المعلم
بطرس كرامه فانه نشأ في حمص قبل ان يتصل بالامير بشير الشهابي الكبير) .

(١) ص ١٣٥ (٢) ص ١٧٧

لا ادري لماذا لم يأت على ذكر امين الجندي، وهو شاعر حمصي مشهور ومن معاصري كرامه واليازجي، بل كيف لم يأت على ذكر ديك الجن الحمصي الشاعر الأشهر . ولكن الامر يهون متى علمت ان الاستاذ لم يرض لمخص ببشر عاديين مثلنا، فراح يقلب صفحات مروج الاخيار - السنكسار - ليعود ظافراً لمخص بشهداء ابرار اطهار مثل البابا نيقيطيا، والقديس غلقتيون وامراته ايبسا، والقديس اليان المتطلب، اشهر شهدائها^١.

واخيراً بعد ان اضته هذه الرحلة في بطون أودية التاريخ التي تجشم اهوالها - وقد يجثم الهول الاديب المؤرخ - قال لنا : ها ان الليل يتقدم، وتاريخ حمص طويل، وكذلك الاحاديث في سكانها، ونحن على سفر في الغد نحتاج الى راحة وسكينة، فلا بد من النوم^٢.

نوم الهنا يا سيدي، تصبح على خير، والى اللقاء .

(١) ص ١٧٧ و ١٧٨ (٢) ص ١٧٩

ما ابطأنا على الاستاذ الجليل الا مكروهين، ومن حضر ما غاب، فلنبدا .
 لقد صعب على معلم المعلمين الخلق في (خمسة ايام) فالتجأ الى حنكليس
 - الجري - التاريخ وسردينه، وقديده على اختلاف انواعه . والناس يرتجون من
 الرحلة اما السمك الطازج او اللحم الطري . يحيرني جمود صاحب (لماذا) في هذا
 الكتاب، فهو يكاد يكون فيه كلبي منذر بشار ... ترى ألم تسر اليه تلك
 السهول المترامية الاطراف بكلمة طريفة ؟ ألم تقل له تلك الآثار شيئاً يقوله للناس !
 ألم يقع في تلك الرحلة على غير ما احتوته الكتب ! ! لقد كان كالبو في ذلك
 الدو ... كان رجلاً من حبر وورق، بل ياليتيه كان كذلك ولم يجمع في كتابه
 الاضداد : من كلمة سوقية الى كلمة لغوية، فن دسوت اللابن الى (سوقا للاختيار
 شهيرة)، ومن كبش العليق، واشيار، وطرايين، وشعشوع، وزمزيق، (١٠٩) .
 الى (الزبافة) العنترية التي جاءت في كلام معلم المعلمين كرقعة جديدة في ثوب بال ...
 اما الجمل الضعيفة التأليف فيليق بها تحريف بيت النراسي : ذكرت شيئاً وقد
 فاتتك اشياء ... لانها لا تحصى .

قال الاستاذ، نفعلنا الله بعلمه : نغفر الحدود صورة الدولة (ص ١١) والصحيح
 خفرا . لا خفر .

وقال : هو النهر الابرش . وقد قطعنا احد سواعده من دقيقتين (١٢)
 متوهماً ان سواعده جمع ساعد، بينما هي جمع ساعدة، ولهذا وجب القول : احدى
 سواعده . ثم ليته قال منذ دقيقتين، لتصح عبارته ويزول اللبس .

وقال : ونحتل الثاني في جمهور الطلاب (٢٣) والصواب بجمهور .

وقال : وفيها الغربان (٢٤) فكان كلام العوام اصح من كلامه، لانهم يقولون

عزّاب . وقال : وترآكم البيوت بعضها فوق بعض (٢٨) ، والصواب : ترآكم بعض البيوت فوق بعض ، او ترآكم البيوت فقط ، فعني ركم الشي . وضع بعضه فوق بعض .

والذي يتفصح ويعنى بالتدبيح ، كما فعل الاستاذ في هذه الصفحة لا يغض النظر عن قوله : (مشحات الغيوم الجهم ، ويفقش فيها الموج مشعاً صافقاً) . فالفقش للبيض ، والمشحة سريانية لا عربية . ابعدها الله عني وعنه ...

وقال : وكان للمطران ابرهيم ان يستدعى الى حلب ، فينتخب (٦٢) . لعل هذا التعبير فينيقي !! اما في العربية فيقال : وكان ان استدعي الخ . وقال في هذه الصفحة متحدثاً عن النور : يتخلل من النوافذ (٧٢) وهو تعبير فاسد اذ يقال : تخلله لا تخلل منه . ثم قال : على نحو المعروف (٨٤) والصواب : على النحو المعروف .

وقال : يقصدها المالك والامراء من اقصى الحدود ، وتقر بها جماهير الزوار هدفاً من اهدافها في الاراضي المقدسة (٨٦) اما كيف تقرأ بها هدفاً ، فهذا مما لم افهمه ايضاً من كلام الاستاذ .

وقال : حتى تجمع شباب اللاذقية (٩٤) لست ادري من قال له ان كلمة شباب خطأ حتى صححها في آخر كتابه ، وجعلها (شبان) . ألا يذكر (معلم الجليل) قول السموأل : شباب تسامى للعلی و كهول .

وقال : حتى لا يكاد يبدو (١١٠) وصوابها حتى يكاد لا يبدو . وقال في هذه الصفحة ايضاً : بيد ان الحقايب مشتملة على الزوادات . لا ادري من اين جاء بهذه الزوادات ، زاد الله في عمره ومعرفته . انها من فصيح (سنتا) رحمها الله . وقال : ينصرفون اكثرهم الى الزراعة في وادي العاصي (١١١) وحققا ان تكون وينصرف اكثرهم ، فنحن في عصر الددت .

وعاد ايضاً الى القول : مشحات الكلا والشعير (١١٩) فن مشحات غيم الى

مشحات شعير، ثم لا ادري الى أي مشحات أخر يؤدي به المطاف . . . ترى
أعجزت اللغة عن لفظة تؤدي معناه !!

وقال : وهو غريب فيمن يعيش في مثل بيئة حماة جمالاً طبيعياً، ومناخاً سهلاً
الح (١٥٠) . لعله اراد شيئاً لم يحسن التعبير عنه، فوجه الكلام هو : وهو غريب
فيمن يعيش في بيئة مثل بيئة حماة جمالاً الح، اي بزيادة كلمة بيئة قبل مثل .

وقال : يؤمنونها لبيع منتجاتهم، ولاسيا الخيول المشهورة بها حماة، ومشتري
حاجاتهم (١٥١) . فاضطربت جملة لانه فصل بين المعطوف والمعطوف عليه بجملة
اطول من شهر الصوم .

وقال الدجاج المحمرة (١٥٨) مع ان المطاعم تكتب (دجاج محمر) !!
وكيف ينسى وهو استاذ ادب، ومصنف (الروائع)، قول صاحبه الاخطل : صاح
الدجاج . وقول صاحبنا ابي نواس : صاح الدجاج ببشرى الصبح مرات . . .

وقال متايلات بالفساطين الزرق على الشراويل الحمر (١٧٠) فاذا كان يريد
الشراويل لبنانية فهي لباس الرجال، فلماذا ابتعد عن السروال ولم يقل كالمتنبي،
وبديع الزمان في مضيئته : ودخل في سراويلها عشرون ذراعاً . . . ثم اين هذا
من قول الريحاني : وشموت بكرم فضأح . . . ان رحلة الاستاذ على كثرة عدد
صفحاتها لا تساوي صفحة او صفحتين مما كتبه الشدياق والريحاني في هذا الموضوع .

وقال : يستجر الجوع (١٧١) ولعله اغتر بقول المتنبي : باجسام يحرق القتل
فيها . ان الجوع يبرد ولا يحرق، فلماذا رغب في فعل حار ؟

قد يقول بعضهم : لماذا كل هذا التشدد ؟ والجواب هو ان البلاغة تطلب
من رجل يخرج معلمين للوطن، فاذا كان هو هكذا فكيف يكونون هم ؟
وقال : وكأنه يتشامخ، ترفعاً ان قسه (١٩٥) . ان فعل ترفع يتعدى بمن

كقول المتنبي : ترفع عن عون المكارم قدره . . . فكيف ينساه المعلم وهو قد
نسخه لروائه !!

اما الجمل المخلة والكسيحة التي لا تقوم على امشاط ارجلها فقد ضربت
عنها صفحاً لانني لست مسيحاً لا قول لها احملني سريرك وامشي .

اعجبني الاستاذ حين وقف عند المعري واخذ يعلم شيخ الدهور القياس . . .
ويناقشه في الملائكة . . . والجن . فعل كل هذا في رحلة دامت خمسة ايام،
فكيف لو كانت اسبوعاً او اسبوعين . أفأكان أخرى بمعلم الجيل !! ان يصف
لنا ما رأى لا ما قرأ . أیظن قراء كتب الرحلات طلاب بكالوريا، او ليسانس
كلية الاداب الشرقية الليلية !!

ان رغبة معلم المعلمين في تكبير حجم كتابه هذا حملته على نسخ ما نسخ
من هنا وهناك وهناك حتى أدت به خاتمة المطاف الى الأخذ عن تاريخ المير حيدر .
واذا كان له عذر على هيأته في أودية تاريخ ارواد فاي عذر له في ما نقله عن
بغير يبر !! ولكن الاستاذ، حرسه الله، تعود اللهم واجمع في كتبه ومقالاته
جميعها - ما عدا قصته لماذا - وعادة البدن لا تتغير . . .

لما قرأت عنوان (احاديث السندباد في جزيرة ارواد) انتظرت عجائب غرائب
ولكنني لم اظفر بشيء غير وضع الاستاذ كلمة (مثل الزيت) بين قوسين، ثم
استعمله ما استعمل من الفاظ سوقية . . . واغرب من هذا كله ان يعمل (اصلاح
خطا) لكتاب لا تخلو صفحة منه من ركاسة او خطأ، فكتاب عليل سقيم
ككتاب خمسة ايام يحتاج الى خمسة اعوام في مصحح ظهر الباشق او الشبانية . . .
لا الى اصلاح خطا .

ان كتب الرحلات تحتاج الى طرافة وظرف، والاستاذ المحترم يعرف هذا
ويجب ان يتظرف، ولذلك جاء بتلك العناوين المسجعة، وينقل ما نقل عن شاعري
حصص وحماة، فصح فيه قول المثل : العين بصيرة ولكن اليد قصيرة . . .

واخيراً اقول : لم يكن هذا الكتاب يستحق النقد لانه هشة فاضر، خفي ما فيه تحقيق تأريخ ارواد ... اقول هذا بالنسبة الى معرفتي انا بالتاريخ، أما رأي الدكاترة حتي وزريق ورستم فلا اعرفه .

وهنا يحق لي ان اتساءل : ترى ماذا يقول مؤرخو النهضة الادبية، بعد عشرات السنين، اذ يقرأون كتاب (خمسة ايام في ربوع الشام) ؟ ماذا يقولون حين يعرفون من مطالعته ان الاستاذ فؤاد افوام البستاني كان مدير دار المعلمين الصغرى، واستاذ العربية وآدابها في النصف الثاني من القرن العشرين ؟ !

اللهم نج لبنان من تلك الساعة، واجز عنه تلك الكأس ...

سجل التوبة - رئيس الریحاني

هذا عنوان كتاب (یتیم) ألفه فیلسوف الفریکة، ابو الشعر المنشور . ابصرت هذه المجموعة القصصية النور، منذ اسابيع، بفضل القیم والوصي الوفي الاستاذ البير الريحاني شقيق امين، وعناية دار المعارف بمصر .

خلق الريحاني مطبوعاً على القص فكان فيه غير متكلف ولا متعمل . ظهرت باکورة ادبه فيه يوم اخرج (المکاري والكاهن) و (المخالفة الثلاثية) فكان الامين فيهما كليهما كاتباً واقعيّاً وان تخيلهما . ثم راعينا هذا النجم الذي تألق على منابر العالمين الغربي والشرقي، فاذا بنا نرى أبرز عناصر ادبه في خطبه هو القص الذي يسترعي الانتباه، بل يفتن ويغري .

فأمين لم يكن غير واقعي الا في شعره المنشور الذي طبعه على غرار شعر ويتمان الامريكي، ثم بهره وفلفله بشي . من توابل الصوفية الشرقية . اجل كان امين في هذا اللون البكر من الادب متصوفاً، ثم عافه وصار نضالياً صرفاً . عدى عنه الى ادب الرحلات والروايات والاقاصيص فكان في هذه كلها كاتباً وشاعراً واديباً، وناقداً اديباً، واجتماعياً، وفنياً، وسياسياً مخلصاً للعرب داعياً الى توحيد ملوكهم وامرائهم ورؤسائهم، كما يعرف كل من قرأ (ملوك العرب) وغيره . ولكن الامين ظل في تصانيفه التي لا قرابة بينها وبين الشعر المنشور دائم الحنين الى هذا الجيب الاول فرّص كتب رحلاته به .

ورأى الريحاني، بعد المخالفة والمکاري، ان يكتب روايات فكتب (زنبقة النور) و (خارج الحرم) . اما عنوان الرواية الاولى فلعله ينظر الى احد عناوين بلزاک . ولا اخالك تجهل لا قول لك ان اميناً حاول في فجر حياته محاولات جمة،

فمن فتي يلتحق بقافلة مسرحية ليكون ممثلاً فلا يفلح، الى طالب حقوق لم يثبت،
وانا لنحمد الله على فشله في تلك الميادين، فلولا ذيك الاخفاق ما كان لنا هذا
الاديب العالمي .

«واخيراً وجد امين ذاته فكان الكاتب الممثل حين يخطب، والحامي الفيلسوف
حين يكتب، وكان حنينه الى المسرح لم ينقطع فكتب مسرحية (وفاء الزمان)
بمناسبة ذكرى الفردوسي الالفية، وها نحن نقراً له اليوم في سجل التوبة مسرحية
رائعة عنوانها عبد الحميد، وهي احدى اقاصيص السجل الخامس). ان هذه الاقاصيص
مختلفة البيئة والالوان، فواحدة سطمبولية، واخرى تسالونيكية، والثالثة بابلية،
والرابعة نويركية، والخامسة لبنانية سورية، وهي جميعها نضالية تحارب الظلم
والرجولة المنحطة في كل مكان وزمان). عاش امين مكافئاً هذه الرذائل، وما
أتى سلاحه الا ستة عشر يوماً غيب القبر بعدها ذلك الوجه الانساني النبيل .

قالوا في عمر ابن ابي ربيعة : ما زال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر،
والريحاني الذي لم يفلح الفلاح كله في (وفاء الزمان)، لقد وفق جداً في مسرحية
عبد الحميد المار ذكرها . وامين الذي كان قصاصاً عادياً في (المكاري والكاهن)
امسى قصاصاً فنّاناً في (نبوخذ نصر) وغيرها من اقاصيص سجل التوبة . ولا
استثني من هذا القول الا اقصوصة (بقضاء وقدر) لانها دون اخواتها، وقد تكون
السياسة هي التي افسدتها... كان الريحاني في (خارج الحريم، والزنبقة) يحوم في
جو غير جوه، اما هنا فكتب في شؤون عجنها وخبرها فلم يكن عنها غريباً .

وبعد، فيظهر لي ان (اليتيم) محروس معان، فاذا نظرنا الى بواكير قصص
امين باعجاب فليس لانها فنية اصولية، بل لانها نادت بفكرة اصلاحية، وحملت
على التقاليد الهرمة فكان امين طليعة كتاب العقل في صبح القرن العشرين، فأعلنها
حرباً عواناً .

ان القصص هو ابرز خواص فيلسوف الفريكة، فهو اذا حدثك عن افقه الاشياء.

احسست بمتعة لا تجدها في كلام غيره من المتأقنين . كان اكره ما يكره امين
شئين : الاستبداد والتعصب الديني ، فكانت مكافحتها نجمة قطبه في خضم الحياة .
فاذا قرأنا الاقصوصة الاولى - شريف افندي - وجدناها كفاحية ، تربينا كيف
يحن الشعب الى نيره ، بينا هو ينتقل من مخالب نسر الى براثن غر . اما اقصوصة
عبد الحميد المسرحية الثامنة الالواح فغرضها معروف من عنوانها . لقد سلط امين
على ذاك الطاغية الجبار اشباحاً شكسبيرية رابعة ، فكادت ان تكون هي واقصوصة
نبوخذنصر من الروايات العربية التي تستحق ان يكتب على جلدتها : لا تقرأ ليلاً ،
كـبعض اقصوصات (بو) مثلاً .

(واذا كانت اقصوصة عبد الحميد المسرحية رائعة جداً ، فاقصوصة نبوخذنصر
في القمة القصصية فناً وفلسفة .) كافي بالريحاني قد تشبع من حكاية هذا الطاغية
في التوراة ، واعجبته كثيراً حتى شبه حاله ببطلها في كتاب ملوك العرب ، حين سم
اللحم الذي كان يصبحه ويمسيه مدة ثلاثة اشهر . وحن الى العشب فقال عن نفسه :
تبت (مبارك) الى مواطن الموعى الطيبة ، ورحت ارعى كالبعير ، بل رحت أدب
على الاربع مثل نبوخذنصر آكل الحشيش (ص ١٣٤ جزء ٢ الطبعة الثالثة) .

(قد لا يعرف القارئ العزيز حكاية نبوخذنصر . هذا الطاغية كان ملك بابل
ايام سبي يهوذا ، فتنبأ له دانيال انه يطرد من مملكته ويعيش دأباً على الاربع
كالبهائم ، حتى ينقضي الزمن المفروض ، ثم يعود الى ملكه بعد انقضاء زمن التوبة .
لعل هذا قد ألهم الريحاني قصته هذه ، ثم اوحى اليه هذا العنوان ، سجل التوبة ،
الجامع شتات اقاصيصه الخمس .)

وفق امين توفيقاً عظيماً في قصة نبوخذنصر التي اخترعتها مخيلته ، وقديماً كانت
التوراة مصدر الهام للكتاب والشعراء الكبار ، وامين واحد منهم ، فجعل من
نبوخذنصر عبرة للطلافة المستبددين . نصر عليه بالادان احد افراد رعيته ، فانتقم
نبوخذنصر من هذا المتسرد انتقاماً غريباً عجيباً . لم يرض له بالموت ، لان في الموت

راحة، ولكنه أخيراً مات غضباً عن الملك، واخذت روحه تصارع الملك فتظهر له في كل آن وتعذبه، وكان خاتمة هذه المأساة الرائعة ما قصته عليه هذه الروح من اخبار العالم الآخر فاضطرب نبوخذنصر، ومات معذباً .

يمضي امين في تصور (الآخرة فيذكرنا برؤى اغوستينوس وحكاية الانجيل عن الغني المعذب في النار)، وظل يطارد نبوخذنصر حتى (شقي من امراض الحياة كلها) اي مات، ولم لامين من تعابير جميلة كهذا !!

(اما اقصوصة (اكليل العار) فطريقة كآختها، وتريد عليها هذا السخر الناعم الذي يبدأ بالعنوان وينتهي بالختام . ان خواص القصة الاصلية تتجمع في اكليل العار، فهي متشابكة الحوادث بلا تعقيد ولا كلفة، يصور فيها الشخص تصويراً ممتعاً، فبرينا حركات اناس كثيراً ما نراها، حتى نكاد نقول : هذا فلان ! وان كان لي شي . يقال هنا فهو ان المؤلف قطع كل صلة بين بطل قصة اكليل العار ومعشوقته الاولى، فزحلت عن عتب الطريق تاركة توفيق زيدون يمضي بسلام . ولكن هذا طبيعي لانه يحدث في مجاري الحياة العامة .

(اما اقصوصة (بقضا . وقدر) فليست كأخواتها، ولهذا اقسام سجل التوبة ثلاث طبقات : الاولى نبوخذنصر، وعبد الحميد، واكليل العار، والثانية شريف افندي، والاخيرة، وهي اخيرة حقاً، هي قصة (بقضا . وقدر)، ولعل الامين قد كتبها بعد المنفى فلتح ولم يصرح .

ان فيلسوف الفريكة لم يكن مقلداً كجبران، ولا متنوقاً مثله، ولهذا تجد في كلامه الرائع والمادي، فهو في نثره كخليل مطران في شعره، دنيا من الفن والفكر فيها القسم والشايف، والادوية والكهوف والهوى .

كان على الواقفين على طبع سجل التوبة ان يصححوا بعض تعابير مثل : (فاذا بتوفيق زيدون واقفاً هناك)، فهي واقف لا واقفاً . ومثل : (كونوا اخواناً فتثرون

وتسعدون، ومثل : واليك الاجرة، وان كان الكثير من الكتاب يستعملونها
بمعنى خذ . ثم قوله : بحجر ارمي معتق . وتلصصني .

ان التعبير الصحيح شيخ السفرة في المآدب القلمية، ولكن شيئاً آخر يسد سده
عند امين الا وهو تلك العبارات الشخصية الطريفة التي يوصلها الريحاني هنا وهناك
فتنمش وتحبي الكلام. ان خلق مثل هذه الروائع لا يستطيعه الا عبقرى كالريحاني،
اما تصحيح ما ذكرت فيستطاع كل حين، ولكن تصحيحه ضروري لانه كالكلف
في الوجه الجميل .

رحم الله الريحاني الانبي، سفير العروبة المسخر يوم لم تكن السفراء، فعرف
العالم بنا . لقد اعطى امين وأخذ، وحلاوة الدنيا كلها الاخذ والعطاء، شرط ان
يكون ما يؤخذ ويعطى حلالاً زلالاً ...

تاريخ العرب - للدكتور محمد

وهذا رسول جديد يذيع مجد الامة في العالمين، بل هذا ابن بار يعرف كيف يجب أتمته فيجلو للعالم تاريخها العريق . فالدكتور حتى ارى الدنيا في تاريخه وجه الامة السمراء الجميلة النبيلة، ونظف صرح تاريخها من عناكب الاساطير، فبعد ان كنا منه :

لدى جوعاء . ليس بها أنيس ولا فيها الدليل بطلان

اذا بنا نقرأ تاريخاً للعرب شاملاً جامعاً بعيداً عن الغرض والهوى يتحدث فيه مؤلفه موقفاً بين عقله وعاطفته وعلمه، فلا تشيل كفة ولا ترجح اخرى . كنا نحسب صحراء العرب جافة يابسة فاذا بهذا التاريخ يرينا ان المدنيات الاولى قد نبتت في تلك الرمال الصفراء، وان اولئك البدو الذين كانوا يخوفون الصغار بهم كما قال الريحاني، هم سلالة لها ابيض يد على البشرية، والفضل للمستقدم .

يفهمنا تاريخ العرب للدكتور حتى ان شبه جزيرة العرب لا تقل مساحة عن ربع اوربا وثلاث الولايات المتحدة، وان فيها جيالاً يبلغ علوها ٣٧٦٠ متراً ان لم يكن فيها ما هو اعلى من هذه . وقد قال فيلسوف الفريكة في كتابه ملوك العرب حين رأى بعينه تلك الارض (هناك مشهد من الجبال والاوودية رائع مدهش مخوف يهس ربه في اذن الانسان : لا تكن مكابراً ولا غوراً . لا اظن ان في سويسرا مثل المشهد الذي ينبسط بل يتراكم امامك في اليمن . فما هول المسافات والشواهد بشي . عند هول الوهاد والاعماق . لبنان ! نعم ذكرت لبنان . ولكنه وان فاق (بوعان وشبام) علواً، فهو يضيع في جبال اليمن واوديته المتزامية الاطراف) .

لم يدع الدكتور حتى شيئاً مما يتوق الباحث الى معرفته، حتى كاد ان يلم بكل

شيء، وكان في مواقفه جميعها يزيل الابهام ويقرب التاريخ من العقل، فحدثنا عن
دستورية الجاهلية، وعما عرف العرب من حضارة ومدنية وثقافة، فكانت لهم
الزوايا الراسخة في بنيان الحضارة. وقد كان الاستاذ لبقاً جداً، حافظ على (علمية)
التاريخ، وحدثنا حديثاً رصيناً عن الامجاد التي نتغنى بها، فأرضى نفسه وامته والعلم.

روى مقتل عمرو بن هند كالوائق من صحته، ولم ينف ولم يثبت تلك
الاسطورة المنسوجة حول طرفة ابن العبد، وكذلك روى خبر حلة امرئ القيس
المسمومة. وقد قال حين تحدث عن المعتقدات الجاهلية: اما فكرة (الآخرة)
فاننا لا نجد في الادب الجاهلي اشارة واضحة اليها.

ولقد لفتت نظري لباقة حين تحدث عن هدم قصر غمدان، فقال: (ولعله
هدم في اثناء العراك الذي نجم عنه استقرار السيادة الاسلامية في اليمن). مع
ان الجاحظ خبرنا حين تحدث عن خلود الكتب قائلاً: والكتب بذلك اولى من
بنيان الحجارة لان من شأن الملوك ان يطمسوا على آثار من قبلهم. فقد هدموا
بذلك السبب المدن واكثر الحصون. كذلك كانوا ايام العجم، وايام الجاهلية
وعلى ذلك هم في ايام الاسلام، كما هدم عثمان صومعة غمدان، وكما هدم الآطام
التي كانت بالمدينة.

ووفي المؤرخ الاسلام حقه فاعلن: (ان بين كل ستة اشخاص او سبعة، في
عالمنا اليوم، واحداً من اتباع محمد. وان دعوة المؤذن الى الصلاة تجلجل في معظم
ساعات اليوم مطوقة الشطر الاكبر من الكرة الارضية، فتتألق على هامة العرب
تلك الهالة الوهاجة التي تغترن دائماً باسماء الفاتحين العالميين. فلقد استطاعت هذه
الامة في مدى قرن واحد، ان تنشئ دولة عظيمة واسعة الارحاء بسطت سلطانها
من شواطئ المحيط الاطلسي الى تخوم الصين، وفاقته على امبراطورية رومة في
اوجها). ثم ايد كلامه هذا بما نقله من كلام مؤرخ شهير هو هروغارت الذي
يقول: استطاع العرب ان يكسبوا الى دينهم ولغتهم وشكلهم عدداً من ابناء.

هذه الامم ما استطاعت امة قبلهم او بعدهم ان تكسب مثله وتهضمه . ولا نستني من ذلك اليونان ولا الرومان ولا الانكلوسكسون ولا الروس .

ولم يهمل الدكتور فصاحة العرب فتحدث عنها تحدث الاديب العارف فقال : ولا ريب ان انتصار الاسلام، كان الى حد ما، انتصار لغة، او بالاحرى انتصار كتاب . ثم يرى ان اللغة العربية قد بلغت قمة فيلولوجية شاحخة نظراً لانتقاد بحيلة العربي ونبوغه في اساليب الكلام . فكان دكتورنا يدحض بهذا القول رأي (اوليري) القائل : العربي ضعيف الخيال جامد العواطف .

ان قفاز هذا الجراح ناعم جداً، فتأمل كيف يقول حين يلوم : ان التوسع العربي المنقطع النظير قد بلغ من النمو بحيث اصبح امبراطورية مترامية الاطراف كامبراطورية الاسكندر، وكان مثل الخليفة في المدينة - مركز هذا التوسع - مثل رجل وكل اليه ان يضبط سيلاً متدفقاً اخذت تتزايد روافده وتكثر مياهه، بحيث تعذر عليه توزيعها، او التحكم في مجاريه .

اما كلمة (رحمان) التي استوقفت الدكتور، فقال انها تسترعي اهتمام الباحث، لانها اصبحت فيما بعد الرحمان في لغة قريش، فهي في نظري لفظة سريانية (رحمون) واخلال النون الاولى زائدة، اللهم اذا لم تكن ضميراً للمتكلمين . ان في اللغة السريانية الفاظاً كهذه لا تحصى صقلها الذوق العربي واحالها من ضم الى فتح خففت على اللسان وحسن وقعها في الاذان .

ولا بأس علينا ان تعرضنا ايضاً لعبارة اخرى من رقيم وجده العالم (دوسو) في حوران وهو مكتوب بالخط العربي الاول . اما العبارة فهذه هي : قي نفس مر القيس بر ملك العرب كله ذو اسر التاج . وقد نقلت الى لغتنا اليوم هكذا : هذا ضريح امرى القيس ملك كل العرب صاحب التاج .

لست ادري من اهمل كلمة (بر) التي معناها ابن في السريانية، ثم كلمة (ذو)

وهي اسم موصول بلفظة بني طيء، والشاهد على هذا قول شاعرهم أبي تمام :

أنا ذو عرفت فإن عرتك جهالة فانا المقيم قيامة العذال

ثم لفظة (اسر) وهي سريانية ايضاً ومعناها تقلد . فاذا صح ما تزعم صار التعبير هكذا : هذا ضريح امرئ القيس ابن ملك كل العرب الذي تقلد التاج .

لقد اكثرتنا الكلام في هذا المقام الضيق فلمؤلف الجليل ولتليذيه الدكتورين جورجى وجبور، اجمل الثناء . واطيبه، فقد قاموا جميعاً بأجل الخدم للامة واللسان المبين .

اخذ الله بيد دار الكشف العامرة لتخرج لنا ما بقي من سجل العرب الذهبي .

مذكرات الاستاذ كرد علي

١

موضوعنا كتاب واحد ولكنه في الحقيقة اربعة كتب عدد صفحاتها ١٣٢٠ من القطع الكبير والحرف الدقيق . لقد غلب على كتب المذكرات ان تكون مذكرات فقط، اما مذكرات (الاستاذ الرئيس) فمواضيع شتى لا يربطها هذا العنوان . ففيها تذكارات رجل يحب الى الثائنين فدون كل ما مر على رأسه من احداث، وكل ما عانى من شؤن وشجون معلقاً على ذلك كله تعليق مفكر بصير يشارك في كل موضوع حتى الفلسفة، وان زعم انه يكرهها . وفيها الى جانب ذلك مقالات ومحاضرات لغوية وغير لغوية ليس بينها وبين المذكرات أبعد النسب

سرف الاستاذ كرد علي حياته مناضلاً ومجاهداً في خدمة الوطن، ولم يكن بينه وبين الشهادة غير خطوات شاء القدر الا تكون لتظهر الى الوجود (مذكرات) تدل على نواحي تفكير الانسان جميعها، وعلى علاتها . . . فن يقرأ مذكرات الاستاذ الجليل محمد كرد علي لا يعرف رجلاً واحداً، بل يعرف رجلاً ودولاً وشعوباً عرف الاستاذ من ميولها التي . الكثير .

فمحمد كرد علي رئيس المجمع العلمي الدمشقي الدائم، وعضو المجمع العلمي الملكي المصري، قد استوزر مرات ولعله يحق له ان يقول مع الطغرائي :

تقدمتني اناس كان شوطهم وراء خطوي اذا امشي على مهل

وقف الرجل حياته كلها على العمل المطرد، طاف العواصم قديمها وجديدها واضعاً قبالة عينيه جميع حاجات امته . وها هو في قيلولته يكتب (مذكرات) حياة تنضح ألماً، وقد أفلت صاحبها من خروم شباك اعدائه وحساده .

عاش الاستاذ دولا عظيمة : نشأ في عهد الاتراك وتعلم في مدارسهم، فاتقن لغتهم كما اتقن الفرنسية والعربية، ثم رأى الدولة التركية تسقط، والدولة الفرنسية تنتدب على سوريا ولبنان، ويلى هو الاحكام . ثم عاين تقلص ظل الانتداب، وابصر الاستقلال وما تبعه من انقلابات . وها هو يحدثنا في هذه الكتب الاربعة التي سماها (مذكرات) عن جميع من عرف وخالط من رجال أمر ونهي واصحاب سلطان.

لست اوافق الاستاذ الجليل على عنوان كتابه الضخم، فهو جدير باسم اعم من المذكرات لانه تاريخ حقبة من اغزر الحقب احداثاً . واذا صح ان يستى مذكرات فيكون ذلك كنسبية افعال القلوب، لان اكثر ما خطه قلم الاستاذ صادر عن القلب . . . في فاتحة كتابه التي سماها (روح المذكرات) يقول لنا : (اصور بهذا التقييد طائفة ممن عشت بينهم صورة صادقة . . . ليشاركني ابناء هذا الجيل والذي بعده في الانكار على من اضجروني بقصورهم وآلوني بفرورهم) . فهو اذن، سوف لا يرحم في مذكراته من آذوه .

لست اناقشه فيمن وفيما ذم وقدح، لان هاتيك الشخصوس التي تناولها قلمه بعيدة عني، لا اعرف عنها ما اعرف الا بالسمع، والسمع لا يكفي غيبة البصر، الا عند من كان اعمى كبشار . . . واذا جاز لنا الحكم (غياباً) قلنا ان ليس عندنا لهؤلاء المذكورين اكثر مما اعطاهم، وما انبأنا الاستاذ الا بما شاع وذاع وملا الابصار والاسماع .

اما اسلوب هذه المذكرات فطلي رائق، ولعلها خير مما كنت اقرأ للاستاذ يوم كنت اطالع مجلته المقتبس الرصينة (١٩٠٨) . ثم لم اقرأ له شيئاً بعدها الا فصولاً كنت اتناولها من هنا وهناك .

كان الاستاذ في (مقتبسه) كاتباً موضوعياً . اما هنا، في اكثر هذه المذكرات، فهو كاتب ذاتي . والكتابة الموضوعية لا تلذ لي كالكتابة الذاتية، وان كان غيري يبتهر بها ويسميها (اسلوباً علمياً)، سترأ لعورتها وثقل ظلها وفجاعتها .

ان صاحب المقتبس، اخا الاسلوب العلمي طول الحياة، قد ادخلته مذكراته في
عداد المهجائين، وكثيراً ما يستعجلي الناس الهجاء . ولست اتجنى على الاستاذ الجليل
— على غير معرفة — بما زعمت، فهو في مقدمة كتابه يقول : (ولعلي تعمدت هناك
سترهم لانهم يهتكون باعمالهم ستر هذه الامة لا يبالون) ثم يختم تلك المقدمة بهذه
العبارة : (الجهر بالحق من اول مراتب النهوض، والساكت عن الحق شيطان
اخرس) .

لقد انكسبت على مطالعة هذا الكتاب، مذ تفضل الاستاذ الجليل باهدائه
إليّ، وسألني في رسالته لي التي بها شرفت، ان اكون ناقداً لا مقرظاً . فغير قليل
ان يقدر كلامي رئيس مجمع علمي طائر الشهرة، فكأنه بهذا قد جعلني من
(خالدي بمجمعه الموقر) . وانا بدوري لم اخلع عليه غير لقب الاستاذ، وان كان
صاحب (معالي) سابق، الا لانه صرح في فصل — لقب اسرتنا — ان كلمة الاستاذ
هي أحب الالقاب اليه . ولست استغرب هذا منه، افما سبقه الخليفة عمر بن عبد العزيز
الى مثله، وحرم كل شاعر مدحه ولم يسته ابن ليلى .

لقد رأيت الاستاذ في هذه المجلدات الاربعة يتبع الاسلوب المقفمي قصاً وتعبيراً
فالانشاء ساذج عاطل لا تزين فيه ولا تجميل، لان المؤلف يحب الواقع ويكره
الخيال، وقد اشار الى هذا حين علل جنوحه عن القصة بقوله : (لاعتقادي انها مختلفة .
والاختلاق مما تأباه طباع من اعتاد التدقيق في النصوص) . فهو اذن واقعي في
كل شي . حتى في الانشاء والموضوع . يكره التجميل ولا تطيب نفسه لما يخالف
الحقيقة . ولعل هذا كان سبباً اولياً في تكثير اعدائه وتقليل اصدقائه، فهو، كما
بدا لي متبرم، لا متشائم . فالمتشائم لا يرضيه شي، اما الاستاذ فراض عن اشياء
كثيرة وان كره اشياء وثار عليها . انه عدو التقاليد البالية والخرافات السجدة
والآراء الخاطئة — راجع صفحة ٨٦٢ و ٨٧٢ و ٨٨٣ و ١٠١٤ — فهو يهدم ويبني
بجراحة حتى انه عدّ ايداع مال المسلمين في المصارف الاجنبية بدون ربا من (الخبليات

الضارة) وتمنى لو اخذت الفائدة واحسن بها على البؤساء والمساكين . وهذا والله عين الصواب بل هو الزكاة .

والاستاذ يغضب بل يشور على من ولوا الاحكام لتوظيفهم غير ذوي الكفاءة، (واخذهم من مطرود من شركة ما كنات وزيرين في عهد الانتداب) ثم يعالج تضخم الموظفين في سوريا ويرى الاقطار العربية كلها في هذا سواء .

وعدنا الاستاذ في مقدمة مذكراته (وقد رأى الدنيا مهزلة، ان يتزع قيوداً قديمة اثقلته مراعاتها فهو يريد ان يهزل وان يسخر، وان يضحك وان يبكي) . اما انا فقلما رأيت سخرأ وهزلأ، ولم أرَ لا ضحكأ ولا بكأ. بل رأيت أماً مرأاً، وتهكماً كأنه الجد، وهو غير لاذع . اما حين يحمل على من اساء اليه فتخطله بركانأ يقذف اللحم، يسمي الاشياء (ابشع اسمائها) حين ينتقد الناس وعاداتهم، ويرينا صدرأ رحبأ يتسع لكل جديد اذا لاءم المحيط، ولكنه لم يرَ في الشعر الرمزي خيراً، كما رأى ان ما كتب في مناقب الاولياء والصالحين، هو ابشع النثر . (اما ابشع الشعر فهو اماديج الامراء والكبراء) . واما انا فقد كنت اتمنى جداً ان اعرف رأيه في كتب المناقب والمثالب معاً . . .

وبعد، فكتاب الاستاذ الجليل محك رجال واجيال وبلدان واحوال، يحمل العبر ويجدثك فيغريك، ويسليك ويفيدك . ولا تله — اذا كنت غير عالم لغوي — الا في تلك المحاضرات التي لا محل لها من الاعراب في هذه المذكرات، ففي هذا المؤلف الضخم فكاهة ونكات وملح، وفيه دراسة شخوص وتحليل نفسيات بمقدار، ومواضيع تعالج جميع الشؤون العالمية، واننا لنظلمه اذا عددناه مذكرات خفسب . فن امثلة نقده للرجال قوله في الجابري : (فانه خرج من الدنيا ولم يخلف غير ثيابه) اما الآخرون فيرى انهم اكلاوا الدجاجة بريشها، وابتلعوا الامة بعفشها ونفشها . . .

والاستاذ صريح الى ابعد حد حتى تستطيع لاول وهلة ان ترميه بالتعصب اذا كنت متعصباً، ولكنك حين تقرأ حكمه العادل على ما لا يعجبه في كل ملة، تقر له بالترفع عن الهوى، وتدرك ان شعاره : ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة . وفي الحقل الخاص ترى ان الاستاذ الناصر عيوب الناس، لا يداري عيوبه ولا يحايي نفسه، وخصوصاً عندما يتحدثنا عن نشأة تأليفه وندمه على نشر (رواية يتيمة الزمان) التي حال غرور الشباب وحب الظهور دون إلحاقها بكتاب (حياة العرب) الذي وأده ... ويناوح هذا الاعتراف اعجابه بأسلوبه، حين يتحدثنا عن (ملكة الانشاء) وحكاية حاله مع ذلك الوزير المرقعان . ثم قوله في موضع آخر : (اني لا اكتب لأتسلى او انال شهرة او مظهراً، وربما كنت امتنع عن التأليف لو سمعت ان في المؤلفين اليوم من يعاونون ذا الضرب من الكلام الحر). اما هذا الضرب من الكلام الحر، فيمثل عليه الاستاذ بمسألتين صرف فيهما جانباً من اهتمامه، وهما : الاستثمار التركي والاستعمار الفرنسي^١.

وقد رأيت متسكناً، واثقاً لنفسه بالنصر حين يعارض قول نابغة بنابغة، فييدي رأيه بلا وجل مخطئاً من تعود الكتاب ان يمنحهم العصمة خوفاً من شهرتهم الطائفة .

قد حسبت حين طفت في مجلداته من الباب الى المحراب انه غير راض عن احد، وانه لا يعجبه شيء، فكانه يحاول وضع تصميم جديد لهذا الكون . ومع ذلك اشهد انني قرأت فيها اشياء كثيرة طالما كنت اتمنى ان اعرفها، وان كنت قد استغربت جداً ما رواه عن ذلك القصر الذي يصعد الى الطابق الاعلى منه بالسيارة !! ولكنني تقصيت الخبر فوجدته صحيحاً .

وفي هذه المذكرات حكم شتي، بعضها خطرات افكار اوحتها الشؤون والشجون، وبعضها كلام مأثور تصرف فيه الاستاذ فلم يؤده على حقه كقوله مثلاً : الافكار كالجواهر صنعها عن القائها في معالف الحنازير . وهو في كل حال يصور لنا انفسنا عارية ولكن الذين ينجلون ماتوا ...

وفي هذه المذكرات ايضاً ذكر وفر، ورواح ومجبي، ولهذا ترائي أسايره واماشيه . فيينا نراه، مثلاً، يرجو من النهضة الحاضرة خيراً جزيلاً، اذا به يتأسف لانه ظل حياً . فهو لا يطبق الحياة بيننا وقد ذهب من ذهب من رفاقه العلماء ... اما نحن فنتسنى طول بقائه لان مثلنا يقول : من ليس عنده كبير فليشتر له كبيراً . ولعلي بهذا القول اكرم نفسي، اذ لم اعد ابن اربعة عشر ...

اما ما كتبه الاستاذ عن لبنان فله رأيه في ذلك . ولست اناقشه فيه بل لو شاء ان تولف جوقة مني ومنه ونفني : بلاد العرب اوطائي، لما احجبت ... اما بعد الاستراحة فاذكره باقتراح الريحاني ... وبتأليفه (وزارة تسلية) في ضيعته (جسرين) . قد يكون تأليف تلك الوزارة، والكتب صورة عن الواقع . أفليست اكثر الوزارات للتسلية ! ! ان لم نقل القاب مملكة ...

والآن قد حان ان نتحدث عن الاستاذ كرئيس مجمع علمي . فاسلوب الاستاذ في مذكراته هذه مقفعي، كما قلت سابقاً ولكنه سهل غير ممتنع . وليس يعني قولي هذا ان الاسلوب الوجداني غير طبع لبراعة استاذنا العلامة . فاذا كنت تظن هذا فانني ادلك على مقاله الطيب (في عشر الثمانين) لتقرأ فصلاً من النثر المنسق الرفيع، الحافل بتحليل نفسي يعطيك مآله الصورة الغنية الكاملة للاستاذ كرد علي .

يكتب الاستاذ صفحات لا تقع فيها على كلمة غريبة عنك، حتى اذا تذكر انه رئيس مجمع علمي، كرر على منجرد هيكل فيقيد الاوابد ويأتينا بـ (شق الابلعة)، وسجيس الليالي، وأخرة، وزير وغيرها . يكتب بتعبير اليوم ثم يقول : هل ألفت كتاباً قط ! نعم ان هذا الاسلوب البسيط هو اسلوب المذكرات، والاستاذ

أطلب كتاب فيه
الطبقات العربية

يكتب في مجلداته سيرة حياة، أو تعليقاً على هامش الحياة، فحسناً عمل حين استعمال، ولم يتذكر أنه رئيس مجمع علمي، مثل كلمة (صرماية). فبأي لفظة يمكننا أن نغير اليوم عن تلك الحمراء التي كانت خير هدية لنا في الأعياد؟ أنقول الجرموق، أو الخذاء، أو النعل في عصر صار فيه للباس الرجل الف اسم واسم؟ واني أجبت منه استعماله لفظة (الطاقية) وكلمة (الجرد) اللتين لا يؤدي معناهما غيرهما. أما كلمة (البائخ) وعندنا ما يؤديها، فلا نقبلها من رئيس مجمع علمي رأيناها ينتقد كلمة مثلها في محاضرة ما مدرجة في مذكراته :

أليس على من يكره الطبع على غرار العباسيين في تعريب الألفاظ، ويطلب منا أن نقول الطزر للبيت الصيفي، والشقب للسيفون، والمشن للدوش، وغيرها وغيرها... ثم يصف لنا ما قاساه (المجمعيون) حتى وضعوا هذه الألفاظ، فاستعمل الكتاب بعضها وتركوا أكثرها. أليس عليه أن يدقق أكثر؟ فلا يتألم الأستاذ الرئيس لإهمال الكتاب أكثر مسميات الجامع، فعلى (المجمعي) حين يريد وضع لفظة لمستى أن يفعل كالمهندس الذي يخطط الطرق العامة. فهو يسأل أولاً عن طريق القدم والخاص، ثم يشرع في عمله. هذا ما أزعج أن على عضو المجمع العلمي أن يفعل، عليه أن يسترشد بمسميات العوام قبل أن يستشير كتب اللغة. سمي عوامنا (الكريب) أبو الركب. وسألت يوماً بدويّاً من عرب اللقوق عن سبب غيابه الطويل فقال : مرضت بـ (الهدّة). وسمى الفصحاء هذا العارض الضنك، وأخذها الفرنج عنا بلفظها، فإذا يمنع الجامع أن تفعل مثل هذا ! !

ومن هذا الباب قول الأستاذ الرئيس المغنين بدلاً من الفنانين، فكأنه يعارض التيار على غير جدوى، ومن يحاول هذه المحاولة وينعني على الكتاب عدم التحقيق أفلا يحق لنا أن نطالبه بجمعه مفتي على مقاتي. وبقوله رهبنيات من رهبانيات، وبكتابة جرو جراً، وباستعمال ينعي والمضارع ينعي، وبقوله : ورب قائل يقول : مع أن جواب رب يجب أن يكون ماضياً.

والا يحق لنا أيضاً أن نسأله ألا يقول : مهما بلغ الرجل من مراتب التهذيب

(لا يخلو من نقص) فالواجب هنا ادخال الفاء على جواب مهما . وان جوزوا هذا في الشعر، فهو لا يجوز في الكلام المنشور لان المجال واسع لادخال اكثر من فاء . وهذا التعبير الذي يرد كثيراً على اقلام بعض الكتاب لا اراه خليقاً بالرئيس : يهتكون باعمالهم ستر هذه الامة لا يبالون .

وقال الاستاذ : وكان احد سادة القرية ابا سعيد درويش عند ابي يجلسان في دهليز بيتنا هناك . فابا سعيد درويش ليست خبير كان لتنصب، ولكنها عطف بيان ورفعها واجب . ولا اعد ذلك غير سهو وخطأ مطبعي، وجل من لا يسهو . وقوله : ان هذه الملاحظة اذا صدرت منك يكن لها، والصواب يكون، لان اذا لا تجزم الا اضطراراً اي في الشعر فقط نحو : واذا تصبك خصاصة فتجمل . اما حدق بمعنى كثر النظر فتعدى بالي لا بفي، واخيراً هذا التعبير (منذ وعيت على نفسي) فهو ليس من العامي الفصيح ليقبل من الرئيس الجليل .

اما التعريب في عليه ملاحظة ايضاً . عرب الاستاذ عنوان كتاب انكليزي (جريدة سياسية) والاصوب هنا ان يقال : يوميات سياسية . اما في تعريب الاعلام فما اعجبني قوله : سان توما داكين، وقد عرب اسلافنا هذه اللفظة منذ اجيال وقالوا : القديس توما الاكوييني، وهي اقرب الى العروبة من سان توما داكين ...

واخيراً اقف هنا مكبراً جهود الاستاذ الاجل، ومقدراً فضله اعظم تقدير، ولنن جعده شائنه فالتاريخ لا يبعض ولا يحب وهو ينصف الاديب . اما انتقادي بعض هفوات فما كان الا استجابة للرئيس المجاهد، واعتماداً على الكلمة التي سبق ذكرها له : مهما بلغ الرجل من مراتب التهذيب لا يخلو من نقص .

ذكرى الأجداد أيضاً

صدقني اذا قلت لك انني وقفت اجلالاً لهدية المجمع العلمي الدمشقي، انها حمل ثقيل لم ينقله اليّ موزع البريد الا بالكد . سبعة ثمانية مجلدات ضخمة، مطبوعة احسن طبع، ومضبوطة ادق ضبط، خفياً الله رئيس المجمع ورفاقه ابطال الجهاد الاديبي، وليهني ابن الجهم، وابن حيوس، وابن عنين، والواواء، وعبد القادر النعيمي، بل فليهنني الاجداد جميعاً هذا البعث الجميل . فلو اتق ان البعث سيكون لي كما كان هؤلاء لتمنت ان تبتى جميع مخطوطاتي قروناً، غطاؤها العنكبوت ومبرها العث . ولكن من يضمن لنا ان سيقوم في المستقبل رجال ككرد علي ومردم وجبري والحسيني والدهان من رجال البعث والاحياء .

حقاً ان هذا المجمع، وله مجلته الرصينة، ومنشوراته النفيسة، يستحق اممي الاحترام وارفع التقدير، ولو كان هؤلاء الباعثون مجد دمشق الاديبي في عهد عبد الملك بن مروان لوّسع لرئيسهم الأجل، واجلسه حدة على السرير، واقر رفاقه حوله في الساطين . حقاً انهم كالبنفسجة التي ترسل عيورها بتواضع عميق .

وبعد، فكنت قد تصفحت مذكرات الاستاذ الرئيس محمد كرد علي، وبُثّ ما كتبت من محطة الشرق الادنى مصدراً بهذه الكلمة : تعودت ان اتحدث، كما هو المفروض، عن عدة كتب في ربع ساعة، اما اليوم فلست اتحدث الا عن كتاب واحد، ولكنه كتاب كعشرين من كتب اليوم، فهو اربعة اجزاء في ثلاث عشرة مئة من الصفحات الكبيرة، واني لأظن ان شيخاً علامة جليلاً انفق الثمانين في خدمة الادب واللغة اصدق خدمة، يستحق ساعة لا ربع ساعة .

اما اليوم، وقد اصدر حضرته - لا معاليه - كتاب كنوز الاجداد، الذي

ابن المقفع في كل حالاته، مجموعة من الكمال المطلق، لا تدري من أي شيء تعجب فيه . وكل ما خص به ابن المقفع من بيان، كان مما يستغرب حقيقة لو لم يطبق على نفسه ما دعا اليه من الاخلاق، فهو في علمه وعمله سواء وغاية، لا يخدع ولا يكذب... يعمل الصالحات من دون غرض يتوقعه، ويدعو الى الاصلاح ولا غاية له الا رفع شأن جماعة الاسلام . هو روح ندر ظهور مثله في القرون الطويلة .

لا تتعجب ان رأيت الاستاذ كرد علي يخالف الجماعة في ابن المقفع، فهو يقدس شيئين : العقل والخلق العظيم، ولذلك تراه في كنوز الاجداد وفي مذكراته عدو كل خرافة . انه في كتابيه هذين ناقد ادبي اجتماعي، انتقد ابن خلدون الذي اجمع الناس على كبر عقله فقال فيه حين رآه يثبت (الكشف) لاهل المجاهدة : (وبهذا التخريف قد اثبت - ابن خلدون - انه من المحافظين... وكان يسمعه لو لم يعتقد في هذه الحرافات ان يطرح هذا المبحث، فينتهي (المقدمة) من العوسج والبلان. واخيراً يرى ان المقدمة درة تاج اعمال صاحبها، وان هذه الهنات فيها كانت لها بمثابة عوذة لها من العين^(١) . اما في تاريخه الكبير فيراه من المؤرخين المحافظين، وكالذين تقدموه .

ويشي استاذنا في هذا الكتاب على سننه فتراه طوراً مهاجماً وتارة مدافعاً . فبينما تراه يهاجم الخوارزمي لتعامله على الامويين والعباسيين حتى يقول فيه : وخير الادب ما صدق قائله، ومن دون الكذب وقال انه ادب فهو مغبون الصفة^(٢) . ثم يؤيد رأيه هذا بالكثير من اقوال الخوارزمي . وهذا يدلنا على تأييد الرئيس للحق ابن وجده، وان كان يحاول له دائماً ان يجد مجال القول ذا سعة... .

اما الجاحظ فبعد ما عظم الاستاذ من قدره ووجد فيه رجل العقل الفذ رأى ان لا بد من ان يقعد للمظالم فيقضي بين الجاحظ وعدوه ابن قتيبة، فيرى الدينوري رجل جمع لا رجل وضع كالجاحظ، فيقول في احد كتبه : وكتابه هذا كأكثر

(١) ص ٦٦ (٢) ص ٣٩٤ و ٣٩٥ (٣) ص ١٩٣

كتبه منقول عن غيره ليس له فيه غير سطور معدودة^١ ولكنه، في مكان آخر يعترف له بالتحقيق والتنسيق والترتيب حتى ابرز تأليفه منقحة محررة^٢. اما في دفاعه عن الجاحظ فكانت عدته من كتاب ابن قتيبة - مختلف تأويل الحديث - فكانه بهذا يقول له: من فك ادينك. قال: وما اخذ به الجاحظ بسبب قول النبي. وضده بعد من حسنات الجاحظ. وكيف لعمرى قضى ابن قتيبة على خصمه في مذهبه هذا القضاء، وهو القائل في عيون الاخبار: (وليس الطريق الى الله واحداً، بل الطرق اليه كثيرة، وابواب الخير واسعة). ثم قال: هجن ابن قتيبة الجاحظ وكفره ورماه باعظم كبيرة وهي الكذب، وسجل عليه انه اكذب واحد في الامة لانه كتب اشياء تنفع في تربية العقول، كما كتب كل ما ينفع الدين، وابتدع ادباً يسلي ويعلم^٣. ان مثل هذا النقاش الرائع الحكيم هو الذي يجبي وينعش كتاب كنوز الاجداد، واشهد اني اعرف اكثر ما تضمنه هذا المجلد، ومع ذلك وجدتني اقرؤه بلذة ورغبة لان مؤلفه يستعمل عقله، ولا يؤمن ابداً بكلمة ما ترك الاول للآخر. نعم انه لم يتجرد من عاطفته كل التجرد، وأي ناقد استطاع هذا قبله ليستطيع هو. وللاستاذ بصر ناقد باساليب الكتاب ولذلك نسب كتاب المحاسن والاضداد لابي الادب العربي، غير عابى بما حام حوله من شك، ولا عجب في ذلك فكل بصير كالأستاذ يرى اذني الجاحظ تظهران من بين سطوره.

وكما اعترف للجاحظ بالمحاسن والاضداد كذلك انكر ان يكون نقد النثر لقدامة. وبناء على هذا القياس أثبت ان في معجم الادباء ما هو منقول، ولا بدع ان صدقت احكامه فالانشاء هو الرجل، كما قالوا.

ودافع الأستاذ ايضاً عن ابن تيمية رجل العقل الآخر فقال: لو عنت دعوة ابن تيمية لسلم هذا الدين من تحريف الخرفين على الدهر، ولا ممعنا احداً في الديار الاسلامية يدعوا لغير الله الخ.

(١) ص ٨٩ (٢) ص ٩٥ (٣) ص ٨٩ (٤) ص ٣٦٧

وقد اعجبني رفض الاستاذ الكبير ما نسب الى صاحب من رد كتاب المقد
الفريد، كما أعجبتني جداً تسميته المقامة بالقصة المخلوقة . واعجبني هذا الحكم
الصادق : ولو ادعى مدع ان الكتابة ما ختمت بابن العميد، كما قالوا، بل
بالمذاني لكان حقاً ومذهباً . فثل ابن العميد كثار غير قلائل، وبعضهم اكتب
واشعر . اخلهم تخلف الدنيا عنهم، وللشهرة اسباب قد تخطى اعظم مستحق لها .
والاستاذ في كل حال يكره السجع عموماً وسجع الحريري خصوصاً، ويرى السجع
غير صالح ومنافياً للطبع .

وكأنني اراه في كنوز الاجداد يحمل بيمينه مصباحاً ويفتش عن رجال العقل
فيقع على الراغب الاصفهاني وابن حزم فيدافع عن الاخير بقوله : وعابوا عليه انه
خالف ارسطو في بعض آرائه، كأن نقد صاحب الرأي من الكبائر . ولما اقبل على
الذهبي رأى فيه رجلاً سائر العقل فتفرد في تأليفه .

وقصارى الكلام ان هذا العلامة لا يمر بشي . دون ان يعلق عليه . يتساءل ابدأ
ويجيب، وتلك صمة المهتمدين بنور العقل، ولهذا كان الاستاذ الرئيس في هذا المصنف
من تصانيفه النفيسة مثال العالم المفكر والاديب الاريب . كان واقفاً على سلاحه
دائماً فهو اما مهاجم مبادر، او مدافع مناصر . جمع فيه الموضوعية والذاتية .
تعاون مع من درسهم تعاوناً كلياً، فابرز شخصياتهم كالصور البارعة . وقد اوضح
لنا هذا في اول سطر من كتابه فقال بعد البسملة :

(يحمل هذا التصنيف سيرة بعض من طالت عشتي لهم، واغترافي من معين
اسفارهم من رجال الاسلام)، وتلك سجية الادباء الكبار فانهم يدرسون من هم
على شاكلتهم، فتجاوب وتتألف الانعام . ومثلنا على هذا ما قاله الاستاذ في سيرة
ابي عبيد البكري : هذا غاية ما عرف من سيرة فريد قطره ووحيد فنه، ابن
الاندلس العظيم في عهد ترديها السياسي، وقد وقاه الله شر السياسة فلم ينغمس

فيها كما انغمس اجداده) واذا لم تكتب له الشهرة في السياسة وفيها ما فيها من اضاءة العمر على الاكثر، فقد كتبت له الشهرة بتأليفه^١.

افلا تظن معي ان المؤلف يتحدث عن نفسه من حيث لا يدري، او يدري!!
الا يعبر بهذا عن اسفه على ايام ضيعها في ميادين السياسة. واما قوله: رتب
ابو عبيد معجبه على حروف ابي جاد، فليته ماشى الزمان وقال (أبجد)، فكلمة
ابي جاد مبهجورة ولا يفهمها واحد من ألف ممن سيستنيرون بآراء الاستاذ الرئيس
في كنوز الاجداد.

وهناك ايضاً غير هذه كلمات كانت اضافتها الى جدول التصويب واجبة، مثل:
الا اذا كان ثمة شيئاً لا يعرفه^٢ فهي شي. لا شيئاً.

وفي ترجمة الخوارزمي عبارة لست أراها صالحة وان كتبها الثعالبي: وكانت
حاله مع صاحبها كهي مع طاهر بن شاد^٣ لاننا نحن اليوم لا نقول كهي.

وقد وقع ايضاً خطأ في هذه العبارة: والسلطان لا يأمر ولا ينهي، والصواب
لا ينهي^٤. ثم يجب حذف اليا. من ابتغي في هذه العبارة: ابتغي زوجي قراطيس
وقطعها رقاعاً صغيرة^٥.

اقول هذا لاني قرأت في آخر الكتاب تصحيح هنات كهذه، فما هذا خطأ ان
هذا الا سهو، وجل من لا يسهر. وقد تكون خطيئته في رقبة المطبعة.

وختاماً اننا لنسأل شيخنا الاجل الذي لم يسأم تكاليف الحياة كرهيو، ان
يعتبر كلبيد، لانه ما زال يغوت القرح المجتمع اشدهم، في انتاجه الغزير السمين.

(١) ص ٢٦٧ (٢) ص ٢٧ (٣) ص ١٩٠ (٤) ص ٣١٦ (٥) ص ٣٣٦

علي بن الجهم - خليل مردم بك

لقد تجهم وجهه المطبعة للشاعر علي بن الجهم دهوراً، فظل تائهاً في مجاهل المكتبات حتى انبرى له العلامة خليل مردم بك، فلم يثلمه الشتيت وجمعه في كتاب اخرج به المجمع العلمي العربي الدمشقي اخراجاً شريفاً . لا يقل جهد الاستاذ مردم عن جهد الاب صالحاني في جمع شعر الاخطل وتحقيقه . وحسبك من الاستاذ تلك المقدمة العنيفة التي صدر بها هذا الديوان، فدرس الشاعر وبيئته، وما كان يحاك له من دسائس تحت سماء قصر المتوكل . سعى البحتري وغيره من شعراء المتوكل في شاعره ابن الجهم فامسى في السجن بعد ان كان ممير الخليفة ونجيه . ثم يمن هؤلاء الشعراء في الكيد له والدس عليه فيصلب ابن الجهم الشاعر عريانا يوماً كاملاً ... وتدور الدائرة على الخليفة المتوكل فيقتاله خدمه، فيرثيه ابن الجهم مخلصاً متناسياً ما حلقة من اضطهاد . وهكذا ارانا الاستاذ مردم بك شخصية ابن الجهم متينة الاساس فلم يتحول عن ولائه للخليفة الذي احبه، بينما نرى البحتري الذي قال : ولو كان سيفي ساعة الفتك في يدي الخ البيت، قد راح يمدح القادر وينال جوارحه ...

وبعد تصفح الديوان رأيت ان هذا الشاعر الذي بارى البحتري وزاحمه قد كان يحاول الخلق والاخراج غالباً، فهو مريد غير عادي، لا يسوق قصيدته على الطريق المعبدة كالبحثري بل حاول في قصائد عديدة ان يبدع في سوق شعره، فما اشبهه بلبيد في صدر معلقته .

كنا نسمع بهذا البيت :

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث ادري ولا ادري

اما اليوم فنقرأ هذه القصيدة الذائعة الصيت مرتين في هذا الديوان الطريف،
وتلك ثمرة التحقيق العنيف الذي عانى مشقاته الاستاذ مردم .

وكنا نقرأ هذا البيت وبعض ابيات آخر :

قالوا حبست فقلت ليس بضائري حبيبي واي مهند لا يغمد

اما اليوم فنستطيع ان نقرأ كل هذا الشعر على وجهه الاتم، ونتعرف الى
جميع نواحي الشاعر الطريف الطريف، فنرى ان البحري لم يتفرد وحده في وصف
القصور، وان تفوق . ثم نسمع، ايضاً، شاعراً يصف نفسه مصلوباً عرياناً، وهذا
موضوع طريف، فيقول :

نصبوا بحمد الله ملء عيونهم شرفاً، وملء صدورهم تبجيلاً
ما عابه ان يزّ عنه لباسه فالسيف أهول ما يرى مساوياً
ان يجسوه فليس يجبس سائر من شعره يسدع الغريز ذليلاً

لقد صدق الشاعر الشريف حين رثى الذي صلبه عرياناً، وحمل على من غدروا
به تلك القدرة الشنعا .

كان ابن الجهم مر اللسان غير هباب، وقد يكون هجاؤه هو الذي سبّب
متاعبه تلك، ولكن الحياة تدفع المفارد من بنيتها في سبيل تحسينها وارتقائها...
وحسبك ان تسمع هجاؤه لابن الزيات ذلك الوزير الجيّر الفجّ قال :

احسن من تسعين بيتاً سدى جمعك معناهن في بيت
ما احوج الملك الى مطرة تغسل عنه وضر الزيت

ولم يطل الزمان حتى جاءت المطرة، بل (المازوخ) وجوف ابن الزيات .

انني اهنيّ الاديب الشاعر خليل مردم بك على هذه التحفة السنية، جزاه الله
والجميع العلمي العربي بدمشق خير الجزاء، ومن اجدر من الحلف باحيا. آثار السلف،
والفضل يعرفه ذووه، وهذا هو الوفاء الحق للغة والامة .

شجرة الدر

قصة تاريخية بطلتها امرأة جبارة، كانت جارية ثم صارت ام ولد، فلكمة، خافكة بامرها في ارض مصر، ثم انطفأت تلك الشعلة كما ينطفئ الطفاة المغامرون .

الفها الاستاذ سعيد العريان الذي يذكروني، اسلوباً، بالمرحوم مصطفى صادق الرافعي وان خلت عبارته من ذلك النحت الذي كان يتعمله الرافعي في الصياغة . اما القصة فمحبوكة حوادثها، مطرد سياقها . تظهر اشخاصها، بلا تكلف، حيث يريد المؤلف، فيخيل اليك انك تقرأ تاريخاً مدققاً . الحركة مستمرة فلا يقف المؤلف ليظهر فصاحة وبلاغة كما يفعل الكثير من القصاصين، ولعل حركة ابطاله وحوادث قصته قد اغنته عن ذلك . فهنا رجال ونساء . يتكلمون ويعملون كأنهم في دنيا الواقع . يفر المؤلف فرأ من حادث الى آخر لا يعوقه شيء . يوطئ السبل لموكبه الفني بما يصطنع له من فجوات تغني عن الالف والدوران، حتى اذا ما بلغ الوقعة الحاسمة بين الصليبيين والمصريين وصفها وصفاً خاطفاً أرانا الصورة كاملة . رسم بقلمه صورة لتلك المعركة الضارية فجأت بارزة الملامح ناتئة الخطوط حتى تخالها تتحرك امام عينيك .

كتب العريان صفحات بليغة لا عيب فيها، غير مثل قوله اخيراً في وصف بيبرس : وجال بسيفه في الرقاب يقدر الضلوع، ويشق المرائز، ويطيح الهام، ويجندل الابطال .

انها عبارات تافهة تحسبها تؤدي شيئاً عظيماً وهي لا تؤدي شيئاً .

اعجبني من الاستاذ العريان استعماله حدثتني بدلاً من حدثتني، كما يقول من لا يجيدون عن الطريق المعبدة قيد شعرة . لقد اشبع الجاحظ هذه التاء قبلنا واخرج كسرتها يا، كما يلغظها العوام، فما علينا نحن لو فعلنا مثله ؟ اما قال السلف قبلنا

ضربتموهم - وقد مر ذكر هذا - فاشبعوا الضمة متوحيين جمال اللفظ وليونة الكلام ؟

أما مغزى قصة شجرة الدر فهو أنها تعرفنا كيف تشق البقرية طريقها في مجاهل التاريخ حتى يقول الخليفة العباسي حين سنل الاعتراف بولاية شجرة الدر : ان كانت الرجال قد عدت عنكم فاعلمونا حتى نسير اليكم رجالاً ...

أما أسلوب القصة في جملة فن عريان الكلام، كما قال بديع الزمان في الجاحظ . براعته في الإيجاز الحاطف . يقول صاحبه في صفحة صغيرة ما لا يقوله غيره من القصصين في صفحات كبار، وحلاوته في سهولته . أما استعماله (انفضت) و (ارهاصاً) فقد حوت في تعليقه واكتشاف سره ... فما لنا ولهذه الالفاظ التي ماتت وتحت عظامها ...

تاريخ الأدب العربي - لاسنان ح. فاهوري

عندما مات لانسون قالوا في كتابه تاريخ الادب الفرنسي : (انه شجيرة الادب او السواعية) ، اي كتاب الصاوات المفروضة تلاوتها على كل كاهن . وهذا الكتاب الجديد الذي الفه الاب حنا الفاخوري البولي سيكون شجيرة كل متأدب، وسواعية طلاب البكالوريا، فهو اوفى الكتب واجمها واحدا تصنيفاً في هذا الموضوع الحديث العهد عندنا .

كنا قبل ان صفت هذه الكتب المدرسية المنهجية، ندرس الادب في مراجعه العديدة، فنجوب الادغال ولا نعرف الطرق المعبدة، ولا هذه (القادوميات) . اما اليوم فالعصر عصر صندوق، وفي استطاعة المتأدب ان يمر بالادب العربي كله بأسبوع، ولكنها مرة كرام . . .

وهذه الطريق في التأليف شقها لنا المرحوم جرجي زيدان متبعاً في رسمها الهندسة الانكليزية، فقسم العصور الادبية تبعاً للتطورات السياسية، وترجم للشعراء والكتاب فكان كتابه الصادر قبل الحرب العظمى الاولى مثلاً طبع على غرار باحثو الادب العربي ومؤرخوه ودارسوه .

اما كتاب الاب فاخوري الحديث فعمول على احدث طراز، يجمع الى رصانة التعبير دقة التفكير والتحليل، وجمال التصنيف والتبويب، يعطيك في اول كل موضوع خلاصة ما ستقرأ، وهي تكاد تكون ما يسمونه (خطّة)، ثم يمضي توالاً في التفصيل فلا يتنكب ولا يضل، كأنه وضع نصب عينيه تلك الكتب التي كثرت في اوربا، فطبع كتابه على غرارها . واذا لم نر عنده ذاك التطويل الفرنسي فلان شعراءنا محدودو الآفاق، وليس لهم ما لاولئك من مواضيع متنوعة . ترى

عند القوم القصصي، والمسرحي، والناقد، والكاتب، والشاعر في شخص واحد، ولا ترى عندنا الا الشاعر والكاتب الضيق التخوم، ما خلا بضعة اشخاص من ادباء منهجنا .

والمؤلف يتبع ايضاً خطة الفرنجة في ذكر المراجع عربية واجنبية، ثم يختم كل دراسة بمواضيع شتى للبحث فيخفف كثيراً من التعب على المدرس والدارس .

صدر المؤلف كتابه بمقدمة نفيسة بحث فيها اللغة العربية ونشوءها وتطورها الى ان سادت لهجة قريش ونزل الكتاب الكريم بها فثبتها .

لا اظن ان القرآن ثبتها فقط، بل انني ارى له في هذا شأنًا اجل واعظم فهو الذي رفعها الى اعلى عليين في سموات الجلال الفني، وحدد لكلمات كثيرة معانيها، وهذا ما عجزنا عن الاتفاق عليه نحن اليوم . ثم ادخل عليها تعابير خاصة، وكلمات جديدة منها عربية فتغير معناها للدين والشرع، ومنها غير عربية احتيج اليها . ولا ننس اسما . الاعلام التي عربت فكانت لها الرشاقة وحلاوة الجرس اللتان فاقت بهما العربية اخواتها الساميات . ثم نشأت قواعد الوقف لتجويد تلاوة القرآن بل كل العلوم اللسانية حتى النقد الادبي لاجل فهم القرآن وادراك سر جماله وتجويد تلاوته وقراءته . وهكذا صار القرآن الكريم دستور الدين والادب، فهو الذي أوصل النثر الينا كما كان يحكى يوم نزل الله على عبده، فكان اعظم اثر ادبي يصل الارض بالسما .

قلت ان القرآن الكريم ادخل على اللغة العربية كلمات جديدة وحدد معانيها ومعاني غيرها من الكلمات العربية وهذا ما ينقصنا نحن اليوم . فاسما . الاعلام - مثلاً - يعربها كل واحد منا كما يشاء، فواحد يقول : غوت وآخروجوته، وذلك جيته وهذاك جوت . ومثل هذا يقال : هوغو، هيغو، وهوجو، وهيكو .

اما الالفاظ الاخرى كالادب الرومنتيكي فأحدنا يقول : الادب الابداعي، وثاني يسميه الادب الوجداني، وهكذا دواليك، وها هوذا مؤلف هذا الكتاب

القيم يقول : الادب الانشائي او الابداعي ، والادب الوصفي ، او الموضوعي ، ثم يسمي فن عمل التماثيل النقش ، ويسمي التصوير الرسم ، وهذا ما نرى مثله في كل كتاب ، وعند كل مؤلف . هكذا ضاعت الطاسة ولم نتفق على كلمات لهذه المسيمات التي نحتاج اليها كل ساعة ، فتي نضع حداً لهذه الفوضى ومتى يفهم القارئ معنى كل لفظة كما حددها العرف الحديث ؟

وقد تكلم المؤلف الجليل عن (عناصر الادب) فقال : (والآثار الادبية الخالية من الفكر او المشحونة ضللاً لا يمكنها ان تعد ادباً حقيقياً) .

اذا كان يريد حضرته بقوله (الخالية من الفكر) تلك الفقايع الصابونية البراقة من « انشا » بعضهم فهو مصيب لان هذا ادب زيفوني ... اما قوله (المشحونة ضللاً) فلا اظن ان للضلال شأناً يذكر في الفن ، فالادب ، من حيث الفن ، لا يعنيه الضلال والهدى . فالصورة الرائعة رائعة ، سواء المشتروت كانت ام للسيدة العذراء ، عليها السلام . ان الجمال الفني لا يفقد من الاثر اذا خلا من الحقيقة ، لان الحقيقة مختلف عليها ، فما هو ضلال في نظر هذا ، ربما كان عين الحقيقة عند ذلك ، والله اعلم ، والحساب في ملكوت الله لا في دنيا الفن .

وقد تكلم ايضاً في هذا الموضوع عن (الذوق) فجعله آخر عناصر الادب ، فليته جعله الاول ثم اطنب وغالى في وصف أهميته ، فلو لم يكن الذوق الفني متأصلاً في نفس الفاعوري ما اخرج للمدرسة العربية هذا الكتاب الرائع . والفاعوري مسلط على طينه يجعل منه اناة للكرامة واناة للهوان ، كما قال بولس شفيق الاب فاعوري . ثم يتكلم عن اثر الدين في الادب ويراها مكوناً للاديب ، وهذا حق . فالدين ان احب الانسان او كره ، يظل له الشأن الاكبر في منتوجات الاديب الحق ، وبرهاننا على ذلك الجاحظ وايو نواس والمتنبي والمعري وغيرهم وغيرهم .

ان مطالعة هذا الكتاب تردني الى بحث الكلمات الرضية Technique فالمؤلف يسمي شعر زهير في من ومن ومن شعراً تعليمياً . اما الذي اراه انا فهو ان نطلق

كلمة الشعر التعليمي Didactique على مثل الفية ابن مالك، والقصائد التي ذكرها الجاحظ في كتابه الحيوان . اما مثل شعر زهير وغيره فهو الحكمي . اما كلمة الجاهلية فهي لا تعني الوثنية ابدأ، بل هي تعني النخوة المتطرفة التي اشتهر بها العربي حتى قال : انصر اخاك ظالماً او مظلوماً . ولما جاء النبي بشيراً بالحق، علمهم بالمثل سعة الصدر والانتصار للحق، ولما تحمس احدهم في حضرته قال للمجلس : ان اخاكم به جاهلية فانصروه او ارشدوه لا اذكروا . اما دراسة المؤلف للشعراء فكافية وافية فهو لم يترك شيئاً لا بد منه . خذ مثلاً درسه امرأ القيس، فهو يحدثك عن كل غصون تلك الشخصية الفذة ومنعرجاتها حتى (النقل الآلي الجامد) فيتره امرأ القيس عنه، وهذه نقطة حساسة جداً في الفن، فالاديب الحق مصور يدوي لا مصور شمسي . عليه ان يخلق ما يرى خلقاً جديداً ويضع فيه الكثير من ذاته . انه كالنحلة - كما قلت غير مرة - التي تصنع الشهد بعد ان تأخذ مادته من هنا وهناك وهناك .

وقد اعجبني جداً من الاب فاخوري ادراكه الدقيق للموسيقى في شعر يعده غيره اتفه ما قاله امرؤ القيس :

تطاول الليل علينا دَمون دَمون انا معشر يمانون
واننا لاهلنا محبون

ليس هنا جمال ولكن هنا موسيقى عميقة تترك في النفس ما يتركة رنين الجرس الضخم بعد انقطاع القرع والدق .

وبعد، فلا يتسع المجال، الآن، لنقد الكتاب كله، ولكنه كله على هذا النمط : زي فرنجي من قاش عربي مفصل على القد، فليت مؤلفه يقدمه الى معرض الشيلي للكتاب التعليمي فيبيض وجهنا وينال الحائزة ان كان لهذا المعرض جوائز . واذا اطلع عليه المستعرضون الذين يجهلون العربية فلا شك ان ما فيه من رسوم فنية رائعة يعرفهم بالوجه العربي النبيل الذي احسن الى الادب والثقافة العالمية اذ حمل مشعلها اربعة قرون .

الفوضى العالمية على ضوء الانجيل

— يا جمجمة، تفضلي، الليلة، تعشي عندنا .

قال هذا ورفضها برجله فتدحرجت . وعند الغروب، يا اخوتي المباركين،
تجمعت الضيعة رجال واولاد، ونسوان وبنات، ودارت الكاس على صوت الذف
والقصب . وفيما هم يشربون ويتنقلون دق الباب .

دخلت الجمجمة، لبث دعوة الشاب الطائش اللباط . ليتكم تعرفون يا اولادي
ما جرى، جئت العروس، واغني على العريس، وهرب الناس كلهم، واستحال
العرس ليلة فزع ما ممعت بثلاثها الضيعة . الموت، يا اولادي، الموت . ما اقوى
شوكتك يا موت .

كان عمري ثماني سنوات عندما ممعت هذه الموعظة عن الموت وتكريم الموتى،
فاحدثت في سروالي فرعاً . . . احست امي بالكارثة، فاخذت تشجعني ولكن هيهات،
فكنيسة عين كفاع معتمة، ولامر ما أعد الحوري سراجاً فتيلته كفتيلة سراج
بخيل الجاحظ، واوقد شمعين فقط، فكان له المشهد الذي شاهده عارم الرعب .

ما تعشيت تلك الليلة، ذهبت تَوّاً الى فراشي ونامت امي الى جانبي، وظلت
تنثر فوق مخدتي اخبارها المضحكة حتى تركتني ظانة اني غمت على سرور . ما
كدت اغني حتى نفضتني الحُمى فاقت ارتجف، فتركت المسكينة الموقد وترامت
عليّ، وهرول جدّي وانتصب عند فراشي يصلي على رأسي، فازداد فرعي . حسبته
ذلك الواعظ الجبار . ورأى هو ان صلاته لم تنفعني فانحنى فوق مخدتي فأجفلت،
فصاحت امي : جدك، يا ابني، جدك . وكلمني هو بصوته المرتجف فادركت انه
غير ذاك . فسكنت اليه، وهدأت اعصابي .

هذه احدى المواعظ التي حفظت ايماني من تهور القلب... وعندي لها اخوات
تابعات . هذه الصغرى التي تيسها عمر، اما الكبرى والوسطى فيأتيك نبأهما في
(قصصي واخباري) .

اللهم عفواً وغفراناً، اللهم اغفر لي وللخوري يوسف اللاذقي الواعظ الشهير .
الشيء بالشيء يذكر . ذكرتني مواعظ الخوري يوحنا مارون بهذه النكبة التي
حلت بي في طور التكون والتحول، ومن يدري فربما كانت هي التي غيرت مجرى
حياتي، فليتبني اولد ثاني مرة كما قال السيد المسيح لذلك السائل : كيف يرث
ملكوت الله .

كثيراً ما تساءلت ماذا حدث، ماذا جرى، حتى ان (اوغو) لم يعد اوغو كما
خيرنا اورياما . ولكنني وجدت الجواب عند هذا الخوري العلامة صاحب الفوضى
العالمية على ضوء الانجيل : ان ارتداد بول كلوديل كان لي عذراً ورجاء، ولعل
ساعتي لم تأت بعد، او ان تأتي . من يعلم .

عندما قرأت الفوضى العالمية عنت لي ايامي السابقة، ايام كنت اعيش في ظل
الكنيسة، في ظلمة مار روحانا عين كفاف المطمئنة، ورطوبتها الخشوعية المنعشة .
اصغي الى صوفية مار افرام، ومار يعقوب، واممعها يتدلان على الله . فاصح لنا
وعاظ كهذا الاب المتقف، لما صحت فينا الكلمة الماثورة : ورب اكلة حرمت
اكالات . . .

الخوري يوحنا مارون في مواعظه السبع يحادث القلب والعقل معاً . ما هو
بالمنطقي الجاف، ولا بالتفلسف المتعمر . يعلم انه يحدث الشعب فيوجه كلامه الى
القلب - مستودع الايمان - ماراً بطريق الدماغ . ولا نعدو الحقيقة ان قلنا جعل
الحمل عدلين، فما رجحت كفة على اختها فن بعد عن القلب يرفض حديثه، ولهذا
تقرأ مواعظ صاحب الفوضى العالمية وانفك راغم - غض الطرف .

(١) طبع دار الكشوف، بيروت .

تعجبني جداً مواظبه فهو رجل عاطفة وإيمان، وصاحب فكر وبيان، فجاءت عظامه من طراز جديد في الكنيسة الشرقية . يحاول مؤلفها ان يدب الحياة الى المبادئ الدينية التي يراها الكثيرون مفلسة هرمة، ولكن بيان هذا الاب وبرهانه يقنعنا ان الكمال المسيحي ليس مبدءاً خيالياً يستحيل تحقيقه . فالمحبة حلم يتحقق اذا شاء البشر، وان الفوضى العالمية لم تعد انشروطة، وانما هي عقدة العقد التي لا يحلها الا الانجيل .

لم تتعود منا برنا مثل هذه اللهجة، ولم تألف مثل هذا الكلام الذي يقرأه المؤمن والزنديق والكافر ويخرجون منه جميعاً معجبين بالقلم الذي خطه، القلم المبشر بروح الانجيل اعجوبة العجائب .

من مقطع واحد من فصول الانجيل - او من انجيل واحد بلغة الكنيسة - اتخذ الحوري يوحنا مارون مادة عظامه، خلق من بضعة اسطر زاداً له وللمؤمنين، مدة الصوم، كما خلق السيد المعلم من السمكتين والخمسة ارغفة مأدبة للموعوظين عند الجليل، قبل ان تثور بحيرة طبريا .

لقد اصبح لطبريا رائعتان، رائعة المتنبي في الشعر، ورائعة يوحنا مارون في الوعظ الديني والمدني، وموضوع النابغتين الاسد : هذا الاسد المنتصر من سبط يهوذا، وذلك اسد بدر بن عمار بن اممعيلا .

ما اشبه هذا الاب بلاكوردير فصاحة وبياناً . للكاهنين - الغربي والشرقي - هدف واحد هو الملازمة بين الدنيا والدين . وجعل المسيحية عامة والكثلكة خاصة ملائى بروح العصر، وقد عاج الاب مارون، مثل لاكوردير، انما في عشرات الصفحات معظم مشاكلنا الحاضرة على ضوء الانجيل . عرض لنا بايجاز مسهب جميع مبادئ وعقائد زماننا من سياسة وفلسفة واجتماع وعلم بهراة لا عهد لنا بها في كناثنا من قبل .

ان اسلوب الحوري يوحنا مارون متقد، يجذب القارى، ويسوقه بعصاه

السحرية الى حيث يشاء . لا اجادله فيما يتحدث عنه ، وحسي النتيجة الاقتناعية التي تؤدي اليها بحوثه . ولم اعجب بالموعظتين الاخيرتين بل في كتيبه كله، وتمنيت لو يكثر عندنا مثل هذا الوعظ الذي يأخذ الناس بالحيلة البولسية . اما احاييل واعظنا الكبير فهي غير تلك، انها عصية مصنوعة في معامل العلم لا تتكى على سواعد الايمان فقط، فيرفضها من يريد ولكنها تفقأ في عين الملاحك حصرماً .

من فكاهات الجاحظ طرفته الفنية (آكل الرؤوس) فقد روى ان بطله ابا عبد الرحمن كان يسمي الرأس مرة (الجامع) ومرة (الكامل) فهل نؤاخذ اذا استعرنا هذا اللقب لكتاب الفوضى العالمية، وهل من حرج اذا دعونا هذه العظات المتعلقة السبع في الادب (الطقسي)، فيها خيال بديع وادب رومنتيكي، وبلاغة لا تشوبها ركاسة، ولو قرأها الفارياب لقال : هذا خوري فصيح وهذا وعظ مبين، ثم حذف ذلك الفصل من كتابه الخالد .

ان صاحب الفوضى العالمية رجل مثقف، ومتى علمت انه قائد جعفل جلب من شباب البلاد، مدبراً ومعلماً لا تكبر صدور هذه المواعظ عنه، ففي ذلك الجلم النحيل عزيمة الجبال، ورواء المدينة . انه ليصح ان يؤخذ وجهاً من وجوهنا في القرن العشرين، فعدته تامة، وشخصيته مسلحة بقوى نفسية نادرة، فهو كلاب ديدون يحاول ان يجد في الكشلكة دواء شافياً لبؤس العصر . وقد توصل بتأويله وتفسيره الى اقناع غير قليل، فأرانا ان بين الدين والدنيا قرابة دموية . وحسبك الموعدة السادسة لنؤمن بل لتصدق ما اقول انا، وتؤمن بما قال هو . عالج هناك معجزة المعجزات - سر الاثارستيا - بتوفيق عظيم اغبطه عليه، واهني الكنيسة . ولا بدع قديماً كان ثم يوحنا ذهبياً . . . وطوبى للنقية قلوبهم فانهم يعاينون الله . . .

وان كان لا بد من قول فيكون حول تفرنج الاسلوب، ولكن ذلك قليل جداً . فإلى الامام يا محترم، احث كرم ربك، فالحصاد كثير، والفعلة - اللهم المهرة - قليلا .

حياتي - للدكتور أحمد أمين

يخذو احمد امين الكاتب المصري الشهير حذو الفونس دوده، واناقول فرانس فيا كتابه عن انفسهما، وحسبه انه يكتب سيرة حياته مخلصاً صادقاً متواضعاً في قصه واسلوبه وبيانه، بسيطاً غير متكلف في اخراج صورها . لم يسم كتاب حياته كما سماه الكاتبان الفرنسيان العظيمان وغيرهما ، بل قال لنا بكل سذاجة هذه سيرة حياتي ادونها في هذه الاوراق بلا خجل وبدون تزويق .

ينحو احمد امين في كتابه نحو العلماء والمفكرين في تحليل الاشياء ودرسها وتحصيلها ليخرج منها بالنتائج والغايات . يهسه ان يفيدك قبل ان يطربك ببلاغته وطرفه، ويعنيه ان تخرج من كتابه مقتدياً بنضاله وكفاحه .

تطالعنا الكآبة والحزن في مطلع كتاب حياتي لان صاحبه مكتب حزين كما يحدثنا عن نفسه . يعتذر الاستاذ بتواضع عن عدم معرفته نفسه بقوله : (ان الشيء اذا زاد قرب صعبت رؤيته) ولذلك صعب عليه ان يرى نفسه كما هي . ثم يؤكد لنا ان شخصيته بما فيها من خواص لم ي عمل سنين بل صنع اجيال ، ولو ورث انسان غيره ما قد ورثه هو من خواص وعاش في بيئة كالتى عاش هو فيها لكان اياه، او ما يقرب منه جداً .

قرأت هذا فذكرني بما حدثنا به مار اغوستينوس حين زعم لنا انه لو ولد في الغرفة التي ولد فيها جاره وصديقه اليهودي لكان يهودياً لا مسيحياً . . . ثم يتوسع الدكتور في الايضاح فيقول : (ظلم صراف البلدة اخرج ابي من سخرائط واسكنه القاهرة، حيث ولدت وتعلمت، ولولا ذلك لنشأت فلاحاً مع الفلاحين ازرع واقلع) .

انا لنحمد الله على هذا المكروه، أي ظلم ذلك الصراف الذي أدى الى منح العربية كاتباً عاملاً ألف لنا جفر الاسلام وضحا وعصاراه . خشي الاستاذ الا تفيد سيرة حياته احداً من الناس فاذا بي اراها حافلة باعظم درس يعلمنا كيف يخلق الرجل المرید نفسه ، وان النبوغ جهاد متصل لا ينقطع حتى يبتدئ . خفي درس مفيد للشباب الطامع الطامع نجده في (حياتي) لاحمد امين . اما اتفق ثلاثة من جهابذة مصر على اخراج (جفر الاسلام) واقتسموا العمل ، ثم حالت شؤون وشجون دون نهوض اثنين منهما بحصتهما من هذا العمل المضنك ، فاذا بهذا الرجل ينهض بذلك العبء وحده ، وكان ان قدرت مصر جهوده وعناؤه فكوني على عمله الجليل القدر بلقب دكتور فخري وجائزة فؤاد الاول - الف جنيه .

لا ينفصح المجال لتلخيص كتاب ضخم كهذا فانصح لك ان تقرأ هذا الكتاب قراءة متأمل متعظ ، فتعلم كيف نشأ احمد امين وكيف تعلم وعاش . انك ، اذ ذاك ، لتستغرب كيف ان حياة قاسية خشنة كحياة احمد امين التي هي صورة مطابقة لصورة حياة المخضرمين منا ، تنتج هذا الانتاج السمين . انك لتتعجب كيف تخرج ما اخرجت حياة الامس الحشنة المتواضعة ، حياة الغبراء والحصير لا حياة السجاد والسرير والصوف والحرير . اذا قابلت حياة الامس القاسية بحياة اليوم الهائلة الناعمة ، مأكلاً ومشرباً ، وملبساً ورخاء وتسلياً ، ورأيت ما اخرجت هاتيك للناس ، وما تخرج هذه تكفر بالحضارة والمدنية وتقول : عودوا بنا الى الورا .

وواحدة اخرى توحى بها اليها حياة احمد امين وهي اننا نعرف منها تطور العلم في مصر ، وتبدي لنا صورة تطور الطلاب ، وانطباعات نفسية الشباب . حياة هذا الرجل تاريخ حقبة زمن عصيب ان لم تقرأ مفصلاً ، تدركه مجملًا .

واشهد اني رأيت الاستاذ احمد امين يرينا نفسه كما خلقها الله ، لا يدثرها بشوب الرياء الذي يلجأ اليه قبل كل شيء . اكثر من يترجمون لانفسهم . لست ازعم انه باح فاستراح ، ولكنه قال كل ما يحكى ويقال ، وهذا ما يحمد له ،

ويشكر عليه ، وحسبنا انه اعترف لقرائه بحبه معلمته الانكليزية ذلك الحب العذري ...

وما اسفت لشيء في هذا الكتاب الا لان الاستاذ الجليل لم يشرح لنا بعض الفاظ محلية، مثل البوظه والجرون واشباهها لاننا لا نستطيع فهمها لاختلاف مدلولها بين الاقطار، ولعل الاستاذ يفعل ذلك عندما يعيد طبع كتابه النفيس .

ان لاحمد امين مقاماً سامياً في نفسي، وقد قدرت جهاده قبل ان اقرأ كتابه في سيرة حياته، فكيف بي الآن وقد رافقته في جميع مراحل السن، اطال الله مدته وبارك في عمره . وحسبي تقديراً لكتابته النفيس اني دفعت به الى اولادي ليقرواوه ويتعلموا منه جهاد كبار رجال العلم والادب، واني لأسأل الله ان يرزقهم معاملة رصينة كتلك الانكليزية الساحرة العينين فيرغبوا في تعلم لغة جديدة فوق ما يعرفون من لغات ... ان رفيق الطريق الحسن يهد العقبات، ويقصر لطفه المسافات ويديني الابعاد ...

جزى الله الاستاذ الامين صالحة، ووقاني واياه غدرات السكوري .

بالتواضع والاحترام والافتخار بالانتماء الى عائلة كريمة .

الحياة والشباب - الأستاذ واصف بارودي

روائح الجنة في الشباب، هذا رأي أبي العتاهية في الشباب، أما الأستاذ واصف البارودي فغتم كتابه هذا (الحياة والشباب) بثلاثة أبيات لشاعر آخر، منها هذا البيت :

حتى انقضى طور الشباب فبان لي ان الشباب هو النعيم الأكبر
أما أنا، وما انقضى هذا الطور عندي بعد . . . فأميل الى تأييد أبي العتاهية .
الرأيان وجهان، وأوجه منهما كليهما ما سعى اليه الأستاذ بارودي المربي الكبير،
الا وهو تعهد الشباب بالتربية الصحيحة لاستفيد الأمة من (طاقة الشباب)، فهي
قوة، اذا ادخرت، تهدم وتبني .

اذا اطلقنا على الأستاذ بارودي لقب المربي الكبير فبحق نطلقه، لان هذا
الاديب قلما كتب، وقد يكون لم يكتب أبداً في غير التربية والتعليم . قد لا
يكون دكتوراً ولا مجازاً في هذا العلم، ولكنه (اجتاز) بباعه وذراعه، وبلغ بكده
وسهره ما ادركه من رسوخ قدم في علم التربية، ومن مقام ادبي محترم لدى اهل
الفكر . فهذا الدكتور طه حسين يقدم كتابه هذا، ويوصي الشباب بقراءته حتى
يقول : (وما اجدر وزارات المعارف في البلاد العربية ان تمكّن الشبان من قراءته
وفهمه وذوقه) .

كانت كتب الأستاذ البارودي الماضية مقالات وفصولاً مضمومة في كتاب .
أما كتابه الحياة والشباب، فمؤلف تربوي قيم تربط جميع فصوله وحدة متماسكة،
وهو حافل بالآراء الحسنة الخاصة المؤيدة باراء علماء التربية العظام . ان جميع كتب
البارودي تهدف الى خلق الرجال في امة هي اخرج ما تكون اليهم . واذا نظرنا

الى التفكير في هذا الكتاب الجديد رأينا مؤلفه يعنى بما لم يفكر به غيره .
حاول، مستعيناً بأساليب السلف أي كما كانوا يصنعون في العصر العباسي مثلاً :
ان يمحصر بعض الفاظ في نطاق الاختصاص، فقام يفرق بين لفظتي الحضارة والمدنية ،
والجهل والجاهلية، والحياة والمعيشة، حتى اختص ما يسمونه (اللاوعي) بكلمة
الفؤاد، وايد زعمه، معجياً، بلفظة فؤاد، لان هذا الحرف يفيد الخفاء والانضاج .
فالفؤاد اذن كلمة تلاثم جداً ما يسمونه (اللاوعي) والعقل الباطن، لان الافكار
تنضج فيه على مهل . . .

وهذا الكتاب الجديد مطبق على الحوادث، ففتش التربية اللبنانية العام أقوى
شيء فيه عيناه، ولهذا تراه، قوي الاستنتاج يؤيد مزاعمه بحوادث واقعية طالحة
بالعبر على طرافتها ولذة مطالعتها التي تفكه القارئ . فهي تنفع المفكر في الحياة
سواء أكان أباً أو أمّاً او معلماً . فكتاب (الحياة والشباب) كتاب الجميع، جزى
الله مؤلفه خيراً، وان كان أقصى ما يرجوه من الخير هو ان يرى شباباً صالحاً في
امتنا العربية المحتاجة الى العقول السليمة في الاجسام الصحيحة .

وبعد، فلا يضير هذا الكتاب ما فيه من اخطاء مطبعية كثيرة، ولهذا لم
نتعرض للغة، كمعادتنا في النقد، لئلا نكون من الظالمين .

تاريخ الشعوب الإسلامية

فصل: أجزاء

هذا كتاب العلامة بركلمان، أصدرته دار العلم للملايين الحريصة على نشر كل نافع. ترجمه الاديبان الدكتور نبيه فارس والاستاذ منير البعلبكي. الكتاب قيم وهو درس صحيح للجنس العربي ومحيط العرب وحضارتهم الاولى واحتكاكها بغيرها. يتناول بالدرس المفصل (محمد الرسول) ثم (محمد وتعاليمه) والامويين حتى نهاية دورهم.

ليس لي ان اناقش الاستاذ بركلمان فقد كفاني مؤونة ذلك الدكتور عمر فروخ فوقف له بالمرصاد، كما نقرأ في الحواشي الكثيرة التي علقها على الجزء الاول، ولكن لي ملاحظة على اسم علم واحد وقع الخطأ فيه، وهو (باراق) الوارد في الصفحة الحادية والثلاثين. لا ادري من الذي اخطأ في ذلك: أهما المترجمان ام المتشرك بركلمان. فالذي طلب من بلعام صاحب الحمار الشهيرة الوارد ذكرها في التوراة - سفر الخروج - هو بالاق لا باراق، فباراق يأتي ذكره فيما بعد في سفر القضاة، وليس هو من معاصري بلعام صاحب تلك الحمار الفصيحة الملسان... وعلى كل فهذه هنة لا نطالب بها لو لم تكن صادرة عن يتبنون البحث العلمي مثل الاستاذ الشهير بركلمان، واحد المترجمين الاديبين الدكتور فارس.

لقد اعجبتني صحة عبارة الكتاب ودقة ترجمته، ولكنني استغربت كيف لم يقل المترجمان (سخرة) بدلاً من هذا التعبير الكيس: وعلى ضفة دجلة اليسرى شيد الخليفة عن طريق حملة واسعة على العمل الالزامي.

أليست هذه الحملة الواسعة هي ما نسميه سخرة؟ ألم تكن تلك خطوة ملوك

ذلك الزمان، زمان الرق والاستعباد ! ! ومن حاد عنها من اصحاب السلطان حتى
يحيّد عنها خلفاء العرب ؟ هكذا بنيت المساجد الكبرى والكنائس العظمى،
وها هم انبياء العهد العتيق يذكرونها بمرارة وألم . حسبنا ان نقرأ سفر ايوب لنذكر
بعض الشيء . كم شقي الناس بماؤكهم . وان كان لي ما يقال من حيث التركيب
فاصرح ان قولها، في مقدمة الجزء الثالث، (في حيث) لا يعجبني، لانني لا ارى
داعياً لادخال (في) على حيث : ف (حيث) وحدها تؤدي المعنى . وهناك ايضاً
عبارة اخرى وهي : (يم وجهه) لان (يم) لا تستعمل هكذا . ثم قولهم
(ص ١٣٧) : (صار في مقدور السلطان ان يوجه الى المعركة اسطولاً) . فصار في
مقدور السلطان عبارة ساذجة لا تلائم جارتها : (وهكذا فت في عضد البنادقة) .
وقد رأيت شيئاً مثل هذا في ترجمة الدكتور حتي (ص ٣٠ ج ١) حيث تراكت
حروف الجر في احدى عباراته تراكاً بشعاً، لم تقع عيني بعد على مثله، ودونك
نص تلك العبارة : وهي (خصلة اخرى فيه تمكنت منه الى حد تعذر معه عليه
ان يرفع مستواه) .

وهناك ايضاً عبارات اخرى قلقة ولكنها اقل خطراً . وبعد فان المؤلف
بركلمان في غنى عن شكرنا لان عنده من يشكره، اما المعربان فارس وبلعكي
فيستحقان اجزل الشكر لانهما اغنيا المكتبة العربية بكتاب هي في حاجة ماسة
اليه . لقد صار لنا مرجع تاريخي نعول عليه فلا نضيع في فيا في التواريخ القديمة في
الساعات العصيبة وعند الحاجة المفاجئة . ناهيك بما فيه من تمحيص وتدقيق، فمسي
ان يفكر الاستاذان الاديبان بشروع اخر نافع كهذا، ولا بأس عليهما ان صادفا
عناء، وانقضا وقتاً طويلاً في سبيل منفعة الامة وارشادها الى تاريخها الذي هو خير
معلم للشعوب .

الرمزية والادب العربي

ألف هذا الكتاب الاستاذ انطون غطاس كرم، فسد فراغاً في المكتبة العربية كان لا بد له من سد، فكثيراً ما يحاول الشعراء الذين قل رأس ما لهم من اللغات الاجنبية ان يطلعوا على الحركة الادبية الرمزية في مصادرها فيتعذر عليهم تفهيمها ويحبطون في تقليد هم كنايةا زهير .

الكتاب نافع، وان جاء متأخراً، وما مثلنا معه الا كمثل (الموض) التي تبطل في بلادها فنأبه نحن لها ونعني بها كحدث طريف، ونفصل قاشنا على طرازها ونلبسها مبتهرين ...

لا يبعد الادب كثيراً عن ان تكون فيه موض وازياء، حتى ان المفردات تموت حيناً، ثم تحيا، ثم تموت، تبعاً لسن الحياة . الا ترى مثلي ان هذا الشعر الذي يسمونه رمزياً يكاد يستأثر بمفردات لا تدور على السنة اقلام كتابه غيرها، ثم تسند الى اشياء بعينها فيخلق المولود الرمزي العجيب .

فما هو الرمز الادبي ؟ لقد اورد الاستاذ انطوان كرم تعريفات كثيرة يضيع القارئ بين سطورها . واي عجب في ذلك ، اليس رمزاً !! عندما تسنم بول فاليري شاعر فرنسا العظيم كرسي الادب في (كولج دي فرانس) افتتح دراساته بمحاضرة عن الادب الرمزي استغرقت حصة طويلة من الزمن ، واخيراً انتهى والسامعون لم يفهموا مراده ... فاقبلوا على زوجته يهتفونها، مجاملة، بما قال زوجها، وابتسامة الحيرة على افواههم، فقالت لهم الزوجة النبيهة : ماذا تطلبون ! انه يحدد ما لا يحدد ...

وهذا ما فعله الاستاذ كرم في كتابه الرمزية . فقد رأى، بعد ان اورد

تحديدات عديدة، (ان) يوفيه) هو خير من حاول تحديد الرمز بكلام يفهم،
فعر به كما يلي :

(الرمز هو بقية التصفية الفكرية، والجوهر الاقصى في كل تشبيه).

لا تسألني شرحاً فانا، وحققك، لم افهم اكثر مما تفهم انت من هذه الكلمات
ولكنني احدثك بلغة صاحب الاغاني فاقول : (حدثنا الاستاذ كرم عن بودلير،
عن ادغار يو، قال تحت عنوان (المبدأ الشعري) :

١ - الشعر خلق من الجمال منغم . والجمال غرضه الاوحد .

٢ - هو تلهف نحو مثال اقدس، وانطلاق من نفس متعبة تنهار على ذاتها
في جو من الحلم، وفي تعبير شعري موسيقي غنائي .

٣ - الحقيقة العميقة في الذات هي موضوع الشعر الحق . بحيث يصبح الشعر
توقاً واشتياقاً .

٤ - ينبغي ان تكون القصائد وجيزة تهز الذات، لان شعور الانسان الجمالي
زائل عبوري لا يستمر حياً طوال القصيدة الطويلة، فاذا طالت القصيدة باد هذا
الشعور في كلام المبدع والقارئ ونجا .

ان الشاعر الاميركي يرصف مبادئه هذه على نسق الوصايا العشر ، الا انه
جعل وصاياه اثنتي عشرة، فاصبح لي ان اترك خامساً وسادساً وسابعاً واقول :

(٨ - الابهام عنصر الشعر الاساسي كما انه عنصر الموسيقى الاولى : فلايضاح
والبوح بكامل الاشياء . يعري هذه الاشياء من مثالياتها وجمالها الارفع . ومن
مسحة الحلم الجميلة . فلينف الشاعر الوضوح وليعد الى خلق جو ضبابي منطور على
كل عجيب مبهم .

انني استخلص مما تقدم ذكره، ومن كل ما جاء في الكتاب : (ان هذا
الشعر الرمزي لا يحفل الا بالموسيقى والايحاء . ولا يكاد يحفل بالمنطق) كما جاء .

في الصفحة ١١٩) وهذا ما يذكرني بما قاله، منذ ألف عام وأكثر، شاعر عربي
ربي بدوياً وتحضر في بغداد . لا تتهمني بالتعصب للعروبة اذا اريتك ان شاعرنا
البحثري قد فهم الشعر منذ احد عشر قرناً وأكثر، كما فهمه هؤلاء المعاصرون
الاوربيون، فقال يرد على خصومه، ولعله يعني ابن الرومي :

كافتمونا حدود منطلقكم في الشعر يليني عن صدقه كذبه
ولم يكن ذو القروح يلهج بالمنطق، ما نوعه وما سببه
والشعر (لمح) تكني اشارته وليس بالهذر طوات خطبه

لست اعني ان البحثري شاعر رمزي، ولكنتي اعني انه قرر ما قرره اساطين
الرمزية .

(ثم يغرب الرمزيون في تفصيل ففهم فيجعلونه (احوالاً) بالصوفية شبه،
فيعدون طور المعقول ويرون الالوان والاصوات والطور في الحروف). لا نستطيع
مناقشة هذا الآن لان المجال ضيق، ولكننا نشي على جهود الاستاذ كرم ونتمنى
عليه حين يعيد طبع كتابه هذا ان ينقيه من التعابير الواهنة، والخطأ، وخصوصاً
الغامضة، فهو لا ينظم شعراً رمزياً بل يكتب عن الرمزية .

اليوم خميس - لتيبور

كان العهد بالاستاذ تيمور كاتب اقصوصة مصرية من الطراز الاول، تحفل اقاصيصه باللون المحلي، وتبرز ممتعة بطرافة وصفها وتحليلها لأنفس تلك الطبقة التي لم ترل كما كانت زمن المسيح ومحمد . ثم كتب القصصي الكبير الرواية فسار في طريقها عنقاً فسيحاً . . . والتفت اخيراً صوب المسرح فكتب مسرحيات لا أدري كيف تكون حين تعرض على الحشبة . وعلت الصيحة وراء احدى مسرحياته لانه كتبها باللغة العامية فنقلها للساخطين باللغة النصحى .

والتفت تيمور الى الماضي البعيد فمّن له ان يعمل، كشوقي، مسرحية من صميم الادب العربي، فألف (اليوم خميس) وهو عنوان يتنه كل متأدب : وغداً أمر، متذكراً امرأ القيس او خاله المهلهل قبله، لان هذه الكلمة تنسب الى كليهما .

لم يخرج تيمور في مسرحيته اليوم خميس عن نطاق مغامرات امرئ القيس، وليس يوم دارة جلجل بسر . ثم أجرى الفصل السادس في القسطنطينية، غير مبالٍ باغضاب من أنكروا وجود امرئ القيس، ولا بالاب شيخو الذي عمّده ايزيد في عدد النصارى شاعراً . اما تسديس فصول المسرحية فطريف يذكرني باين زيدون مسدس ولادة . . .

احيت مسرحية تيمور ذكرى حامل لواء الشعر في النار على الورق، ولعلها تنجح على الالواح كما تبدو لي موفقة بين دفتي الكتاب . اضطر المؤلف حين ركب هذا المركب الحشن الى ان ينطق ابطاله كما كانوا يتكلمون في محاورتهم فافلح في هذا وكان طريفاً في حوارهم، طريفاً في اظهار اخلاق اسلافنا في جاهليتهم، ومرحهم، وبطرحهم، وأرانا انهم، على يبوسة محيطهم وجفافه، لم يحرموا نضارة الحياة .

ان ابطال (اليوم) نمر اشكال والوان . لحظلة وغضنفر شخصان يهزلان في كل مقام، فيخلقان جواً مرحاً في المسرحية . كما نرى اكثر الاشخاص الآخرين يستغيثون الصنم وبينهم المؤمن والهازي . فاشخاص (اليوم نمر) يعرفون من ميولهم لا من سماتهم وسجنهم، وما فيها من علامات فارقة، كما هي العادة عند مؤلفي القصص والمسرحيات . فاذا سمعت ابطال تيمور يتحاورون بلغة الجزيرة تنكر ان يكون مؤلفها الاستاذ تيمور صاحب الحاج شلي وغيرها، وان كانت لم تحل من الفاظ وتعاير معاصرة . ولقد احسن المؤلف تقمص ابطاله فاخفت شخصيته كل الاختفاء، وهذه أولى حسنات المسرحية .

اما المآخذ فقليلة، واكثرها في التعبير كقول احد الابطال لامرئ القيس :
يخطب ودك . اما الفصل الخامس فيبدو لي كأنه كتب توطئة لغيره، فلو تصرف
الاستاذ تيمور في حوادث المسرحية لجعل النظارة يتوقعون حدثاً جديداً، ولكنه
رأى الدرب دونه . . . فسار عليها آمناً ضاحكاً ولم يبك كصاحب امرئ القيس .

وبعد، فلست ارى حضور بنت قيصر الى القهوة امرأ سهلاً وطبيعياً، ناهيك
ان اجتماع ثلاث نساء في قهوة لا يحتمل ولا يطاق . . . وكان المؤلف قد استكثرهن
فجعل احد ابطال المسرحية حنظلة يقول : ثلاث نساء ورجل واحد ! !

وكان المؤلف شا . ان يظهر اخلاق امرئ القيس ختم المسرحية بقوله يخاطب
بنت قيصر وبنت صاحب الحانة : (لقد أنست معكما باعذب متعة واطيب وقت .
لا انساكما ما دمت حياً) . ولكن هذا كثير جداً . . .

وتختم المسرحية بانصراف الملك الضليل ليلحق بقومه منتصراً على حبه العارم،
انتصار تيمور في القصة، لا المسرحية . . .

أعلام الحرية

قدرتي قلنجي كاتب عامل، وقد يكون الكاتب الباحث المحترف الذي لا يزوق ولا ينطق . يعني ما يقول فيؤديه بتلك البساطة المركبة، مبتعداً عن الرمز والايحاء والتلاميذ لان له هدفاً يرمي اليه . اما اسلوبه فهو السهل الممتنع، وخصوصاً في سلسلة (اعلام الحرية) التي لم تكتب للخاصة وحدهم، وان لم تنحط عن مستواهم .

ان سير الرجال العظام خير مدرسة لتعليم الشعب وحشه على التشبه بالكرام من البشر، وهذا ما فعله الاستاذ قلنجي، اذ حلل لنا شخصيات عالمية فذة فاقيد بجنس ولا بقارة . كأن هدفه (تأميم) العظام من العالمين، وهؤلاء احق بالتأميم في نظري من النفط وغيره . . . ان في سيرهم مواد اكثر التهاباً من ذاك . واذا كان النفط لتحريك الآلات، ففي هذه السير ما حرك العقول حتى أبدعت ما أبدعت . ان هؤلاء المفاردين البشر هم الذين حققوا للانسانية ما صبت اليه من حرية ونعمة هي مصدر كل خير .

فاذا قرأنا احدى حلقات هذه السلسلة، (ابو ذر الغفاري)، علمتنا سيرة هذا الرجل الصالح كيف يمي الرجل الساذج (بمجهداً) فاضلاً لانه يريد، ولان نفسه متفتحة لاقتبال المبادئ الجديدة الصحيحة .

ممع ابو ذر بالدعوة النبوية فاستجاب لها وفاق الى رؤية النبي الجديد فقصده، وما رآه وتحدث اليه حتى آمن به ولزمه، فكان من افضل صحابته . ثم عاش بعده لا يجيد قيد شعرة عما تعلمه من تلك السيرة الصالحة . لم يلن ابو ذر للحدثان، وما أصغى الا الى صوت وجدانه . ثبت لما حل به من نكبات تقصم الظهور،

ولم تستطع المادة ان تأخذ شيئاً من تلك النفس الصلبة . وكيف يستخذي من يحمل في صدره ما حمل ابو ذر من يقين حتى آثر الجوع على مال السحت .

جاءه عبد يحمل اليه من الخليفة عثمان مئة دينار، كان رفضها من قبل، فقال له العبد : اقبلها، يرحمك الله، فان فيها عتي . فقال له ابو ذر : ان كان فيها عتقك فان فيها رقي .

ومن يستغرب حدوث مثل هذا منه متى عرف انه لحق بالنبي راجلاً الى تبوك، فقال النبي لاصحابه : ادركوا ابا ذر بالما . فهو عطشان . فيشرب شرب الجواد الصادي . ثم دنا من رسول الله وقدم اليه قارورة فيها ماء . فتعجب الرسول وقال له : (يا ابا ذر، معك ماء وعطشت ؟ فيقول : نعم يا رسول الله، باني انت وامي !! انتهيت الى صخرة وعليها ماء السماء، فذقته، فاذا به عذب بارد، فقلت لا اشربه حتى يشربه جبيبي رسول الله .

اجل بمثل هؤلاء . الابطال ، ابطال اليقين والايان تتوسط دعائم الدعوات والرسالات العليا . هذا بعض من فضائل هذا الحوار الطاهر في حياته ، اما ختامها فمظة رائعة : احتضر ابو ذر وليس عند زوجه ثوب تكفنه به . فقيض الله له رجالاً يشهدون احتضاره، فقال لهم : والله ما كذبت ولا كذبت، ولو كان عندي ثوب يسعني كفناً لي ولا مراقي لم اكفن الا في ثوب هو لي ولها، واني انشدكم الله ان لا يكفنني رجل منكم كان اميراً او عريضاً او بريعاً او بريعاً او نقيباً .

فقال له فتي من الانصار : (انا اكفنك يا عم في ردائي الذي اشتريته بـمال كسبته بعلمي، وفي ثوبين من غزل امي، حاكتهما لي كي احرم فيهما . فقال ابو ذر : انت الذي تكفنتني، فشوبك هو الثوب الطاهر الحلال) .

هذا بعض ما في كتاب (ابو ذر الغفاري) من درس رفيع وموعظة سامية وقد اجاد تأليفه الاستاذ قلعجي لو لم يلصق به الفصل الاخير الذي عنوانه (للتاريخ) .

لم تكن هذه التعليقات ضرورية في نظري، فهي تنقص من جلال سيرة ابي ذر،
فبطل عقيدة كهذا الصحابي الصالح لا تحتاج اخلاقه الوعرة الى من يلطف من
صلابتها . فلندع الحوادث تتكلم، اما الاستنتاج والحكم فللناس .

ومن اقدم مناضل في الاسلام تنقلنا سلسلة الاستاذ قلعجي الى احدث ابطاله
(محمد عبده) بطل الثورة الفكرية في الاسلام .

صدر المؤلف كتاب محمد عبده بالبيتين اللذين قالهما الامام في مرضه الاخير :

ولست ابالي ان يقال محمد ابلٌ ام اكتظت عليه المآتم
ولكن ديناً قد اردت صلاحه احاذر ان تقضي عليه المآثم

اما الايات الثلاثة الباقية وهي :

فيا رب ان قدرت رجعي قريبة الى عالم الاموات وارفض خاتم
فبارك على الاسلام وارزقه مرشداً رشيداً يضيء النهج والليل قائم
يضارعي رأياً وفهماً وحكمةً ويشبه في السيف والسيف صارم

فاذكر ان استاذنا الشيخ سعيد الشرتوني اجهد بالبكاء حين قرأناها له في
الصف، ثم انتفض مدافعاً عن صديقه فقال : البيت الاخير منجول لان الشيخ محمد
عبده اقل البشر اعتداداً بالنفس .

اما هذا الكتاب فكافٍ وافٍ يعرفنا ببطل الحرية المعاصر الذي قال فيه
ايضاً معلمي الشيخ سعيد : هذا الرجل اذا تكلم يخرج النور من فمه .

فما اخرجنا الى مثل هذين الكتابين اللذين يصلان حاضرتنا بماضيها، وما احرانا
باحياء ذكر ابطالنا بنشر آثارهم واظهار فضائلهم . فجاهد عظيم كالامام محمد عبده
يستحق كتباً لا كتاباً واحداً فقط . فسيرة حياته، وما ترك من شذرات ادبية
تكون عقولاً مستقلة، وشباباً يستميت في جهاده .

تأمل ما يقول هذا النثر على التقاليد البالية حتى في العلم . قال : لا ينبغي

ان يذل الفكر لغير الحق، والذليل للحق عزيز . نعم يجب على كل طالب علم ان يسترشد بمن تقدموه، وسواء أكانوا احياء ام امواتاً ، ولكن عليه ان يستعمل فكره فيما يؤثر عنهم ، فان وجدته صحيحاً أخذ به، وان وجدته فاسداً تركه .
وحينئذ يكون ممن قال الله تعالى فيهم : (فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه) .

فعمى ان يقتني اثر الامام كثيرون ممن يقرأون هذا الكتاب، فلا يصح فينا قوله المختوم به هذا السفر النفيس : (يا ويح الرجل الذي ليس له امة . وأشد الثعب ان ترى من حولك مرضى ولا تستطيع معالجتهم) .

لقد ابللنا يا سيدي الامام، وعسى ان لا نبثلى بالنكسة، فم مستريحاً فان تعاليمك اثمرت .

فللمؤلف ولدار العلم للعلايين اجزل الشكر على هذه السلسلة الذهبية التي تحلّي الالباب والاذهان .

الذات المقبلة

كتاب ، فبأس ، فانتحار

ما ابصر هذا الكتاب النور حتى التفت صاحبه بالظلام . اطلقوا على القصيدة التي مطلعها : هل في الطلول لسائل رد ، اسم اليتيمة ، ونحن بحق نستمي كتاب (الذات المقبلة) اليتيم . فؤلفه السيد عازار نهرا لم يكن رزقه من شق تلك القصة بل من فكي المقص . ثم عن له ان يكتب كتاباً فكتبه وكان عنوانه الذات المقبلة ، أي الانسان الأسمى العتيد الذي تحدث عنه نيتشه في كتبه العديدة ، ولكن إنسان عازار جاء فوق العقل والفكر والخيال ...

يعتقد عازار ان انسانه هذا سيصبح في قابل بكر الوجود والهه المنتظر ، وهو يقول ، وهذا مكتوب فوق رسمه في صدر الكتاب : طلاب المعرفة عبيد ، اما الاحرار فيخلقون المعرفة .

في الكتاب عناوين ضخمة مثل : المحطة الهولوية الكبرى . الذات الهولوية الكبرى . الخيال الاعظم . الانسان الذري . امواج الحياة الخ . اما ابجائه فتتناول المعضلات التي عجزت عن حلها الادمغة البشرية الكبرى ، ويحلها عازار على عقله حلاً قاطعاً جازماً كأنه يحكم في قضية رياضية لا تقبل البحث والجدل حتى يقول : اننا لن نعجز في الغد عن الوصول الى قمة رسالة (الذات المقبلة) فنبدع اخاً جديداً لنا .

وقع كتاب الذات المقبلة في يدي ، وما فتحته حتى قرأت في مقدمته : لقد اعجبت بفكرة الذات المقبلة احدى الهيئات العلمية الاجنبية فسلطت علي احد

رجالها كي يغربني بمبلغ من المال فانتازل عنها وعن اممي لتلك الهيئة . ولقد زخرف لي الرجل التنازل عن حقي حتى انه رفع المبلغ الى مئة الف ليرة لبنانية فكانت معركة بيني وبين المال الحلاب انتصرت اخيراً فيها عليه، وايت ان اعطي غلة عمري الى غير الي لبنان) .

وبلا شعور اطبقت الكتاب ورحت افكر في المؤلف عازار نهرا . ماذا دهي عازار، أمس التقينا كالعادة عند الحلاق وهو لا يزال هو . الابتسامة لا تفارق ثغره والحديث العذب مل . فيه، فماذا يقول هنا !!

وبعد يومين علت الصيحة والولولة في الحي : عازار صبّ البترول على جسده وقال للنار : كلي واشبعي . واذا بجسده الغض يتنكر لمن يراه، ثم كان يومه في عاليه صارخاً .

لماذا انتحر مؤلف الذات المقبلة ؟ اسرّ بقي غامضاً . ما ترك الرجل وصية، ولا قال شيئاً، ولكنتي فهمت من خلطائه انه كان يردد دائماً على مسامعهم : يجب ان يموت الانسان في شبابه .

وعدت الى كتابه لارى ما يقول في الموضوع، فاذا بي اقرأ : « لو عرف الانسان الحقيقة لما خشي الموت، ولما ظنه عدواً لدوداً، بل لرحب بمقدمه كما يرحب بضيف عزيز . الموت فترة راحة يجدد فيها الانسان نشاطه، مستعيناً بتجاربه الماضية على البحث بطريقة اجدي ، يموت المرء كلما مات ماضيه، وما الحاضر الا فترات ميتة بكل ما يبدو فيها من مظاهر الحياة . ان مودة الانسان مرحلة صغرى من مراحل حياته . الموت رقدة لعودة، افا نطلب جميعاً هذه الرقدة دفعة واحدة على امل العود ؟ اما يجدر بنا ان نحب الموت طمعاً بابداعنا المبتكر بعده، وبالكثائر منتوجاتنا المرفهة عن ذاتنا المقبلة ؟ »

هذه حكاية مصرع صاحب هذا الكتاب، اما الكتاب ففيه لغة شاعر ولهجة نبي . ولمؤلفه في تكوين (انسانيه الذري) رأي طريف ظريف، فهو يزعم

ان العمر يطول، والطاقة تقوى بالنسبة الى وزن صاحبه، فلو قلصنا هذه الزوائد التي ضحمت اجسامنا حتى يصير وزن الانسان، بعد آلاف السنين، نحو ست اقات تظهر ذاته المقبلة الثالثة وينال السعادة السرمدية . . .

فالذات المقبلة عند المؤلف (ثالث) كما يظهر . اما هيولى الذرة فهي عنده جديرة باسم اله . وكما كان للقديما ثالث جاء . عازار يقول : ان الروح والكون والهيولى العاقل وهيولى الذرة والذرة تولد الهأ واحداً .

قلت : فما علينا لو سمينا هذه الالهة الخمسة الجديدة (خاموساً) على وزن ثالث ؟ ان مؤلف (الذات المقبلة) يؤمن بل يوقن ان كتابه يتحدى جميع الثقافات العالمية، وهو يعني بالثقافات الاديان وان لم يسمها باسمها .

وبعد فالكتاب طريف يسلي، تشفع حلالة تعبيره بما فيه من هنات، ولعل صاحبه فكر في مجازاة علماء الذرة فارشدنا الى خلق انسان ذري، بتزويل وزنه بعد دهور الى ست اقات ! !

وفي الكتاب خطوط شتى تعين على فهم عريض اسراره، وما احلى القول (والله اعلم) في هذا المقام .

غفر الله لك يا عازار، وسامح فلسفتك التي قضت عليك . أمت نفسك ليحيا كتابك فثما مماً . وما اكثر التفلسف عندنا، فقلما نرى حامل قلم لا يفلسف ! !

اسلاك الاستاذ حايك

اسلاك الكاتب اميل حايك شائكة ومكهربة في وقت معاً . تنظر الى صاحبها فتخاله بعيداً عنك وان كان يحدثك وجهاً لوجه . انه معك، وان لم يكن كله جفله . لا يجود لك الا بمقدار ويحتفظ بالباقي حين الحاجة . فهو لا يقتصد في الانتباه فقط بل يشح بالابتسامه ايضاً . فلا يتفضل عليك الا بالنصف، هذا اذا تكارم، واما النصف الآخر فيعلم الله متى يكون موعده ... عينان سابجتان في وجه غائم تشيع فيه بسمه حائرة . انك لست تدري ما تقول ابتسامته اذا كنت لا تعلم انها مدت هذه (الاسلاك) الملبسة بالمطاط ولم تعزلها كل العزل فظلت تكهرب .

ليس كتاب اسلاك بجديث العهد، وقد يقول قارئه والمؤلف نفسه حين يطالعان كلمتي هذه : (تعيش وتفتق)، اما انا وهذه عادتي فأجيبهما : أوافق صب من هوى فأفارقا . ! وبعد فما لون هذا الكتاب ؟ انه كتاب نضال يا قارئ العزيز، وقد قال صاحبه حين دفعه الينا : هذه المختارات من المقالات، وقد درجت في الصحف لم تجمع في كتاب، يقدم الى المكتبة العربية بتواضع كبير، الا اعتقاداً بأنه سيكون، في الغد، حافزاً لانتاج اقوى ... الخ .

وهذا هو الواقع، فقد نضجت فكرة كاتبها اليوم واكتنزت عبارته فوقفت على قدمين ثابتتين . مدّ اميل حايك اسلاكه في كل جبهة، فالحكمة، وان كانت زاد طريق طويل، هي اول اسلاكه التي تطالعك . أليس لابن العشرين في الادب العربي ما لابن الثمانين ! ! قد يوجد الحلم في الشبان والشيب ... ورى فيها نظرات وآراء في الادب، انه يريد نضالاً واقعياً (يعالج مشاكل الجماهير، ويعبر عن آلامها وآمالها) . يعبر الاستاذ حايك عما يريد بتهكم مرّ وهزء موجه لله وللد تلك

الشخصية التي رسمت لك بعض خطوطها الكبرى في مطلع كلمتي هذه . اقرأ شذراته تحت عنوان (الادب والاديب) لترى كم عند هذا الشاب (الجنتلمان) من آراء . تقف عندها واجماً مفكراً . فهو يشن غاراته من وراء اسلاكه التي يعتصم خلفها . ويقول كلماته في الادب بصيغ (المراسيم) . يريد « ثورة ونوراً وتوجيهاً وعملاً » . واذا كان غير ذلك (فهو ادب محدود الفائدة ضيق الافق ، تائه الفكرة ، وقد يكون سيئ القصد) .

لا يا اميل ، اذا طلبنا هذا من جميع الادباء . كنأ كمن يريد جميع الطيور بلابل وعنادل . . . فهناك حد وسط لبعضهم . فليساوا كلهم يصلحون ان يدوروا في حلقة مفرغة من خيالاتهم الفلسفية ، اما قيل : الناس اجناس .

ولا تقف اسلاك اميل عند هذا بل تتجاوزها الى شؤون اخرى محلية تمس كلها الواقع ، ولا بدع فهو صني ، وميدان الصحافي هذا الواقع الراهن دون سواء ، وقد طغى حب اميل الواقع حتى بلغ الزبى فقال : لتفتح السجون . . . اذن ، ولنختم المدارس . . . بالشمع الاسود ! اقول هذا ، لا حباً بالسجن . . . بل كرهاً للمدرسة . . . مدرسة الشهادات . لقد ساءت تلك العلوم النظرية التي لا تنفع صاحبها ، فيكون في الحياة غريباً عن اورشليم كما قالوا قديماً ، فقال ما قال : اما العلم في نظري فأرى ان يطلب بحسب المواهب لا بحسب ائانية الطالب .

وبعد ، فان الاستاذ حايبك سيكون كاتباً نبه الشأن اذا اهتدى الى شخصيته ، بل فلنقل ان هذه الشخصية ، في كتاب اسلاك ، ما زالت نجمة سديمية والمستقبل كفيل ان يكتشفها ويباورها .

واخيراً ما هي المآخذ على الاستاذ حايبك ، وهنا لا بد من كلمة نوجهها الى القليلي الحظ من الاصول واللغة ، فنراهم مستخفين بها ، قائلين : المعاجم ! كتب الصرف والنحو ! لا ادري ماذا يريد هؤلاء . فأية امة من امم الارض لا تحافظ اشد المحافظة على صيانة لغتها . اننا لا نطلب من هؤلاء ثروة لغوية ولكننا نريد

ان نتني من نقودهم الدرهم الزيف، ولهم، فيما بعد، ان يدسوه حيث شاؤوا، اذا
شاؤوا . اما من يريد ان يكون له شأن في الكتابة فهو مسؤول عن كل هذا .

فني كتيب الاستاذ حايك اخطا . وافرة، في اللغة والاصول، بعضها طبعي وبعضها
اراده الكاتب هكذا . نراه يضع بعض الالفاظ بين قوسين حاسباً انها عامية
وهي فصيحة مثل لفظة : يوز، وقرض، ولبط، ونكع، ونفضوا طوقهم الخ ثم نراه
في موضع آخر يضع الكلمة العامية ولا يعلمها بعلامة .

اما السريانية فما له ولها، في قابل . لقد اخطأ في التعبير، وقال ما لم يقل ولا
يقال، فليته ظل يستعين بالالفاظ العامية التي خلقت في تعابيره الكثيرة جواً انيقاً
طريفاً .

معجم الألفاظ العامية والرماد الأحمر

هذا كتاب استقيت موادّه من اللهجة اللبنانية، ولم يخرج فيه مؤلفه الدكتور انيس فريخه عن دائرة اختصاصه . فهو استاذ اللغات السامية في جامعة بيروت الاميركية . اقتضى هذا الكتاب مصنفه جهداً كبيراً، وان لم يتعد فيه - كما زعم - الالفاظ والتعابير الدائرة على السنة اهل ضيعته، فليس رد هذه الالفاظ الى اصولها بالامر الهين . واذا كان لي ما اقله، فهو ان الفاظاً كثيرة، بل اقول ان الفاظاً لا تحصى قد عدها الدكتور عامية وهي من كلام الفصحاء . لناخذ مثلاً الصفحة العاشرة، وحدها . ففيها لفظة برنس التي عدها الدكتور عامية يونانية، وقاموس لاروس يقول انها عربية . وقد اشتق منها بديع الزمان في مقامته المكشوفة اسم فاعل فقال في وصف بطل المقامة : متبرنساً باطول منه . اما بزق وبزل، وبزاقة وبرنية فهذه كلمات عامية فصيحة جرت على لسان فصحاء العرب . ومثل هذا غير نادر في كل صفحة من صفحات الكتاب البالغة المئتين الا خمساً .

والدكتور يقول في مقدمة كتابه هذا انه يصعب على اللغوي ان يوجد لفظة بمعنى بعض الالفاظ العامية، وضرب مثلاً على ذلك فعل (لَوَقَ) مع ان هذا الفعل هو تحريف لوى . ثم يتساءل الدكتور اذا كنا نستطيع ان نجد مرادفاً لفعل بيعج . ولعله لا يستغرب اذا قلنا له : نعم وهو بيعج، ذاكرين له قول واصل بن عطاء . عن بشار : اما لهذا الاعمى من يبيع بطنه ؟

لا ننكر ان الالفاظ العامية تؤدي معانيها تأدية تامة، غير ان هذا لا يعني انه ليس في اللغة الفصحى ما ينوب عنها، ولكن بعد عهدنا بتلك الالفاظ، وشرح المعاجم لها شرحاً مبهماً رديئاً اضاع من قوتها وزخما .

ويخلص الدكتور فريجة في نهاية مقدمته الى رأي يبينه على كلمة مأثورة .
(ما قيس على كلام العرب فهو من كلامهم) . فهذا الرأي اذا عمم تصير اللغة
فوضى . اما الرأي الوسط ، فهو ان نتوسع في معاني الالفاظ اذا فتح لنا المجاز باب
فرج ، واما ان نلهم الفاظاً من هنا وهناك ونحتج بالقياس ، فهذا هو الانحلال بعينه .
وأرى ان اقبالنا على العامي الفصيح يكفيننا مؤونة تفصيل جديد على القياس . . .
بارك الله في عمر الدكتور العزيز الذي تحفنا بهذه التحفة السنية والثي . من
معدنه لا يستغرب .

الرماد الاحمر

أ مجموعة اقاصيص للكاتب جبران الخوري مسعود . ان مسرح هذه القصص هو
القرية لا المدينة ، وصاحبها ليس ممن يؤمنون بنظرية الفن للفن ، ويرى ان الحياة
نفسها تنبذها ، فعلى القصاص ان يصور الحياة كما هي بأسلوبه الخاص كي تكون
ذات تأثير فعال عليها تصلح ما قد فسد . ويقول : (ولان ارضى بنظرية الفن للفن
الا عندما يصل الانسان الى درجة مماثلة للالهية . فعندئذ ، وعندئذ فقط ، نستطيع
ان نترك التوجيه او العمل لنجعل من الادب فناً لا هدف له الا الفن) . قلت :
فلنتنظر معه ، الى يوم ينفتح في البوق .

وسرت في مقدمة الرماد الاحمر ، فاذا بي ابلغ دستور النقد الذي وضعه المؤلف .
فقرأت من بنوده أولاً ، وثانياً ، وثالثاً ، وما انتثيت عن عزمي . اما عند ما بلغت
رابعاً وفيه يقول : على الناقد ان يتفرغ لنوع واحد من الادب فيكون اما ناقد
قصة او ناقد شعر او مسرحية . ثم خامساً ، وهنا البلاء ، وهو الذي كاد يحول دون
قول كلمتي في قصصه ، قال : (على الناقد ان لا يكون اديباً ، وأعني هنا الا يكون
مؤلفاً . فناقد القصة ، مثلاً ، يجب ان يكون ناقد قصة فحسب ، وليس كاتب قصة
في نفس الوقت) .

اعترف انني وقفت محتاراً لا ادري ماذا افعل، ولكنني لما عدت الى عبارة الاهداء. هذه : (هدية كياوية الى مختبر باستور الادب الاستاذ مارون عبود) اجزت لنفسى مخاطبة الاستاذ مسعود بلغة المختبرات المقضية :

لقد خرج كثير من قصصك، بعد الفحص المجهرى، سالماً، اما انقاها دماً فهي تلك القصص التي فيها حب وغرام لانك تعيش في هذا الطور، والثى. في اوانه لا يستحي، فأكثر من هذا النوع وقل من هناك، أو أجهل الى حين يأتي وقته... .

قد لحظت انك افلحت احسن فلاح في القصص الملائمة مزاجك اليوم، وان كنت لم تقصر في القصص الاخبارية مثل (سحر ويحمر) و (الراحل الليلى)، و (ياسامعين الصوت) . ولكنك لم تجد هنا كما أجدت هناك . فاعمل بنصيحتي ولا تجعلني - كما جعلني بعضهم - من زمرة المتنطعين المتعنتين . وانني اعدك قريباً بتحليل كماوى دقيق جداً لانك تستحق، ولا يكون هذا الا حين تطبع مجموعة ثانية... .

كتاب الجوّاري وحديث الصّومعة

هو احدى حلقات سلسلة اقرأ النفيسة ، اما مؤلفه فهو الاستاذ جبور عبد النور - والدكتور اليوم - اشتهر الاستاذ بابحاثه العميقة المستوفاة جميع الشروط العلمية الحديثة . وهذا الكتاب الطريف فريد في بابيه ، جامع ، على صغر حجمه ، اصناف الجوّاري من جميع الملل والاجناس . الكتاب محبوب يغني الادباء عن مراجعة مئات الكتب فكفاهم مؤونة المطالعة العنيفة في عصر يسميه الناس عصر السرعة . عرّف القراء بجوار ترنحي نفوسهم حين يقرأون اخبار جمالهن ، ورخامة اصواتهن ، وفصاحتهم وبراعة حديثهن التي ادر كن بها نفوذاً خطيراً اهتوت له قوائم العروش وسواعدها ... فيقولون : ليتنا كنا في ذلك الزمان ، زمان الادب الصحيح ، ولم نخلق في عصر الطقاييق والمواويل التي تمط كل كلمة منها مطاً ليس له اول يعرف ولا آخر يوصف ... ثم لا تزال تجرّها الافواه ، وتقددها حتى تبلغ الحناجر آخر السكونة، فيعيل الصبر وينشف الصدر .

ان كتاب الجوّاري لذو مغزى سياسي اجتماعي ، فهو يدلنا على السوس الذي نخر جذع الامبراطورية العربية ويرينا ان الدخيل هو الذي قرض نبعة ما ان يوازي باعلى نبتها الشجر ، كما قال الاخطل ، وان الانثى التي كانوا يعبرون عن زواجها باحد الامراء بقولهم : وكانت تحته فلانة ، قد صارت فوق فوق ... امتدت يدها الى اسمى مقدرات الدولة والامة ، ففرقت اخوة جمعهم الابوة ، ورفعت رجالاً ونصبت آخرين ، ولا تسئل عن الذين جرّتهم جرّاً مشيناً ... يقول المثل : البنت لامها . اما الحقيقة التي يرينا اياها (كتاب الجوّاري) فهي ان الابن ايضاً لامه ، والتاريخ على ما نقول شهيد .

اما لغة الكتاب المومل اليه فصافية نقية لا غبار عليها، وما اخال ما فيه من
اخطأ. الا مطبعية يدركها القارئ النبيه . فللمؤلف تهنيتي الخالصة .

حديث الصومعة

مجموعة تحتوي على ثلاث عشرة رسالة نابضة بالحياة كتبها الشيخ ابراهيم الدبأغ
الى ابن اخيه الاستاذ مصطفى، ولو كنت من المجددين في التشاؤم لما قاربت هذا
الرقم ١٣ .

في هذه المجموعة الطيبة ادب وفكاهة ونقد وفلسفة، كما قال ناشرها، واما
خير ما فيها، في نظري، فهو تلك الحياة المنبثقة من روح كاتبها النسر الجريح
الذي يقول لابن اخيه في آخر الرسالة السابعة : (انا اليوم من زبائن الصيدليات
والدكاترة وجمعية الاسعاف مقسماً عليها وعلى الباقيين بالسوية، ومتى شئني ما تحت
الابط، وعلى الاصبع السبابة اعود فاسترجع ما أخذوه من دمي وجسمي دون
مالي) ...

وفي الشاعر الدبأغ يقول صديقه محمود تيمور في مقدمة (حديث الصومعة)
معرفاً القارئ عليه : (اذا استنشدته من قريضه انشدك قلائد وخزائد، فتسمع
شعراً رقيقاً يفيض بصدق العاطفة، في ديباجة عربية المترع ترجع بفصاحتها الى
عصور العربية الزواهر . وانه ليسهل عليك ان تعرف طابعه في شعره، وان تميزه
من غيره من الشعراء بخصائصه التي لا ينازعه فيها منازع) .

فاذا كان الامر كما قال تيمور، - اقول هذا لاني لم اقرأ شعراً للدبأغ -
كان هذا الشيخ رحمه الله من شعرائنا الافذاذ، وحسبه ان يكون ذا طابع خاص
ليكون فذاً .

اما ما لاحظته في اثناء تصفحي رسائله الثلاث عشرة، فهو ان نفس شيخنا
خضراء رغم انف الهرم، شاخ وهرم وبقيت نفسه قابلة للصور الجديدة . ولكنها

تختار كيف تستسيغها وتهضمها . تأمل ما كتبه لابن اخيه ليشنيه عن ديوان ابن
الاحنف وابن ابي ربيعة، دألاً اياه على الدواوين التي تحسن مطالعتها : (وحبذا لو
انصرفت رغبتك ورغبة الادباء امثالك الى الفجول الذين سارت بهم الركبان،
وضربت الى دواوينهم آباط الابل . اقول هذا مع وجود القطار والطيارة والسيارة
والموتوسيكل، فهل اقول معترضاً عن ضرب آباط الابل، امتلاً جوف القطار
بالفحم ؟ وفؤاد الطيارة بالبتزين ؟ فهلاً يا بنساء التجديد، ودعاة الهدم بعد بناء
الادب العتيد) .

ان هذه الرسائل على قلتها تحتوي على اراء صريحة يبدئها صاحبها في معاصره
كما يأمره الضمير وليس معاصرو الدباغ بالقليلين، ناهيك انه تناول الكثيرون من
القدماء غريبين وشرقيين .

لقد احسن ابن الاخ في جمع رسائل العم، وليته يجمع ما بقي منها، ففي
الرسائل مفتاح ما ينسد بوجهنا من ابواب صروح الشخصيات المتسردة .

واذا كان لي ما يقال - وهذا لا يمس قدسية الشيخ الوقور لابل هو
لا يرضى عنه اذا رآه - وما ذاك الا هفوة مطبعية كما جاء في الفهرس : الرسالة
الحادية عشر، والثانية عشر، والثالثة عشر، ومن يحتمل غيبي رقم ١٣ مع الخطأ...
انقذنا الله من خطيئات الطبع بالمعنيين...

يوميّات

هالة وعفلى وليلي وليال مداح والنسيب النائي

كتاب مصقول الديباجة، جميل التعبير والاسلوب، فكان العبارة قد اسلست قيادها لكاتبته الادبية السيدة سلمى لطفي الحفّار .

صدر هذا الكتاب عن دار العلم للعلايين فصار في غنى عن ثنائنا على اخراجه، اما مواضيعه فمعروفة من عنوانه . انا ممن يرون ارجاء اصدار اليوميات الى طور الكهولة، فليس سن الشباب سن يوميّات وذكريات . الشيخ يعيش في ذكرياته . اما يوميات هالة فعذرنا انها ليست تلك اليوميات الكثيرة ولكنها احاديث وحوادث وطنية تدلنا، قبل كل شيء، على مساهمة المرأة السورية في شؤون الحياة وشجونها . فحسب الادبية سلمى أنها ارتنا لونا طريفاً حين وصفت لنا اول حفلة زفاف شهدتها بكلام شائق طريف يبشرنا بمستقبل باهر يؤهلها له اسلوبها الناصع . اما الشهادة في يومياتها فهي منشورة في الصفحة المائة والاربعين حين يقول لها والدها في رسالة بعث بها اليها من المنفى : (صديقنا الاستاذ بدوي الجليل كلّفني ان ابعث اليك يا هالة، بتهنئته على يومياتك هذه، وان تكن لا تتجاوز من بعض الملاحظات القليلة ولكنها من الهنات الهيئات) .

قلت : وشهد شاهد من اهله، اما انا فاشهد انني لم اَر شيئاً من تلك الهنات الهيئات، فلعل السيدة سلمى تداركتها حين اشتد ساعدها، فالى الامام، فسيما الادب محتاجة الى نجوم اكثر من هوليود .

عقلي دليلي

هذه قصة صغيرة الحجم كتبها الادبية مليحة اسحق المراقية، عنوانها (عقلي دليلي) وما اجمال ان يكون عقل المرأة دليلها . ولكنني اشك في هذا ليس عند المرأة فقط بل عند الجنسين، فمتى طغى القلب اغرق العقل وعفى عليه . تقول مؤلفة (عقلي دليلي) انها قصة امرأة، وأية قصة ليست قصة امرأة ! فالحياة كلها قصتها، من عهد التفاحة يوم كانت ستنا حواء امية الى عهد مدام كوري العالمة الفذة .

نبيلة بطله قصة مليحة، وقد جاهدت جهاد النساء الفضليات، وان عدلنا قلنا انها اخت الرجال، ولكن ما ترجوه الادبية مليحة، وقد عبرت عنه في آخر كلمة من قصتها : (عراؤك بانك سبقت تلك الاجيال القادمة التي ستحتل هذه الارض التي سوف لن تسير الا على ضوء العقل ونوره) .

لا يا سيدتي . ان حظ العقل ضئيل، كما قلت في غير مكان من قصتك هذه . وانني ارجو ان تكون عبارتك لا غبار عليها متى كتبت في قابل . فالفصاحة والبلاغة من عناصر القصة الخطيرة . سلمت يدك، شرط ان تتعبها اكثر من الغد، فتتقحي وتنقحي .

بال مدوح

وهذا كتاب آخر للكاتبة مليحة اسحق، وكل ما اعرف عنها انها من الجنس اللطيف . رأيتها في لياليها الملاح تلعب نفسها فتاة الانسانية كما سمى النبي حزقيال نفسه (ابن البشر) . الكاتبة موهوبة ولياليها ملاح، وفصول كتابها هذا تتأرجح بين القصة والمقالة، وهي تعتمد فيه الاسلوب الشعري .

في المقالة الاولى من لياليها اخطاء لا اخال بعضها مطبعية، وقد لفت نظري تعلق الكاتبة بالمعري ورثائها وحبها له، في حين اني لم ار على صورتها مسحة معربة...

فروحها مريحة، واسلوبها لا تفهم فيه . ان مخيلة الكاتبة مليحة اسجيق ذات شأن ، فليت النحو والصرف ينقادان اليها انقياد الموضوع ، لتفوز بالمعنى والمبنى معاً . اقول هذا، وان كنت رأيتها في لياليها الملاح اصح وابلغ تعبيراً منها في قصتها (عقلي دليلي) . ولعلها تحقق في كتابها الآتي كلستنا المقولة : الثالثة ثابتة .

السُّبْرَةُ الثَّانِيَّةُ

عنوان كتاب الفته الآتية ثريا عبد الفتاح ملخص واصدرته دار الكتاب بجله اكثر من قشبية . (ان كاتبة هذه الاناشيد جبرانية الطريقة في التفكير ومحاولة التعبير، والتصوف، وان قاتبا الكثير من الوان جبران وموسيقاه .)

في اسلوب الآتية غرابة، فهي تقول (الحايي الاكبر) كما نقول (المهندس الاعظم) فزادت وزدنا على الاسماء الحسنى ... (الكاتبة رمزية النهج، وخصوصاً فيما تتركه من بياض، وفي الاكثار من النقاط التي يعتبرها مالومه زعيم الرمزيين جزءاً متمماً للتعبير عن الفكر) . فما اكثر البياض والنقاط في كتاب (النشيد الثائنه) .

(في النشيد الثائنه صور فكرية عميقة وجميلة لا يدرك جمالها الا الراسخون في العلم ... وفيه تعابير رائعة ولكن الآتية تشينها بما ترجمه فيها من الفاظ لا تلائم . فنصيحتي للآتية ملخص ان لا تستعمل الفاظاً عامية، وان كانت فصيحة، حين تفصل الكلام على هذا النمط من الشعر المنشور، فالكلمة اذا وقعت في غير موقعها لا تفيد شيئاً . فأني داعر لاستعمالها : تشلج، واكيري، والغبيقتان، ولا تشوحي، ما دامت لا تكتب حواراً قصصياً ... ناهيك ان بين الفاظها ما هو عامي حلة ونسباً . ثم ما الداعي الى مناداة الذي بيا ! فلو ولدت مخالفة النحو موسيقى طريفة لعذرنا، ولكنها مخالفة لا تحسن الى الفن لنسكت عنها . واذا كانت تستحلي مناداة الاسم الموصول، فلماذا لا تقول : يا من ... اما اذا كانت تريد ان تفعل هذا نكايه وتمرداً، كما فعل شاعر رندلي وقدموس حين جوز لنفسه

ما جاز للقدماء، فهذا شيء آخر . ان احالتها على الاستاذ انطون كرم خير ما
افعل فلعله يوفق الى شرح كتابها على ضوء كهرواء الرمزية ، اما انا فصباحي
زيتي عتيق .

واخيراً اقول اني رأيتها تقرب من الوضوح في اناشيدها الاخيرة ، كما ان
نشيدها (يا قلبي) يذكرني بقصيدة جبران : اسكت يا قلبي . ثم اشهد اني لم
افهم تعبيرها الطريف : والموكب مرور ، والناس رنة الدنانير ... ولعلها ارادت
ان تنحو نحو شوقي حين قال : عيسى الشعور وعمرو الامور .

ولما بلغت آخر صفحات كتابها قرأت : ابعدوا عني انا لبيب . فاحترت في
تأويل ما تعني ، ولكن الامر هان علي حين التفت الى تاريخ هذا النشيد ، فاذا
هو اول آب اللهب ... عام ١٩٤٩ .

وبعد فانا كبير الامل بالآنسة ملجس ، ولعلها تذكرنا بمي اذا عدت عن هذا
التكلف الذي رأيتها تباعد عنه بدون ارادة في آخر كتابها النشيد التائه .

ولد الشاعر ام ولد
الصحى الصغير
لعه يموت صبيحاً فميت
جلده بلقيش حتى يفت قائماً ويدي
ام ولد
الى صنع امه كلما آن احتد
فقدته اهدع منه البؤ
قصيدة خير يوسف محمود

المرأة في حياة ادغار بو ومقص العيمان

مؤلفه الناقد الفرنسي المعروف ادمون جالو الذي صار من الاربعين الخالدين، ومعربه الاستاذ عبد اللطيف شرارة . كتب الاستاذ شرارة مقدمة طويلة بالقياس الى الكتاب، جاء فيها : (فكم من عبقرى مثل ادغار لم يطعم من دنياه غير البلاء ولا ذاق من وجوده غير المرارة، بينما يعيش غيره ممن تفضلهم البهائم بخدماتها، في حالة من البذخ والاسراف، لو ادركها مثل ادغار وامثاله لاعطوا الحضارة اضعاف ما اعطوا، وقدموا لسعادة الانسانية اضعاف ما قدموا) .

اما انا فأرى غير هذا . أرى كما رأى احدهم - لا اذكر اسمه - ان البؤس ضريبة المجد . فلا يحزن شرارة ولا ييأس... وكما اخالف الاستاذ شرارة في رأيه هذا فانني قد ضحكت ملء في من رأي فطير ابداه المؤلف ادمون جالو، ناقد (النوفل ليتزر) حين قال : (اذا لفظنا الصبغة المسرحية التي تصطبغ بها قصص ادغار بو من تصوير دقيق الاجواء، الى ضخامة في الجمل والتعابير، الى الاسلوب الخطائي، الى غرابة الحالات النفسية التي يفتن في ابرازها، ادركنا مدى تأثره بابطال شكسبير الذين عاشت امه في محيطهم وآفاقهم، وهي به حامل) .

الآن ام ادغار بو كانت تمثل، وهي به حبل، يتأثر ابنها بشكسبير فيهبط عليه وحيه جنيئاً ؟ قالوا ان يوحنا السابق تحرك في بطن امه حين زارت مريم خالتها اليصابات، وهي حبل بيسوع، فهل نقول للعم جالو ان يوحنا استمد رسالته من تلك الزيارة ؟

أليس هذا الرأي غريباً عجيباً !! ان هؤلاء النقاد، الذين يتكثرون على علم النفس وآراء فرويد، لتضحكني آراؤهم حتى القهقهة .

اما الترجمة والاصل فحسبي ان اقول فيها : هذا صافي اللغة، كتبه احد الاربعين
الحالدين، وهذه كتبها عربي اصيل - الاستاذ شرارة - متمكن من اللسان العربي
المبين، قابض على ناصية العبارة باصابع من فولاذ، فاذا قرأت الترجمة فكأنما انت
تقرأ الاصل من حيث تأدية المعنى بلغة لا غبار عليها .

مرفص العميان

هذا كتاب طريف ألفه الدكتور عارف العارف الاديب والمحامي ، واحد
نوابغ العميان . صدر في طبعته الثانية الانيقة مزينة بصور فنية جميلة تسعف القارئ
وتعينه على فهم اسرار الكتاب . يقدم هذا الكتاب صاحبه بألم عميق نافذ الى
صميم القواد، فيذكرنا بالآية الكريمة : (عبس وتولى ان جاءه الاعمى) .

اظن ان هذا الكتاب مصنوع على طراز كتاب الايام للدكتور طه حسين ،
ولكنه اكثر تحليلاً نفسياً للاعمى، ومؤلفه يزعم كبشار ان الانسان يبصر بالقلب
والشعور . ليس لكتاب (مرفص العميان) طلاوة ايام طه حسين لان طه لم
يتعمد فيه الفلسفة التي توكل عليها الدكتور عارف العارف .

فمن يقرأ مرفص العميان، ير انه ادرك الكثير من نفسياتهم وتحيلهم، وان
الدكتور العارف قد خالفهم في كثير من آرائهم، وسخر مما ينسبون به الى العميان
من غرائب الذكاء، وافهمنا كيف انه كان يبصر الذرة باذنيه حين كان يمر
بالحقل، فيعرف مقدار حظها من الجودة والرداءة .

عبارة الدكتور عارف رصينة، ولكنها، كالكثير تعابير العميان ، مولدة من
السمع متأثرة بالقديم، ولهذا نراه حين يصف طراوة الهواء يقول : وكان الهواء
سجسجاً عليلاً . فمثل هذه الكلمة واخواتها تعوق السير كثيراً . وقد ظلت اعالج
اخراجها على حقها من في فما خرجت الا بقلع الضرس .

وخلاصة القول في (مرقص العميان) انه اذا قصر عن ايام طه في حلاوة
القص، فهو يفوقه في عمق التفكير والتحليل النفسي .

نهاية حب

هي قصة طويلة كتبها الاستاذ عبدالله نيازي العراقي . وقد ظهر لي من تصفحها
ومن مقدمة الاستاذ جعفر الحليبي انها المحاولة الاولى . ادرك صاحب هذه القصة
بعض التوفيق، وفاته البعض الآخر . انه يفصل اشياء لا لزوم لتفصيلها، فيقف سير
قصته . فلتلاني هذا النقص لا بد للروائي من الفجوات، وحذف ما يستغنى عنه من
النوافل التي تعرقل سير الرواية... فالقصة الجيدة تسير بسرعة النهر المنحدر .

اما العبارة ففجة غير ناضجة يعوزها الصقل، واللغة تشكو الضعف والهزال، ناهيك
ان القصة محتاجة دائماً الى العنصر الشعري كما يحتاج كل جسم الى الثيتامين، وهذا
لا أثر له في نهاية حب . وجماع القول ان نهاية قصة (نهاية حب) خير من أولها .
استراح كاتبها من القص والاعبار في الفصول الاخيرة فأجاد، وحسنت روايته .
ان القص يحتاج الى كثير من اللباقة ومع كل ما يبذله المؤلفون من جهود يظل
جامداً بارداً فلنبتعد عنه ما استطعنا .

ابونواس عالم حر وخمر وجمر

كتاب صدر في سلسلة منشورات البصري ببغداد عن ابي نواس الشاعر
الظريف، الساخر، الثائر على جميع ما تواضع الناس على احترامه . تقنع مؤلف
الكتاب البارع باسم (دعبل) فلم يبعد عن المحيط النواصي، فكللا الشاعرين
دعبل وابي نواس من الشعراء الذين خاض معهما الشعر في خضم الحياة .

ذكرتني مقدمة كتاب (ابونواس عالم حر) بأسلوب الدكتور طه حسين حين
قرأت في اول سطورها :

« حين يخلو الناس الى نفوسهم، او حين تخلو نفوس الناس اليهم، فتصرف
نفوسهم عنهم، او تصرفهم عن انفسهم ». ولكنني لم اطو الورقة حتى رأيتني واهماً،
فاذا بالمقدم للكتاب هو الاستاذ محمد الجواد . الكتاب مهدي (الى الذين يرون
في ابي نواس رباً من الشر الذي يجب ان تعصم منه نفوسهم الطاهرة) . في هذا
الكتاب درس وافق لابي نواس وان صغر حجمه . يرافق مؤلفه دعبل ابا نواس
من المهد الى اللحد، ويحلل اخلاقه وبيئته وعصره، وما عملت تلك العناصر كلها
في تكوين الشاعر حتى كان منه ذلك الانسان الذي عرفناه . وقد قال المؤلف :
وانما اريد ان اجرده من ذلك كله - اي العرف والتقليد - لافهمه تحت ضوء
انسانيته فقط، هذه الانسانية التي حققها لنا في صدق وصراحة واخلاص !!

وهكذا نظر المؤلف الى شاعره كالنسان وفنان يماشي زمانه على ضوء الصراحة
والجلاء، تاركاً التستر والرياء، مبيناً ان الخاصة والعامة كانوا يلهون مثل النواصي
حتى روي ان ابن المقفع عندما رأى البدر تصب بين يدي (الزرقاء) جارية ابن
رامين، وليس عنده مال، فبعث اليها بصك ضيعته .

والكتاب درس لشخصية ابي نواس اكثر منه دراسة لفننه . فالمؤلف يدرس حيناً درس نقادة يحاول ان يصل الى خبايا النفس . ويقف حيناً موقف المؤرخ المدقق الذي يريد ان يوقت فيلجأ الى شعر الشاعر وما فيه من ذكر حوادث يثبت فيها ما زعم .

في الكتاب هفوات تلقى تبعة اكثرها على المطبعة، الا ان هنالك ظاهرة لا ادري كيف اعلمها . رأيت المؤلف - كغيره من بعض الكتاب العراقيين - عدواً للظلم فهو يجعلها ضاداً في اكثر المواضع . وهناك اخطاء اخرى لا اظن ان المطبعة تتحمل مسؤوليتها ... وفي كل حال ان كتاب (ابو نواس عالم حر) يزيح الستار عن شؤون وشجون من حق القارى الحديث ان يطلع عليها مجموعة في كتاب، وها هو ذاك الكتاب . واذا ذكرنا ابا نواس تداعت الافكار الى الامين، وقد اخذ الامين حصته كاملة غير منقوصة في هذا الكتاب الصغير، فعرفنا عمق دعوة النواصي للامين .

بارك الله للامين وابقاءه وابقى له رداء الشباب

شكراً لدعبل مؤلف (ابو نواس عالم حر)، ولدار البصري التي اخرجت هذا الكتاب الصغير الكبير .

فهر وجر

ان الكتب التي تدعونا الى التحدث عنها كثيرة هي . منها كتاب خمر وجر للاستاذ عدنان اسعد . طبع انيق، وورق فاخر ككل ما تخرجه دار المعارف في مصر . اما المحتويات، ويا للأسف، فقلما تجد فيها خمرة مزنة الطعم قرقفا كالتى اشتهاها أبو نواس وتنتى ان يسقاها . بل لا تحاول ان تطول ولو شربت منها عشرأ لا ثلاثاً كما قال الاخطل . فاكثر الكتاب من هذا الطراز : الشيخ طفل كبير، والطفل شيخ صغير .

رب داء دواء، ودواء داء . وكقوله أيضاً : قلت لفيلسوف تائه : متى
ولدت يا عاقل . قال : وكيف عرفت يا جاهل ! وأخيراً : (الصيف ضيعت اللبنة ،
والموت ضيعت الكفن) .

لا اعجب لشيء . كما اعجب لهذه الموجة الجارفة من التأنيث ، فما كنت اعلمه
مذكراً امسيت أرى اكثره اليوم يخرج مؤنثاً من تحت اقلام الكتاب المصريين .
والا فما معنى قول صاحب (خمر وجر) : الموت ضيعت الكفن . فهل ظن الصيف
مؤنثاً في المثل العربي الذي استعاره ؟

شاء . الأستاذ عدنان اسعد ان تكون له (جوامع كلم) من طراز جبران ثم
نعيه وغيرهما ، فجمع (اوابده) في خلال ربع قرن كما قال : فكانت جرراً لا
يدقني ، وخرراً لا تجدك حمرتها في العين والحد ...

الريحاني الرجل والأديب

هذا الكتاب جامع شامل لترجمة حياة امين العامة والخاصة، في لبنان وامريكا، والبلاد العربية، ألفه الاستاذ جميل جبر . ما أجل هذا الكتاب كدليل لحياة امين التي حفلت بجلال الاعمال . حياة قضاها صاحبها بين المحابر والاوراق، يكتب دائماً، ويرحل دائماً، ويخطب دائماً . يحاضر هنا وهناك، ويجاهد لقضايا العرب في جميع انحاءها واطوارها .

قد يكون روى لنا المؤلف ما لا علم لنا به حتى الآن، ولكن كل ذلك كان على عجل، فهو جدير بأن يستحق لقطة العجلان . تشين الكتاب اخطاء كثيرة . فالاستاذ جميل جبر عدو اني معاذ الهراء اللدود، لا يبالي بكل ما وضعه علماء الصرف من قواعد همز وتصريف، وهذا ما لا نرضى به، بل لا يليق ان يصدر عن هذه الديار .

ومما نقله السيد جبر في كتابه هذا الرسالة من الريحاني الى صديقه الكاتب جرجي نقولا باز قال له فيها : (انني والله حينما قر في مخيلتي الفاء السببية يعتزني صداع شديد)، ولكن الريحاني عمل وظل يعمل حتى اخضع الفاء السببية لقلمه السيال، فأرجو ان يكون قدوة للسيد جبر فيحسن تصريف الافعال، ورسم الهزئة في كتابه الذي وعد به (مي وجبران) فلا يليق ان يكتب عن مثل هؤلاء النوابغ بلغة ضعيفة التركيب .

عودة المبت

هي قصة اخرجها قلم الاستاذ باسم الجبر الطري فجاءت تبشر بخير جزيل، وقد ادرك المؤلف حرج الموقف فقال في المقدمة : « اني اعلم ان المحاولة خطيئة،

وان (عودة الميت) هي اول قصة طويلة تظهر في الادب اللبناني منذ نيف وخمس سنوات، وقد يجد البعض فيها ضعفاً، والبعض الآخر محاولة جريئة ومحمودة .

اما انا فاقول للاستاذ باسم انني كلا الفريقين : اجد فيها ضعفاً يسيء الى الانشاء ولا يضر الفن، واني لآسف ان التقي هذا الضعف لان العنصر الادبي قوام القصة، ولا يستقيم لنا ادب مع الخطأ، فلو سلمت منه الرواية لاستحق مؤلفها الشاب الثناء كاملاً غير منقوص . فاللغة واصول كتابتها وخصوصاً النحو يجب ان تقدر، وهذا ما تشكو منه قصته . فمؤلف (عودة الميت) قصصي يجيد السرد والتصوير، وخير ما في قصته سيرها المنظم المترن الخطى . قد يكون ذلك لان مؤلفها عاجل موضوعاً يحسه، فوفق الى كتابة قصة لا ينقصها الا تصوير محيط قصته الرائع تصويراً اوضح، وتعابير صارمة تؤدي المعنى تأدية تامة .

شاء الكاتب ان يطبق ما تعلم من علم النفس في المدرسة خلق لبطله قصته طوراً غريباً قد يحدث، ولكنني استغرب تلك التعليقات العلمية . وكأني الاخيرة لمؤلف (عودة الميت) ان يعمل بما ختم به مقدمته وهو قوله : وليس حكم الناس مهما كان جائراً، بالسوط الذي يكسر قلماً او يردع يداً عن الكتابة بل هو بالنسبة لي، حافز لانتاج اصلح وأقوى .

وهذا ما انتظره انا من الاستاذ باسم الجسر، فهو كاتب مطبوع، يستطيع ان يكون قصصياً بارعاً، فعليه ان ينقي كتابته ويصفىها، فن الفن ان نرى هذه الحسناء لا تصلح من هندامها لننعم بجمالها الذي يفتن ويفري اذا ما احسن تهذيبه وترتيبه .

الأدب والنقد في مصر

بإحسان أمين و طه حسين

وهناك نوع من ارقى انواع الادب وهو النقد، واقول بكل اخلاص ان النقد عندنا ضعيف . ثم قال في مقال اذاعته الرسالة في عدد ١٥٥ : لان النقد اول شروطه الحرية، الحرية العقلية، والحرية العلمية، والحرية الادبية، فهو لا يعرف الصداقة، ولا يعرف الاكبار والاجلال، ولا يعرف المجاملة والمدحاجة .
حين هبكل

اني اوازن بين النقد من نحو عشرين عاماً والنقد الآن ، فاجده ليس خاضعاً لسنة النشوء والارتقاء، بل لسنة التدهور والانحطاط حتى وصل الى حالة من العجز يرقى لها .
احمد امين

حياتنا الادبية في هذه الاعوام الاخيرة فاترة راکدة لا يظهر فيها نشاط ولا انتاج، قد تمضي الاعوام دون ان يظهر في افقنا الادبي رأي جديد، او فكرة طريفة، او دعوة الى مذهب لم نعرفه من قبل . . . غرنا الثناء فتهنا واعجبنا بانفسنا وشغلنا بها عن الماضي في طويقنا . خدعنا بما كان يكتب عنا فاخذنا ننقله ونترجمه ونتناوله بالتفسير والتعليق، واخذ كل واحد يستريد من هذا الثناء ومن اذاعته ، ويلتمس لنفسه الانصار والشيعة . وعلت النفس بأن وقت هذه الفتنة ان يطول ، وباننا لن نتجاوز عاماً او عامين نستريح فيهما من الجهد العنيف الذي بذلناه ، ثم نستأنف النشاط والانتاج، ولكننا مع الاسف لم نصنع من هذا شيئاً انما مضينا في الراحة وما زلنا الى الآن نستريح . . .

وقد لقيت من منذ اعوام بعض المستشرقين في اوربا وكان يعنى بأدابنا الحديثة فسألته عن رأيه في حياتنا الادبية فانبأني بأنه ينتظر شيئاً جديداً، ثم سأله منذ وقت قريب نفس السؤال فاجابني بأنه ينتظر شيئاً جديداً . الخ . طه حسين

يا استاذ سلامه (موسى) كيف تلومنا على التعمق في دراسة الادب العربي وليس في مصر من يفهمه فهم العلماء اكثر من عشرين رجلاً، مع ان مصر سكانها نحو خمسة عشر مليوناً . كان لك ان تقول ذلك لو كنا نصدر في كل عام نحو مئة كتاب في الادب العربي، ولكنك ترى الدراسات الادبية في تحلف فاضح، وترى من يسيطرون على دراسة الادب في الجامعة المصرية يحملهم الجهل على سرقة آراء المستشرقين كما يفعل صديقنا العزيز طه حسين .
زكي مبارك

ان الاديب لا يهدمه النقد فهو كائن ممتاز لا يهدم الا باذنه، ولا يقضى عليه الا بارادته . ان الاديب لا يموت مقتولاً بل يموت منتحراً ومع ذلك فاني لا احب المؤلفين ان يغضبوا على اي حال فان الغضب علامة الضعف الآدمي .
توفيق الحكيم

اما السبب في ان كل انتاجنا الادبي هو للفناء فراجع الى انه ادب مسروق، او على الاقل ادب مسلوب من آداب الامم الاخرى، وليس فيه من اثار المصرية الا انه مكتوب بلغة عربية ولكن باساليب اصبحت بدورها اضعف من ان تحسن ادا . رسالة الادب .
اسماعيل مظهر

فاذا اردنا جيلاً جديداً ينشأ على مزاج ديمقراطي فاننا يجب ان نهينه بالعدة الذهنية التي يستخرج فيها هذا المزاج، وهذه هي مهمة الكتاب المجدد في مصر، هذا الكتاب الذي يأسف الاستاذ احمد امين على وفاته، وزواله من عالم الادب في مصر .
سلامه موسى

وبعد فقد كتب الزيات احد بهاليل مملكة الادب العربي مقالاً عنوانه (النقد المزيف) ذكر فيه كرة عنقرة المعلومة في قصته الشهيرة، على «رجل يقعد به العجز عن اللحاق بالقادرين فيقف نفسه موقف القائد الحصيف يلزم هذا ويتنادر على ذلك، ويؤمن انه وحده المسيطر على ثمرات الذهن، فيحكم بدوقه الخاص على هذه بالقبح وعلى تلك بالفجاجة، وامره كله لا يخرج عن مألف الطباع الساخرة الفكهة الخ» الرسالة عدد ١٥٠ .

ارايتهك ماذا فهمت، ارايتك هل عرفت من يعني الزيات، اما انا، وحياتك، فما فهمت ولا دريت ...

لا اشك ابدأ انك قائل ماذا يقول مارون عبود، اننا لم نفهم ماذا يقول فنجيب : حقك علي يا قارئي فما كافتك قط فك الطلاس، ان (ارايتهك) هذه من منبوشات المصروولوجي احمد حسن الزيات، وهي اسم فعل بمعنى اخبرني (الرسالة عدد ١٥٠ ص ٨٠٢) فقول لي لك : ارايتك ماذا فهمت، كاذبي اقول لك : اخبرني ماذا فهمت . ارايتك هل فهمت ؟ ؟ اذن قل حياً الله الفصاحة والفصحاء والبلاغة والبلغاء، وعاش كارنافون لغة العرب الشيخ احمد حسن الزيات . فعسى (ارايتهك) هذه ان تجبر خاطر احمد امين المفتش بقانوس ديوجين عن المحدد المصري .

وما مر اسبوعان على ظهور مقال الزيات (النقد المزيف) حتى قرأنا لاحد امين صاحب (فجر وضحي الاسلام) مقالاً ملخصه : ان النقد قبل عشرين عاماً كان اخصب واغنى واعق، وذكر باخير اليازجي ونقده (لمجاني الادب)، و(اقرب الموارد) ثم قال : لست انسى ما نقد به كتاب (التمدن الاسلامي) والاخذ والرد اللذين قاما حوله . وكان شوقي او حافظ يقول القصيدة فيقوم ناقد معترض يبين معانيها، ومادح مقرظ يبين محاسنها، ومن هذا وذاك يستفيد الاديب ويرقى الادب، وتتجلى حقائق كانت خافية، وتتهذب اذواق كانت نابية . وكان يؤلف الكتاب الديني مثل كتاب (الاسلام واصول الحكم) فتتشب معارك حامية ...

وكان في تقديمهم احياناً هجر وقذع وهجو وسباب ... وكان كل من السباب والنقد الغفيف علامة حياة ادبية وثورة فكرية وعقل باحث وقلم نشيط .

ورأى الاستاذ ان الانتاج الادبي تضاعف وتعددت نواحيه، وكثر الكلام في الادب العربي وارتقى في جملته، اما النقد فانكشف، وانكشف حتى ضمير وذبل واشنى على الهلاك، فصارت الكتب تنقد نقداً لا يعتد به . يكتفى باسم الكتاب وعرض موضوعه مستعينين على ذلك بفهرسه ومقدمته، ثم صيغة محفوظة متداولة من المدح والتعريض فيلقي الناقد عن عاتقه العبء بكتابة كلمة خاملة، ووصف فاتر، ونقد سطحي .

وقال : ان النقد في الغرب يرقى رقي الادب ويؤثر كلاهما في الآخر تأثيراً محموداً، وبعدما قُتس عن علة ضعف النقد العربي تراءى له انها علة محلية لا علة طبيعية فشخصها بما معناه :

النقد الصريح الصحيح يحتاج الى شجاعة ادبية قوية من الناقد ورحابة صدر من المنقود، وان مثل هذا حدث في تاريخ مصر الحديث، فكان صراع بين القديم والحديث، وبين التفكير الحر والتقاليد، وبين الادب الناشئ والادب الموروث، انتهى بهزيمة المفكرين وتمرضهم للخطر في مناصبهم وارزاقهم، وقالوا من العسف والعت ما ليس في طاقتهم فتخلى عنهم اتباعهم في وقت الضيق، ومن عطف عليهم فعطف افلاطوني عطف يتبخر ... فانهمزم فريق المفكرين الصرحاء هزيمة منكورة امام الرأي العام المسلح فرجعوا عن رأيهم وداروا الرأي العام وجاروه، فلم يعد هناك معسكران، ولم يعد صراع بل معسكر واحد ولا قتال ... وتعلم الجيل اللاحق من الجيل السابق واخذ الدرس عن اخيه الاكبر بفضل السلامة ... وبذلك اختنق النقد الادبي في مهده، واصبح الادب مدرسة واحدة لا مدارس متعددة تتناحر وتتعاون، وتتعادى وتتصادق، وفي عداوتها و صداقتها الخير .

ثم يقول : الادباء عندنا صنفان، صنف نضج وتكون واستوى على عرش
الادب وهؤلاء . هم القادة، وهم افراد معدودون تسلموا وتهادنوا واصبح كل منهم
كالمشراء لا يميلون الى النطاح ولا يرجون الا السلامة . وصنف ناشئ هو في طور
التكون يخشى ان يتعرض لمن استوى على العرش ، فيبطش به بطشة جبارة ترده
الى اسفل . فلما جامل الكبراء بعضهم بعضاً، وخاف الناشئون من الكبراء ضاع
النقد بين هؤلاء وهؤلاء .

وعزا الى السياسة بعض اسباب ضعف النقد، فانها نصرت الجماهير على القادة،
وعاونت الرأي العام على المفكرين . ثم انها قومت الاديوب بلونه السياسي فافسد
ذلك الادب والنقد معاً . وقال ايضاً ان السياسة تلعب هذا اللعب في الامم
المتمدنة ولا يكون لها هذا الاثر، لان الحصومة السياسية عندهم لا تفقد الصداقة
في اغلب الاحيان، وكذلك الشأن في الحصومة الادبية، اما الامم الناشئة فلا
تفهم من الحصومة السياسية والادبية والعلمية الا العداء العنيف، وفي العداء العنيف
قتل للحرية .

وختم مقاله بهذه العبارة : وهناك اسباب اخرى غير ما ذكرت لعل الكتاب
يعرضون لها فيكشفون عن اسباب هذا الداء الخطير ويصفون له ما يتطلب من
دواء ناجع . . .

انتهى ملخصاً تارة بالحرف وطوراً بالمعنى وقد تركت ما لا يخل حذفه بالمعنى،
وان اطلت عليك الكلام في تلخيص مقال احمد امين فساأخص لك رد طه حسين
تلخيصاً لا مثله .

بدأ طه حسين كتبت يونان يشخر وينخر، واخذ يدور ملتقاً على نفسه دوران
اعصار فوق كثيب رمل، او كمغريت الف ليلة وليلة وقد افلتت من القمم . . .
ثم ختم المقال كمار بولس في رسالته الى اهل غلاطية : انظروا ما اكبر الحروف
التي كتبتها اليكم بخط يدي . . . واليك ملخص ما قال :

قال في الفقرة الاولى انه لا يجادل اخاه العزيز احمد امين في مقاله (في النقد)
لان الفصل فصل صيف، وهو لو ارسل نفسه على سجيتهما لما جادل ولكنه مدفوع
هذه المرة لان احمد امين كان غير منصف حين عرض لقضية النقد وقضيتهم هم في
النقد عرضاً سريعاً (كذا) .

اي ان احمد امين مرّ بالميكسل فلم يخلد الباب ولم يدخله ليؤدي السجود (لاي
المول) ... فكل ذنب احمد امين انه لم يسم طه حسين المالك سعيداً على عرش
الادب في مصر، بل مر به مر الكرام، ولم يذكر ما قام حول آثاره الادبية من
ضجيج في العشرين سنة، كما قال في كتاب الاسلام واصول الحكم، وهذا ما
آذى طه واحفظه، وطه كآل ابن شماس الحطيئة : اذا غضبوا جاء الحفيظة والجد .

ثم اعاد ما قاله احمد امين في النقاد وكيف شايعوا الجمهور بعد تمردهم وكيف
لأنوا خائفين على عافيتهم ومناصبهم، ثم تبعهم اخوتهم الصغار فصار الادب تقليداً
ومقلداً، والنقد مصانعة ومتابعة . وبعد ما صرح طه ان هذا التصريح يؤذيه اكثر
بما اذاه كل ما لقي من مشقة واعنات، راح يصف لنا ما عرفناه عن جهاد الوفديين
والكتاب الذين منهم، وطه احدهم، وهنا صار حديث الاستاذ اشبه باحاديث
النساء اللواتي يتعازرن قائلات : كنتم وكنا، صنعنا وفعلتم، وعملنا وسويتم ...
واليك نموذجاً واحداً مما قاله لاحد امين : كنا نغالب الامواج وكنتم تقومون على
الشاطئ ... ثم قال ان السياسة العنيفة المنكرة لم تشغلهم عن الادب ولا عن
النقد، وانهم كلهم انتجوا اثنا المحنة ...

قلنا : ان احمد ينظر الى الكيف، وطه ينظر الى الكم، ونحن واحمد امين،
وهيكل ومظهر، وطه ايضاً متفقون على ان هذا الانتاج من الصنف الرذل، فهو
لا يدل لا على تفكير ولا على ابداع، وما هو الا كلام مرصوف، وحديث مكروور،
بشهادة طه نفسه، راجع كلمته في صدر المقال .

ثم يعرض طه بوجه خاص للنقد فيقول : انهم كانوا برغم السياسة واثقالها

واهلها يقرأون الكتب والدواوين ويقولون رأيهم فيها، ويفرضون على انفسهم صفحة ادبية في الاسبوع يفرغون لها اليوم او اكثر من اليوم، ثم ذكر ما ثار بينه وبين هيكل حول ثورة الادب - كتاب لهيكل عنوانه ثورة، ولكنه سلام وطأنينة - وبينه وبين العقاد حول اللاتينية والسكسونية، وبينه وبين العقاد ايضاً حول ديوان من دواوينه . ثم ذكرنا انه كان يحدث الناس في الراديو وينتقد .

لا شك ان طه حسين كان اكثر الادباء المصريين كلاماً في الراديو، ولكن كلام طه اعجبنا منه ما كان في فجر ادبه وضجاءه، اما ما يكتبه ويحدثنا به في عصارى نهاره فيدل على ان طه لا يحترم نفسه وقراءه، او ان جعبته فرغت، وما كلف الله نفساً فوق طاقتها .

وهنا ذكر طه احمد امين انه اتيح له الهدوء واستمتع بالبال الرخي والحياة المستقيمة المطمئنة، وما نقد لانه لا يقرأ، او لا ينقد لانه يقرأ ويشفق من ان يعلن آراءه، فيتنكر له الناس ويسلقه اصحاب الكتب بالسنة حداد . . .

قلنا نحن لم نقرأ نقداً لاحمد امين لانه غير ناقد، ولكننا قرأنا له كتاباً نفيساً هو (فجر وضحي الاسلام) وعرفنا انه رجل بمقام ثلاثة . . . اما قام وحده بعمل اعلن طه انه هو والعبادي شريكاه فيه، ثم ارفضاه عنه فبقي وحده، واخرج هذا الكتاب القيم الذي لا اعدل به أي اثر ادبي مصري آخر .

نعم انه ككل ادب اخواننا المصريين يعول على المتشرفين، ويصاب امامهم بشلل الفكر، ولكنه، كيفما دارت به الحال، كتاب طريف صريح بمقدار . فاحمد امين تاجر سليم الذوق يعرف كيف ينتقي السلع من البندر ويحسن عرضها في مخزنه . . .

وعرض طه ايضاً للادباء الناشئين فقال انهم ضعاف اثرون عجلون، ذوو كبرياء لا تحلو من سخف، ومن سخف يذكر باخلاق الاطفال . يستعجلون الشهرة ويريدون

ان تم لهم ما بين طرفه عين وانتباهتها، يرون لانفسهم العصمة ولا ينتظرون من
النقاد الا ثناءً ومحمداً . جيل رخو . الخ .

ثم اعلن طه انه مستعد الى ان يستأنف ما فعل منذ عشر سنين . والى ان
يستأنف ايضاً ما فعل منذ اربع سنين .

فلنتنظر نحن واحمد امين، وعسى ان يكون ادباً مميّناً رصيناً ليس من نوع
خالف تعرف، فهذا يكون في الانقلابات السياسية، اما في الادب فيسر مر العاصفة
ويكون الهدوء . ليعمل طه اثرأ خالداً يذكر له ان كان يستطيع .

وشاء طه، وهو لا يحب الشهرة كالجيل الناشئ الرخو، ان يجهرنا ان الاستاذ
كراشكوفسكي ترجم كتابه (الايام) وقدم له، فقال لاحمد امين : (اني لشديد
الاسف ان كانت ثقة الاستاذ كراشكوفسكي بي اشد واقوى من ثقتك انت،
فانه لم يتردد في مقدمة ترجمته للايام ان يتنبأ (كذا) بان ما عرض لي من الخطوب
ليس كل شيء . وانه ينتظر ان يعرض لي مثله) اه .

الأدب والنقد في مصر - بين أسير وطه وهب

أصمت بأذنك ان طه حسين يرى الادب كله في ضوذاً يهبها، فيقوم لها الرأي العام ويقعد، فما مثله في الناس الا شاعراً يرى كل (فنه) في تصفيق النظارة . لقد اثار كتاب طه (الشعر الجاهلي) نقماً كالذي وصفه اعمى البصرة وهو منبطح في دهليزه كالجاموس، ولكن هذا الرجح ما لبث ان همد وسيمحي اثره يوم تنسع ثقافة الشباب وتعمق اذ يعرفون مصادره كما عرف ذو الصليب منبع الفرات المسحفر من بلاد الروم .

ان انبياء الله قد ختموا، ومع ذلك فاني اتبناً لطله كما تنبأ له كراشكوفسكي، وما يمنع ان يكون بين الانبياء شاوولان جديدان ؟ ان كتاب طه (الشعر الجاهلي) يظل قيدوم آثاره وان يقدر طه على خير منه . اما حاول ان يثير في (على هامش السيرة) ما اثاره في الشعر الجاهلي فقعد ملاماً محسوراً ؟ ما طن كتابه الجديد كما توقع، ولم يؤاخذ احد بكلمة الا العقاد . قلت كلمة، نعم كلمة واحدة فقط لا غير، واظننها (الوجدان) ان لم تخني الذاكرة . فقد قال العقاد : ان الوجدان لم تكن مفهومة في جيل اصحاب السيرة بمعناها المجازي اليوم . ولامه ايضاً حسين هيكمل على ابتداعه اساطير جديدة أضافها الى السيرة النبوية . قلت (ابتداعه) فعفوك ايها القاري فليس طه من المبدعين ولكنه يستعير . قد استعار بعض اساطير قديمة زاد فيها قاري السيرة عموماً، في حين ان حسين هيكمل قام يحاول الاقلال منها في كتابه : حياة محمد .

فلندع ذاك، كما يقول الجاهليون في تخلصهم، لنعود الى رد احمد امين على طه، قال احمد :

تظهر كل عام كتب لهيكل وطه والعقاد والزيات ومبارك وغيرهم، وتنظم قصائد وتشر روايات ولا تنقد، ثم يخص بالذكر كتاب محمد لتوفيق الحكيم ويذكر كيف مر بسلام .

قلت اين الروايات يا استاذ لمن مهمتهم، اهي (اديب) طه حسين ١١ وأي شأن لرواية كهذه ؟ شاء الدكتور طه ان يكون فيها قصصياً فكان محدثاً كالحارث ابن همام وغيره من فصحاء المقامات، وشاء ان يكون من علماء النفس فكان من رصافي الكلام، فتسقط في الحديث حتى كتب في ميتين واحدى وخمسين صفحة ما كان في مكتبته ان يلزّه ويحشره في صفحات تؤلف اقصوصة لا قصة . ولكن طه مولع بالتبسط والتمدد كنجاز ابن الرومي، او في التشابك كقالي الزلابيه فيرميك بصفائح براقه كالفائف الشكولاتا، تحسبها ذهباً او فضة وما هي غير قصدير .

اما كتاب محمد لتوفيق الحكيم فلم اقرأه بعد ولكنه صار عندي، وانا زعيم لك كما يقول طه حسين انه لو صدر قبل ان شق توفيق عصا الطاعة ووقف في صف الحوارج لسمعت طه يقول في مقدمته : ومن الخير لي ولك ان تقرأ هذا الكتاب ففيه الادب الممتع كله، والمتاع الفني كله، والبلاغة كلها، وانا زعيم لك بانك سترى فيه ما رأيت وتقول ما قلت الخ . ولكن هذا التوفيق الحكيم صار للعبودية كراهاً وابغض المسيطرين، فدفع كتابه الى المطبعة تواً فكسب احترامنا لاعتناده على نفسه، واراخنا من مقدمات طه اللولبية التي يرفع عقيرته فيها مردداً عشرات المرات كلمة او فكرة يعثر عليها في كتاب يقدم له، فيذكرنا بالدلائن الذين يؤجرون على نفاق خرفتي البيوت، وما يطرح في السوق من سقط المتاع .

ثم قال احمد امين ان الافكار في مصر مكبلة مقيدة فالمواضيع التي بحث منذ ألف سنة ولم يمس اصحابها بأذى يعرض لها اليوم بعض الكتاب في مصر فيقرر مجلس الوزارة مصادرة كتبهم ولا احد يحرك لذلك ساكناً . ويرى احمد امين انه

لوقوع هذا الحادث من عشر سنين لقام له الكتاب الاحرار وقعدوا ودافعوا وانتقدوا .

ورأى ايضاً ان لجنة التأليف والنشر - جزاها الله صالحة ووفق السيد منير الحسامي الى انشاء مثلها في قطرنا الشامي - تصدر كتباً وما من ينقدها، فاستدل بهذا وبغيره على ضعف النقد، وبين كيف ينظرون الى الناقد في الشرق وكيف ينظرون اليه في الغرب، وشبه الناقد بالقاضي الذي لا يجب ان يعول على وجدانه فقط .

قلت : ان طه صار من هذا الضرب ولم ينقد نقداً فنياً موضوعياً الا ثلاث مرات، الاولى والثانية في شوقي، والثالثة في حافظ، اما فيا بقي من الفصول التي حبرها في النقد فقد حكم (تأثره) في الآثار الادبية فكان كالنقاد الذين يسميهم الفرنج impressionnistes ، وبعبارة افصح اني اشبه طه في نقده اليوم بالقصّاب الذي يخترق القطيع فيمس ظهر هذا الكباش، ويروز آية ذاك ويجس عصص ذلك التيس، ثم يخمن ما مس وراز وجس كما يخال . هذا ما يريد ان يقوله احمد امين ولكنه لا يجرؤ على التصريح به لجيار الجامعة المصرية لاسباب ستعلمها من رد حسين هيكمل الذي يأتيك خبره الآن .

ثم عرض احمد امين لقول طه حسين عنه انه لم ينقد فرد عليه بقوله : وهل من العيب ان يشرح المريض مرضاً عاماً اصاب به هو وغيره ؟ وهل يجبر على الانسان ان يقول ان هذا ليس بجميل الا اذا كان هو جميلاً، وليس ابيض ولا اسود الا اذا كان هو اسود او ابيض ! .

قلت : وما يمنعك يا سيد احمد ان تنتقد كطه (اليوم) ! أليس هذا ميسوراً لك ولغيرك، فلا تحرم نفسك منه . اعمل بقول المثل الشامي العامي الفصيح : (كبر البيدر ولا شماتة العدى) . واخيراً ختم الاستاذ احمد رده بهذه الكلمة الرصينة : ان اراد اخي طه ان ينقل المسألة من النقد الادبي الى النقد السياسي، ويجعل الامر

يدوو حول انا وانت، ونقدت ولم تنقد، وكتبت ولم تكتب، وبذت ونعت، وشقيت وسعدت، لم اجاره في ذلك .

احسنت يا استاذ، فاولا داهنته وتلقته وهرقت على قدميه طيوب الثناء كالمجدلية لضمن لك الخلود في ملكوته ولم يعيرك قلة النقد . ولولا سلمت عليه بالزعامة كما عودقوه لأذناك من السرير وقال فيك اليوم ما قاله امس في مقدمة ضحى الاسلام . ولكنك نسيت او تناسيت ذكره واهملت التحية بخفاء تلك البلية، نسأل الله ان يخلصك منه يا شيخ، فالسلامة غنية . . .

ولم نفرغ من درس ما كتبه احمد وطه حتى طلع علينا العدد ١٥٥ من الرسالة يحمل كلمة لتوفيق الحكيم وفيها ثناء طيب لذيد علي احمد امين، ولوم للمؤلفين لان صدورهم تضيق بالنقد والنقاد . قال : (وان اعجب ظاهرة في ادبنا العربي انه لا توجد فيه صداقات عظيمة جدية ان يتحدث عنها تاريخ الادب - كالتى كانت بينه وبين طه مثلاً - تلك الصداقات التى نراها في آداب الحضارات الكبرى قد انتجت من الرسائل والابحار ما لا يقوم بمال) . ثم تجاهل ما ينقصنا فقال : (أهو شي من الخلق، ام هو ضعف في النفس ام هو نقص في الثقافة، لست اعلم) .

قلت : انا اعلم يا استاذ، تنقصنا كل هذه مجتمعة ولكننا في الطريق سائرون، وسنصل، سنتمسح جلود ادبائنا الرقيقة فلا تعود تؤثر بها ابر النقد ومسألتهم، فيسلس قيادهم ولا يتعنفون .

وعرض ايضاً حسين هيكلموضوع النقد فكتب في هذا الموضوع مقالاً طويلاً برأ فيه نفسه واتهم غيره فقال : لم يكن انصرافى عن النقد عن اثار للسلامة او مداراة للجمهور، او اندفاع في تيار الجمهور بعد ان كنت اريد جذبه الى تيارى . . . كلا . وانما كان انصرافى عن النقد وعن الوان غيره من الكتابة اننى ايقنت ان فى انا بسبيله اليوم من مباحث فى سيرة النبي العربي وفى عصره، ما هو

اجدى على القراء. وعلى الغرض الذي ارجو للجماعة الانسانية ان تبلغه مما كنت بسبيله من قبل .

قلت : رأيت ما في تعابير حسين هيكل من تعاريج وتلافيف فكأنها بوق براقعة، فاسمع لأخص لك ما بقي . ورأى هيكل بعد كلام بين فيه اهمية عمله المنصرف اليه - وهو مهم حقاً - ان هذا الانصراف طبيعي لان اكثر الكتاب يبدؤون حياتهم في الكتابة بالنقد ثم ينصرفون عنه، وكذلك شأنهم في اوربا وغير اوربا . وبعد ان طاف حول الموضوع يؤيد كلامه عاد فاستدرك على نفسه فقال : صحيح ان من الكتاب من يجعل النقد رسالته الادبية طيلة حياته، ولقد كان من هؤلاء في فرنسا عدد غير قليل امثال سنت بيف وجيل لامتر . جمعوا النقد رسالتهم على انه لون من الوان التصوير لتاريخ الحياة الادبية في عصرهم وفيما سبقهم من العصور، ولكنهم كانوا في عصر النضوج ادنى الى المؤرخين منهم الى النقاد .

قلنا : ان سنت بيف وتين وبرينتيير كانوا يؤلفون في عصر عمرهم تاريخاً علمياً للادب، اي تاريخاً طبيعياً كتاريخ النبات مثلاً، لا تاريخاً بالمعنى الذي يفهم من كلام حسين هيكل . اما انا تول فرانس وجيل لامتر فنقدتهما معروف، وقد قدره الناقد الحازم برينتيير بما يستحق، ومن اعياه الاطلاع على مقال برينتيير في هذا الصدد يسهل عليه مطالعة رد انا تول وقد صدر به الجزء الثالث من كتابه (الحياة الادبية)، فيدرك مأخذ برينتيير على فرانس ولا متر وزميل لها اخر لا يحضرني اسمه .

ثم قال هيكل : ان تين وضع كتاباً فريداً جعل عنوانه (مذكرات عن باريس) وكم تمنى لو سلك تين هذا المسلك ووضع على هذا النحو كثيراً من الكتب، لكن احداً لم يوجه اليه اللوم لانه آثر الفلسفة او التاريخ .

قلت : ونحن ايضاً لا نؤاخذك يا استاذ على تركك النقد وانصرافك الى غيره من الوان الادب فحسناً صنعت . فليس النقد شرحاً وتحليلاً كما كنت تفعل . ان

النقد شيء غير هذا، ولا يحسنه الا من خلقوا له، فامض في سبيلك على خيرة الله فليس فينا من يلوّمك، اننا نكبر عملك الذي مضيت فيه، سدد الله خطواتك، واوصلك بالسلامة الى حيث تبغي، فعلى خيرة الرحمن وبركته، فلا تأسف على تركك نقداً قليل الخير والبركة .

وبعد هذه المقدمة جعل هيكل جرعة اهمال النقد في عنق الشباب ثم قال :
اما والشباب لا ينتقد فعني هذا انه لا يقرأ، وانه اذا قرأ لا يمحّص، وانه اذا محّص لا يشور فينقد .

قلت : وهذا هيكل يجاري اخاه طه في لوم الناس على قلة القراءة . ليس فينا من يشك ان القراءة دعامة الثقافة، ولكنها وحدها لا تكون الناقد ولا تحلّقه، عرفت اكثر من واحد يقرأون الليل والنهار وسيان في نظرهم (اديب) طه حسين، وسفر ايوب . . . فلماذا لا يكون هؤلاء من النقاد ؟ ان النقد ملكة كغيرها من الملكات تنميها القراءة ولكنها لا توجد لها يدكتور، ولو عقب القراءة ورافقتها الف تمحيص . انك تتصور لي منكباً على الاسفار تطالعها ولا اري لك نقداً مذكوراً، فخير ما كتبت في النقد ما كانت له مصادر اجنبية، اما حين تناول موضوعاً بكرة فما اراك تقول فيه شيئاً خطيراً، فلماذا هذا وانت تقرأ كثيراً ؟

ثم وجه هيكل اللوم الى الذين يهذبون الشباب ويثقفونه فقال : (لقد اصبح هم الشباب المال الذي يجري الجاه والاحترام والتقدير فبعدوا عن النقد الذي يريد احمد امين قوياً ناهضاً، ورأى ايضاً ان النقد يقتضي الحرية العقلية والعلمية والادبية كما ذكرنا في صدر المقال السابق، وكيف يتأتى والحالة هذه للشباب الناشئ ان ينتقد كتاباً لطله، أو لهيكل، أو لاحمد امين، أو للمقداد، أو للمازني أو لغيرهم، وهؤلاء قد يكونون وسيلته الى الوظيفة، او الى مال الوظيفة وجاهها وما لها في اعين الناس من احترام وتقدير . . . لذلك تعلم الشباب المداخلة والرياء حتى في العلم والادب . . . وهذا سبب العلة وموضع الداء . فليتمس احمد امين شاباً حراً

يوثمن بالثورة وانا ضمين له بعودة النقد وفتوته . اما هؤلاء الشيوخ الذين يتوجه اليهم
بالنقد فقد رغبوا الى لون من الادب عن النقد . لم يبق منهم الا صديقي وصديقه
الدكتور طه الحريص على ان يبقى مع الشباب حرصه على ان يكون في طليعة
الشيوخ) .

قلت : وهذا طبيعي ، فمن استطاع ان يماشي الشباب كما يزعم الدكتور هيكل ،
كان لا شك في طليعة الشيوخ ، ولكنني انصح للشباب الا يقتدوا بطه حسين في
هذه الايام ، فدكتورنا امسى (محتملاً) لا ناقدأ ، وان قلده الشباب وترحموا خطاه في
النقد والاسلوب صار النقد نقراً ، والكلام نخالة يكال بالغرارة ولا يوضع في

ميزان . . .

ولا ان كان لا يقدركم في طليعة الشيوخ ، ولكنني انصح للشباب الا يقتدوا بطه حسين في
هذه الايام ، فدكتورنا امسى (محتملاً) لا ناقدأ ، وان قلده الشباب وترحموا خطاه في
النقد والاسلوب صار النقد نقراً ، والكلام نخالة يكال بالغرارة ولا يوضع في
ميزان . . .

والا ان كان لا يقدركم في طليعة الشيوخ ، ولكنني انصح للشباب الا يقتدوا بطه حسين في
هذه الايام ، فدكتورنا امسى (محتملاً) لا ناقدأ ، وان قلده الشباب وترحموا خطاه في
النقد والاسلوب صار النقد نقراً ، والكلام نخالة يكال بالغرارة ولا يوضع في
ميزان . . .

الأدب والنقد في مصر

تجربة طه حسين في النقد الأدبي

قلنا في الفصل السابق ان طه حسين امسى (مخمناً) لا ناقدًا، وانه نقد بضع نقدات حين كان يتسلق الجبل، ليدرك نسر القمة . اما اليوم فالجبل طه منجله واستراح واغتته السمعة عن المشقة، وان شئت نبذة من طرف (تخمينه) فاليك رأيه في الحركة الادبية في سورية كما اذاعه مندوب جريدة الايام الدمشقية :

(ان الاكثوية عندكم من المحافظين المتعصبين في العقيدة الادبية ، واذا كان ظن الاكثوية المحافظة ان اللغة كالقرآن لا يس، وان المحافظة دين فلا سبيل لاقناعها وعبثاً السعي، ويكون نصيب الادب التقهقر والانحطاط ، وان الحلقة التي نقضها محافظون غير مجددون تبث على الندم . . . لذلك عندما افكر في موضوع ما فاني افكر في الافرنسية الخ . . .) والبقية تأتي .

قلنا صح فينا ما قاله القدماء : ان لم تعلم ابنك فالدهر يعلمه، فشكراً للزمان على هدايته المصريين الذين حاربوا المجددين السوريين ربع قرن، فكم جاهدوا في قتال مدرسة جبران الثائرة على القديم البالي حتى وصموا زعيمها بالمروق من دين ادب العرب، وما استراح لهم بال حتى ضرب الراعي وتبددت الحراف . . .

ان انفة اخواننا فراعنة الادب المصري الحديث تأبى الاعتراف لمن سخروا نفوسهم لبناء اهرام الادب الجديد، وهم ينتحلون كل شيء حتى التجديد في الادب، وتاريخه يشهد عليهم انهم كانوا الد اعداء زعيمه جبران، واليك كلمة أخرى للاستاذ جبّ تجلوا هذا الغموض : شرع الكتاب المصريون ينكرون على الكتاب السوريين سيطرتهم وتقدمهم، وعمدوا الى ما اقتبسه السوريون عن الغربيين من

تجديد فصره وادخله ادخالاً جديداً عن طريقهم هم) . قلنا ليس في الامر بدع
فالمصريون مولعون (بالتبني) من عهد فرعون موسى حتى الساعة . فأني غرابة اذن
في قول طه عن السوريين انهم محافظون في الادب، واي عجب في ادعائه التجديد
وهو غارق في العتيق حتى الاذنين .

اما التجديد في عرف طه فسندلك عليه بعد مناقشة الدكتور (المجدد)
(في كلمة قالها لاحمد امين، وهي انه - أي طه - كان برغم السياسة واثقالها
واهوالها يفرض على نفسه صفحة ادبية كل اسبوع يفرغ لها اليوم او اكثر من
اليوم) . فعادت الى حزم قصاصات الصحف، او الجرازاات كما يستيها المجمع
العربي، فاذا بي استعرض ساعات صرفها طه مع المثقب العبدى، وابن المعتز،
وسويد بن ابي كاهل، وعنترة، وزهير وابنه كعب، وطرفة ولييد، ثم اعود منها
وقد قررتي الملل، ولو لم يكن لي معدة تقطع الصوان لما كبست على نفسي
وتصفحتها . يحاور طه في هذه الساعات شخصاً جرده من نفسه، والحوار لذيذ ان
لم يكن مضجراً، ولكن طه كما عودنا، يدور مع صاحبه ويدور ويدور
- وهذا التعبير من تجديده - حتى يصاب القارى بدوار ان لم يكن راضه طه
على الدوران معه . . .

اما الذي قاله عميد الجامعة المصرية في هذه الساعات فشرح لقائده اولئك
الشعراء على غمط المتقدمين، ليفهمها الشباب الذين غرهم الادب العربي فعبثوا عن
فهم الادب العربي القديم، فجفوه لانهم لم يستسيغوه .

وأعادني تفكير طه في الافرنسية كما ادعى الى مقال له عنوانه (اثناء قراءة
الشعر القديم) كتبه قبل هذه (الساعات) وختمه بقوله : ثم تم الاتفاق بيننا -
اي بين طه وبين الشخص الذي جرده من نفسه - على ان يكون يوم الاربعاء من
كل اسبوع موعداً للترفة في صحراء الادب الجاهلي التي يراها الناس صحراء، واراها
انا حديقة من اجمل الحداثق واروعها .

هذا ما قاله الاستاذ الجليل، أولاً، اما ما قاله بعد ذلك فهو : (انني افكر في الافرنسية لان الادب العربي لم يتطور، والافكار لا تزال قديمة تفقد الرونق الذي يتمثل في الادب العربي الحديث في ابهى صورة واجملها واحبها للنفس، وفيه من جزالة اللفظ ونعومة العبارة وسهولة تفهيمه وقوته وبراعته ما يحلني على الاعجاب به والارتياح اليه) .

قلت ان سماعة الاستاذ مشهورة وتواضعه عميق ولذلك لا يأنف من الثناء على الادب العربي . ثم عدت الى قصاصات الصحف التمس الدليل على (تفكير طه في الافرنسية فوجدته بعد بحث عنيف في مقال كتبه عن بارتو وبوانكاريه على أثر وفاتها . وهاك منه الفقرة الاولى وفيها الدليل القاطع، قال : (كان من المؤثر في النفوس التي احتفظت ببقية من حسن وفضل من شعور ان يعرف الانسان ان بارتو قتل يوم الثلاثاء. حُزن عليه بوانكاريه حتى قتله الحزن يوم الاثنين، وان بارتو دفن يوم السبت فلم يستطع بوانكاريه الا ان يموت ليدفن يوم السبت الذي يليه) .

ألا يضحكك هذا التفكير الفرنجي البري ! اهكذا يفكر الافرنسيون، وهكذا يكتبون فيستعملون القصر في ما لا يسلم به صبي ؟ ! أيقولون : فلم يستطع بوانكاريه الا ان يموت يوم الاثنين ليدفن يوم السبت . . . كأن بارتو وبوانكاريه على ميعاد . هبها مخالفة او معاهدة يادكتور فهم ينقضونها . . . ليت بوانكاريه عجل ليدفن مع بارتو في يوم واحد، وقبر واحد كعشاق الحكايات لذي من طه تفكيراً فرنسياً غريب واعمق . . .

كنا اذا كتبنا مقالاً فرنسياً قال لنا معلمنا : انكم تفكرون في العربية، فهل صار العكس بالعكس كما يقول النحاة، لننصح لتلاميذنا ان يفكروا في الافرنسية ويكتبوا العربية كطه حسين . وهل من الخير، كما يعبر طه، ان نعلمهم ليقولوا في عشرة اسطر ما يقال في سطر عملاً بأسلوب طه الفرنجي العربي ؟ وهل من الخير مرة اخرى ان ننبذ ظهرياً شعارنا العربي : خير الكلام ما قل ودل، لنفكر

ونكتب في اسلوب طه الحازوني المطاط ١١ ان كان هكذا يفكر الفرنسيون
فالجماعة، قسماً بالله، بلا فكر .

قال طه ان المتشرق كراتشوفسكي عرفه اكثر من احمد امين، وان لديه
اشياء... فهل هذه البدعة الجديدة - التفكير في الافرنسية - من طلائع اشياء
طه... لا اشك ابداً في ان طه عبد الغريين، وادبه عيال عليهم، ولكنني ما
حسبت قط ان ستأتي ساعة نسمع فيها مثل هذه السفسة من الدكتور . اني ارى
تفكير طه في الافرنسية اخا البرنيطة التي يزعم سلامه موسى انها تقربنا من الغرب
وتبعدنا عن الشرق (القدر) فنفتكر كغربيين لا كشرقيين . فعلى من يروم الجديد
ان يعمل برأي الاستاذين موسى وحسين، فيلبس البرنيطة ليفكر في الافرنسية،
وهكذا يدرك الادب العربي التجديد من اقرب الطرق، وكفى الله المؤمنين القتال .

روى الماضون اساطير شتى عن (القبع الاخفى) فهل تمثله البرنيطة الموسوية
اصدق تمثيل؟ لقد عملت عصا موسى العتيق عجائب، فهل تحيي لنا عهداً برنيطة
موسى مصر الجديدة؟ اما انا فأشهد انني عرفت اكثر من ألف معاًز لبناني سوري
عادوا الينا من المهجر وقد لبسوا البرنيطة ربع قرن ولم يتغير تفكيرهم... فهل
عند سلامه موسى طريقة يعلمها هؤلاء المتبرنطين ليفكروا تفكيراً غريباً كما يريد
هو والشيخ طه؟ رحم الله من قال: ولم بمصر من المضحكات... لم يبق الا
بدعة الحروف اللاتينية فليقرها هذان الاخوان فيتيسر لنا التفكير والتعبير الغريبان
ويقضى الامر .

ان الملبوس لا يعمل القسوس، فالتجديد غير ما يفكر به طه، ولا ما يرشد
اليه سلامه، فلا الطريوش يعنى ولا البرنيطة تجدد . ان منبع التجديد تحت البرنيطة
والطريوش، وآله عقل ثاقب، وخيال رائع، وفطرة مبدعة، والمبقر لا يعوزه
التقليد .

ان الفرنجة لا يكتبون ككتابة طه الناشفة كلسان المحموم، ولكل امة اسلوب في

التفكير والتعبير، واختلاف الادب ظاهر حتى بين الانكليزي والاميركي . قد علمنا كثير من القداماء والجدد كيف يكون التجديد فلننقد بهم .

يقول طه ان الاكثريّة في سورية من المحافظين . نحن نسلم بذلك وتزيد عليه : اننا نعد هؤلاء المحافظين اشياءاً لطه واضرابه، واذا كان في مصر من هو ذو اسلوب عربي خاص بصاحبه فذاك هو العقاد في نثره - دع شعره البارد - فهو عربي التفكير والتعبير بضد طه الذي لا يستطيع التعقّق وهو معذور . تقرأ مقالاً للعقاد فتعلم انك امام رجل مفكر، وتقرأ مقالاً لطه فتعلم انك امام رجل يجب الحكمي ...

ولم يكف المصريون بادعاء التجديد في اللغة الفصحى حتى قال سلامه موسى : (ان لغة ام كلثوم وعبد الوهاب ترطب لغتنا العامية وتعلمنا درساً جديداً) . اما نحن فنقول انه لا يلزم لنا من غنائها الا الفصح لاننا نفهمه، وكثيراً ما افسدت علينا لغتهم العامية رواياتهم المسرحية والسينائية، كما بسطنا ذلك للترجم الاقتصادي الجليل طلعت حرب باشا، فاجاب جواب من يتلافى الخطأ متى اهتدى اليه .

وبعد فلننظر ما انتج ادباء مصر في هذه السنين القاحلة . اما طه فما عمل شيئاً غير مقالات جمعها تحت عنوان جديد كما فعل من قبل في كتاب حافظ وشوقي، واكثر كتابهم يفرون من معركة الابداع الى ميدان احياء القديم . ومهما يكن من شيء فقد عرف كل كاتب من اشياخ كتاب مصر اتجاهاه الا طه فانه لا يزال كحاطب ليل، وهو الى هذا يدعي التجديد، والتجديد عنده تفكير في الافرنسية كما رأيت .

هذا كثير يا دكتور، اتقلد الفرنجة حتى في تفكيرهم ! لقد اغليت يا مولانا حتى صرت كراس براهمة الكوخ الهندي ترى كل شيء فيك .

قال حسين هيكل : لم يثبت في ميدان النقد الا طه، اما انا فاقول : ان

نقد طه تضحهم حتى فاق نقد هذه الايام فهو يُحْتَرُّ ويُحْتَرُّ ويدعي ويدعي
ويدعي حتى كاد يقول كالعربدين : نحن العالم .

ان ذوق استاذكم الفني ضئيل جداً، وهو يتفرعن بلا شيء، وما اشبهه بالهراقة،
فهي اذا انحنت عن خرطومها المدر كخابية الاخطل، ومدت قرونها وانتفشت
حسبتها شيئاً، اما اذا اعدتها الى بوقها فتراها محتشة متواضعة وديعة .

ان طه يطلب اما معدته فلا تقطع، وهذا ما بلاله بعسر الهضم، وان بقي
معتزماً الاصطيفاف في لبنان، فانصحته ان يصيف في فالوغا، فياهاها تغني المدة عن علم
ابي جعفر صاحب ابي نواس . . . اما حاول طه ان يقلد المعري في (على هامش
السيرة) فلم يفلح، وما ادرك الظالع شأو الضليع، كقول شيخ ربيعة الفرس .
أما كتب ايضاً قصة اديب فكانت لا شيء . ؟ ؟ والاستاذ الى كل هذا نساء .
بنني اليوم ما اثبتته امس فكانه لم يهتد بعد الى شخصيته . انه يحاول ولكنه
غير موفق، هداانا الله واياه الصراط المستقيم .

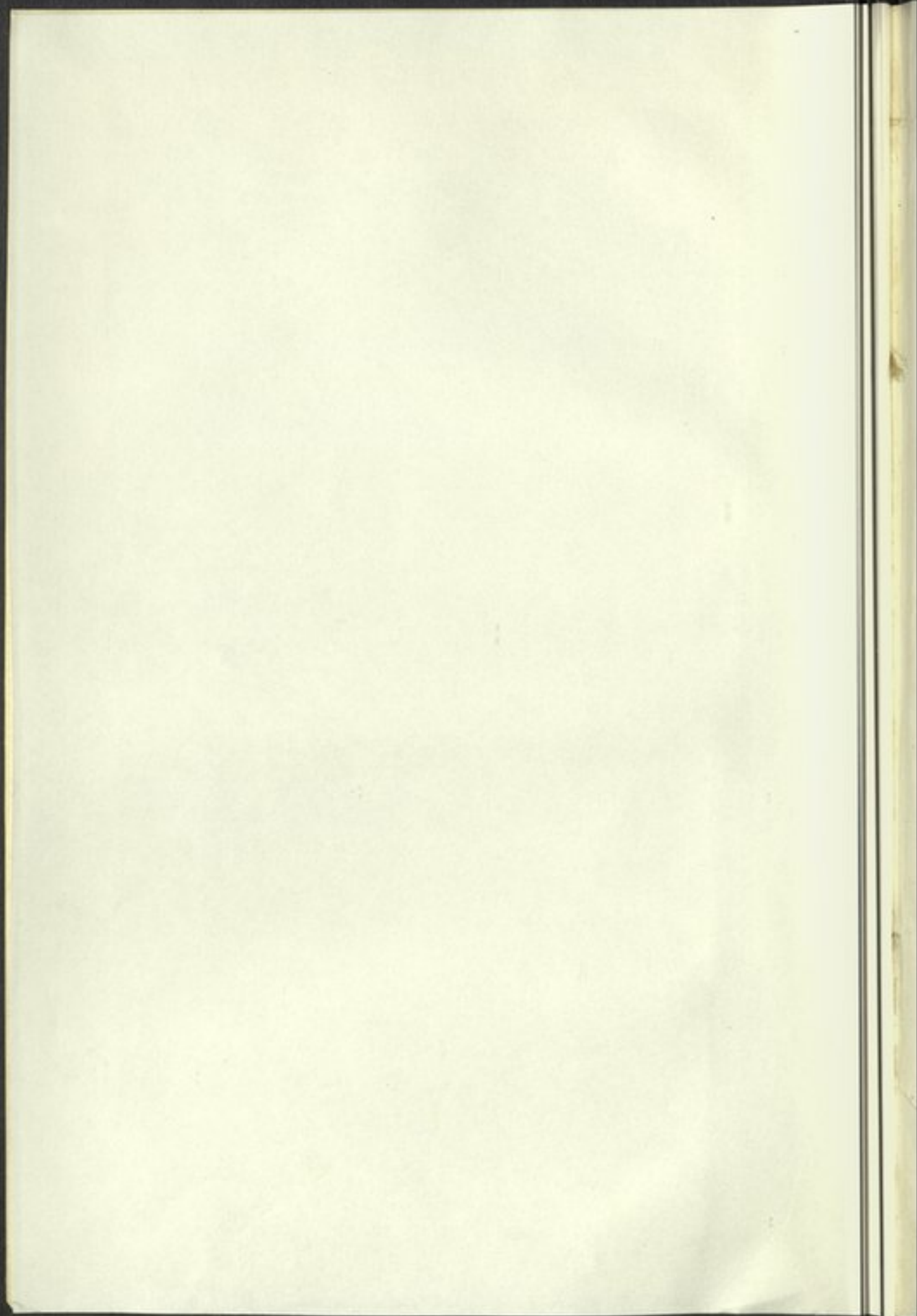
فهرست

صفحة	
٣	المعركة الادبية في مصر
٩	ادب القصة بين العقاد والرافعي
٢٠	القصة المصرية بين الشبان والشيوخ
٣١	اشياخ الادب في مصر
٣٨	مجمع اللغة العربية المللكي
٤٢	جنة الشوك لطف حسين
٤٧	توفيق عواد : من الصبي الاعرج الى الرغبة
٥٤	حكاية الرغبة
٦٣	اشخاص رواية الرغبة
٧١	حوار الرغبة واشياء اخرى
٨١	حول القصة والقصصين : قصص خليل تقي الدين
٩٩	فارس الشامي
١٠٣	جسيم امرأة
١٠٤	طريق الوجه
١٠٥	بعد العرس
١٠٦	صاحب الذي مات
١٠٨	الباب المرصود : لعمر فاخوري
١٢٥	كرم ملحم كرم : الف ليلة ليلة
١٣٢	وفاء الزمان : للريحاني
١٣٨	ابو الهول وفنيانوس : لشكري الحوري
١٤٢	يوم الاونسكو
١٤٩	← امرأة الضمير والمعذبون : لطف حسين

١٥٠	المعذبون في الارض ✓
١٥٣	الوعي القومي : للدكتور زريق
١٥٩	الوعي القومي في المقتن وعلى الهامش
١٦٧	مصطلح التاريخ : لاسد رستم
١٧٦	الادب العربي في آثار اعلامه
١٨٠	✓ الحب اقوى : لرؤيف خوري
١٨٤	الحب اقوى - عود على بدء
١٩٣	شفتان بجيلتان : لرياض طه
١٩٨	مذكرات الارقش : لمخاضيل نعيمه
٢٠١	خمسة ايام في ربوع الشام : لغزاد افرام البستاني
٢١٠	سجل التوبة : لامين ريحاني
٢١٥	تاريخ العرب : للدكتور حتي
٢١٩	مذكرات الاستاذ كرد علي
٢٢٧	ذكرى الاجداد - له ايضاً
٢٣٣	علي بن الجهم : تحليل مردم بك
٢٣٥	شجرة الدر : للعريان
٢٣٧	تاريخ الادب العربي : للاستاذ ح . فاخوري
٢٤١	القوضى العالمية على ضوء الانجيل : للخوري حنا مارون
٢٤٥	حياتي : للدكتور احمد امين
٢٤٨	الحياة والشباب : للاستاذ واصف بارودي
٢٥٠	تاريخ الشعوب الاسلامية
٢٥٢	الرمزية والادب العربي : لانطوان كرم
٢٥٥	اليوم نمر : لتيمور

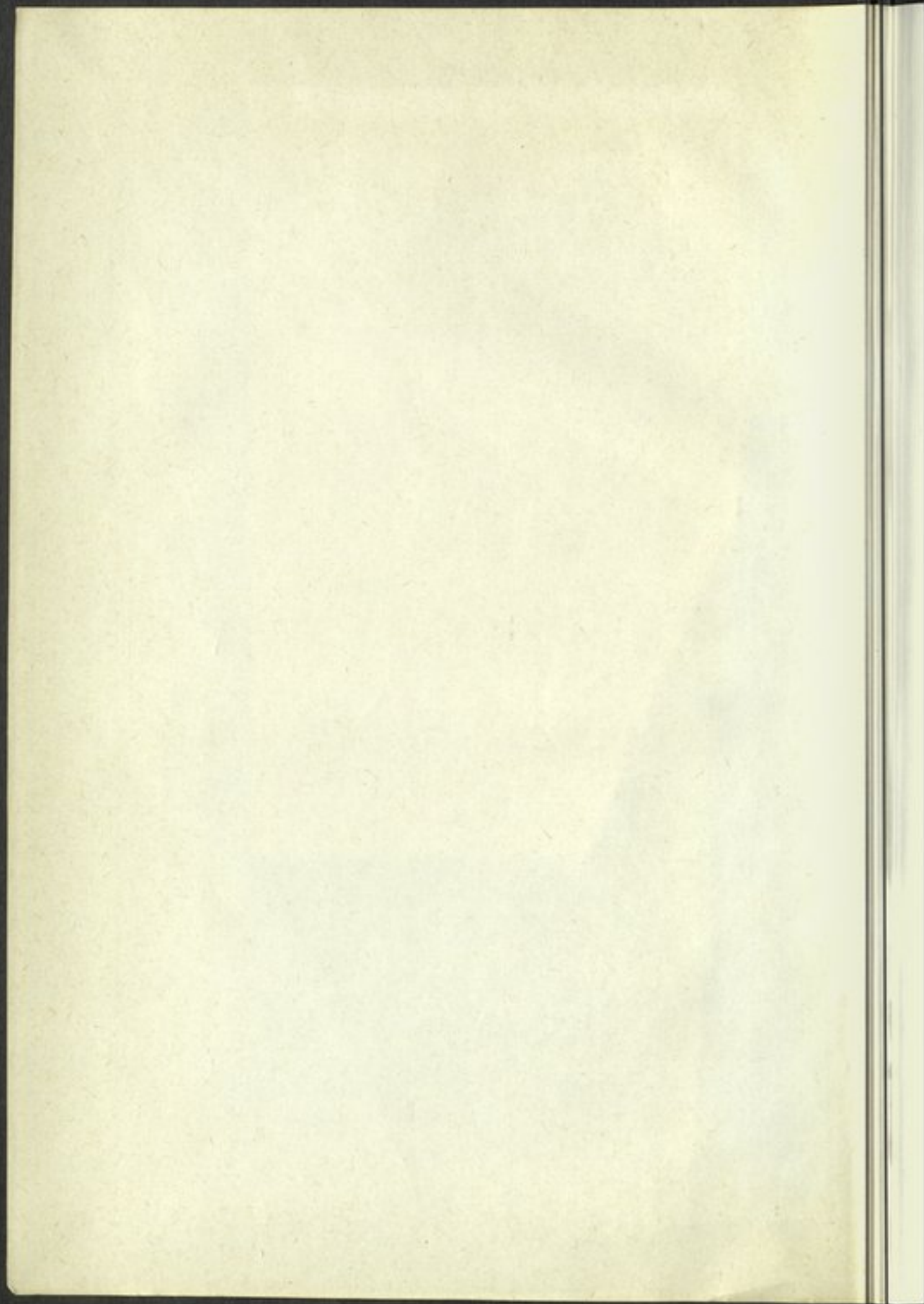
٢٥٧	اعلام الحرية : لقدري قلعجي
٢٦١	الذات المقبلة
٢٦٤	اسلاك الاستاذ حايك
٢٦٧	معجم الالفاظ العامية، والرماد الاحمر
٢٧٠	كتاب الجوارى، وحديث الصومعة
٢٧٣	يوميات هالة، وعقلي دليلى وليال ملاح، والنشيد التائه
٢٧٧	المرأة في حياة ادغار يو، ومرقص العبيان،
٢٧٩	نهاية حب
٢٨٠	ايو نواس عالم حر، ونمر وجمر
٢٨٣	الريحاني الرجل والاديب
٢٨٤	عودة الميت
٢٨٥	الادب والنقد في مصر بين احمد امين وطه حسين
٢٩٣	الادب والنقد في مصر بين امين وطه وهيكمل
٣٠٠	الادب والنقد في مصر . تجديد طه حسين تفكير في الافرنسية

انجزت المطبعة البولسية
حريصا - لبنان
طبع كتاب « في المختبر »
في ١٠ تموز سنة ١٩٥٢



٢٠٠	العلماء العرب في القرون الوسطى
٢٠١	الكتاب الثاني
٢٠٢	الكتاب الثالث
٢٠٣	مصر في القرون الوسطى
٢٠٤	الكتاب الرابع
٢٠٥	مصر في القرون الوسطى
٢٠٦	الكتاب الخامس
٢٠٧	مصر في القرون الوسطى
٢٠٨	الكتاب السادس
٢٠٩	مصر في القرون الوسطى
٢١٠	الكتاب السابع
٢١١	مصر في القرون الوسطى
٢١٢	الكتاب الثامن
٢١٣	مصر في القرون الوسطى
٢١٤	الكتاب التاسع
٢١٥	مصر في القرون الوسطى
٢١٦	الكتاب العاشر
٢١٧	مصر في القرون الوسطى
٢١٨	الكتاب الحادي عشر
٢١٩	مصر في القرون الوسطى
٢٢٠	الكتاب الثاني عشر
٢٢١	مصر في القرون الوسطى
٢٢٢	الكتاب الثالث عشر
٢٢٣	مصر في القرون الوسطى
٢٢٤	الكتاب الرابع عشر
٢٢٥	مصر في القرون الوسطى
٢٢٦	الكتاب الخامس عشر
٢٢٧	مصر في القرون الوسطى
٢٢٨	الكتاب السادس عشر
٢٢٩	مصر في القرون الوسطى
٢٣٠	الكتاب السابع عشر
٢٣١	مصر في القرون الوسطى
٢٣٢	الكتاب الثامن عشر
٢٣٣	مصر في القرون الوسطى
٢٣٤	الكتاب التاسع عشر
٢٣٥	مصر في القرون الوسطى
٢٣٦	الكتاب العشرون
٢٣٧	مصر في القرون الوسطى
٢٣٨	الكتاب الحادي والعشرون
٢٣٩	مصر في القرون الوسطى
٢٤٠	الكتاب الثاني والعشرون
٢٤١	مصر في القرون الوسطى
٢٤٢	الكتاب الثالث والعشرون
٢٤٣	مصر في القرون الوسطى
٢٤٤	الكتاب الرابع والعشرون
٢٤٥	مصر في القرون الوسطى
٢٤٦	الكتاب الخامس والعشرون
٢٤٧	مصر في القرون الوسطى
٢٤٨	الكتاب السادس والعشرون
٢٤٩	مصر في القرون الوسطى
٢٥٠	الكتاب السابع والعشرون
٢٥١	مصر في القرون الوسطى
٢٥٢	الكتاب الثامن والعشرون
٢٥٣	مصر في القرون الوسطى
٢٥٤	الكتاب التاسع والعشرون
٢٥٥	مصر في القرون الوسطى
٢٥٦	الكتاب العشرون والعشرون
٢٥٧	مصر في القرون الوسطى
٢٥٨	الكتاب الحادي والعشرون والعشرون
٢٥٩	مصر في القرون الوسطى
٢٦٠	الكتاب الثاني والعشرون والعشرون
٢٦١	مصر في القرون الوسطى
٢٦٢	الكتاب الثالث والعشرون والعشرون
٢٦٣	مصر في القرون الوسطى
٢٦٤	الكتاب الرابع والعشرون والعشرون
٢٦٥	مصر في القرون الوسطى
٢٦٦	الكتاب الخامس والعشرون والعشرون
٢٦٧	مصر في القرون الوسطى
٢٦٨	الكتاب السادس والعشرون والعشرون
٢٦٩	مصر في القرون الوسطى
٢٧٠	الكتاب السابع والعشرون والعشرون
٢٧١	مصر في القرون الوسطى
٢٧٢	الكتاب الثامن والعشرون والعشرون
٢٧٣	مصر في القرون الوسطى
٢٧٤	الكتاب التاسع والعشرون والعشرون
٢٧٥	مصر في القرون الوسطى
٢٧٦	الكتاب العشرون والعشرون والعشرون
٢٧٧	مصر في القرون الوسطى
٢٧٨	الكتاب الحادي والعشرون والعشرون والعشرون
٢٧٩	مصر في القرون الوسطى
٢٨٠	الكتاب الثاني والعشرون والعشرون والعشرون
٢٨١	مصر في القرون الوسطى
٢٨٢	الكتاب الثالث والعشرون والعشرون والعشرون
٢٨٣	مصر في القرون الوسطى
٢٨٤	الكتاب الرابع والعشرون والعشرون والعشرون
٢٨٥	مصر في القرون الوسطى
٢٨٦	الكتاب الخامس والعشرون والعشرون والعشرون
٢٨٧	مصر في القرون الوسطى
٢٨٨	الكتاب السادس والعشرون والعشرون والعشرون
٢٨٩	مصر في القرون الوسطى
٢٩٠	الكتاب السابع والعشرون والعشرون والعشرون
٢٩١	مصر في القرون الوسطى
٢٩٢	الكتاب الثامن والعشرون والعشرون والعشرون
٢٩٣	مصر في القرون الوسطى
٢٩٤	الكتاب التاسع والعشرون والعشرون والعشرون
٢٩٥	مصر في القرون الوسطى
٢٩٦	الكتاب العشرون والعشرون والعشرون والعشرون
٢٩٧	مصر في القرون الوسطى
٢٩٨	الكتاب الحادي والعشرون والعشرون والعشرون والعشرون
٢٩٩	مصر في القرون الوسطى
٣٠٠	الكتاب الثاني والعشرون والعشرون والعشرون والعشرون

المكتبة الوطنية
بغداد - لبنان
جميع محتويات ديوان القنصل
في ١٠ تموز سنة ١٩٥٢



DATE DUE

JAFET LIB.

27 JAN 1993



892.709:A13A:c.1

عبود، مازون

في المختبر

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01033172

A. U. B. LIBRARY



